حائزة جائزة غونكور الأدبية الفرنسية

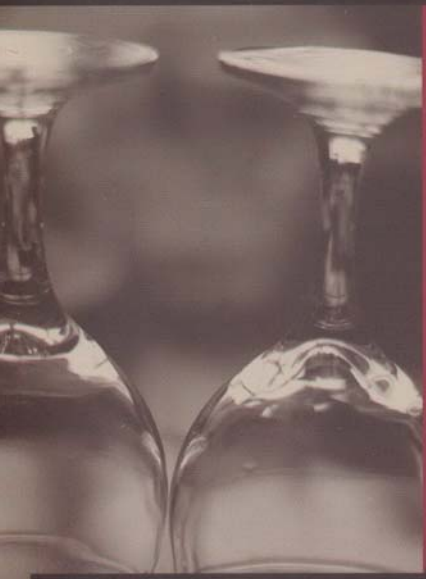

جيروم فيراري

@ketab_n
1.2.2015

موعظة عن سقوط روما

رواية

مقدمة خاصة
بالطبعة العربية
بقلم المؤلف

@ketab_n

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

www.kutub-pdf.net

جيروم فيراري

موعظة عن سقوط روما

رواية حائزة جائزة غونكور الأدبية الفرنسية

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

@ketab_n
Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

موعظة عن سقوط روما

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Arabic Copyright © All Prints Distributors & Publishers s.a.l.

© جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بإعادة طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

الجناح، شارع زاهية سلمان
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: ٨٣٧٥ - ١١ بيروت، لبنان

تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ١ ٩٦١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ١ ٩٦١+

email: tradebooks@all-prints.com
website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠١٤

ISBN: 978-9953-88-815-6

Originally published as: **Le Sermon sur la chute de Rome.**
First published in French by Editions Actes Sud, Arles. © Actes Sud, 2012.

صورة الغلاف، الكوب: Celal Teber؛ الكولوسيوم: David Iliff؛ الأغطية: Amy Palko

ترجمة: د. شاكر نوري، روائي وإعلامي ومترجم، حائز دكتوراه في الإعلام من جامعة السوربون - باريس. له سبع روايات، وكتب حوارية وفكرية.

تدقيق لغوي: بسام ضو

تصميم الغلاف: داني عوّاد

الإخراج الفني: فدوى قطيش

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

المحتويات

الإهداء..... ٧

مقدمة المؤلّف الخاصة بالطبعة العربية..... ٩

الفصل الأول:

«ربما لم تكن روما تهلك لو لم يلاقِ الرومان الهلاك».... ١٥

الفصل الثاني:

«أيها الأخوة، لا تخشَوْا إذاً من العقاب الإلهي»..... ٢٩

الفصل الثالث:

«انظر لما أنت عليه لأنه ستأتي النار لا محالة»..... ٨٣

الفصل الرابع:

«ما يفعله الإنسان، يدمّره الإنسان»..... ١٠٧

الفصل الخامس:

«أين ستذهب خارج العالم؟»..... ١٥٧

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

الفصل السادس:
«لأن الرب لم يخلق لك إلا عالماً معرّضاً للهلاك» ١٨١

الفصل السابع:
موعظة عن سقوط روما ٢٣٥

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الإهداء

إلى عمي الكبير، أنطوان فيسبيريني

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

مقدمة المؤلّف الخاصة بالطبعة العربية

دون قرار مني، ارتبطت حياتي على الدوام وبعمق بالعالم العربي. ربما هذا ما يسمى بالقدر. هي الصدفة إضافة إلى القوانين القاهرة التي سادت في بداية القرن الماضي المرتبطة بالفقر وهي التي حتّمت على أبناء بلدي من الكورسيكيين السفر إلى أصقاع العالم والتبعثُر في أراضي المستعمرة الإمبراطورية. هي الظروف نفسها التي جعلت أبي يولد في الرباط وأمي في دمشق. حالة مستهجنة لكنها عادية في نهاية الأمر ولم أكن أعيرها اهتماماً خلال طفولتي. عندما بدأت أرغب في السفر، بعد أن كرست سنوات طويلة لكورسيكا فقط، فكرت بالسفر إلى الأرجنتين أو إلى شيلي، لكن لم تجر الأمور كما قررت، إذ لم تطأ قدماي أميركا الجنوبية قط.

في أيلول/سبتمبر من عام ٢٠٠٣، كانت البعثة الفرنسية تبحث عن أستاذ لمادة الفلسفة لتوظيفه في الجزائر، فقدمت طلباً لترشيحي

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لهذه الوظيفة لكي أذهب للعيش في بلد لم أكن أعرفه ولم أتصوره في مخيلتي.

في بداية الصيف الماضي، أُرسلت إلى جيبوتي من أجل تصحيح أوراق امتحانات البكالوريا. آنذاك اقترح عليّ أحد زملائي قضاء بضعة أيام في صنعاء. لم أكن قادراً حتى على تحديد اليمن على الخارطة لكنني قلت نعم لهذا الاقتراح، ذهبنا إلى صنعاء، وأمام هذا الجمال الأخّاذ، أدركت كم هي باهتة وضئيلة أحلامنا أمام ما يشكله الواقع.

بخصوص السنوات الأربع التي أمضيتها في الجزائر، لا أستطيع القول أكثر من أنها غيرّت حياتي جذرياً كما غيرت طريقة كتابتي وتركت في قلبي آثار حب أبدي.

خلال فترة وجودي في الجزائر انتهزت الفرصة لزيارة المغرب وتونس وسورية والأردن ولبنان واكتشفت حينذاك وبفضل أصدقائي، الشعر الصوفي الذي كتبه أمثال ابن عربي والنفري والحلّاج، الذي كان ذا أهمية كبيرة بالنسبة إليّ.

وفي جميع الروايات التي كتبتها منذ عام ٢٠٠٣، كانت الجزائر حاضرة إلى جانب كورسيكا وما زالت حاضرة في روايتي الحالية «موعظة عن سقوط روما».

إنها لفرحة كبيرة أن أعلم أن هذه الرواية ستكون أول رواية

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تُتَرجم لي إلى اللغة العربية. كنت متيقناً أن الرواية لا يمكن أن توجد إلا عندما تجتاز حدود اللغة الأصلية التي كُتبت بها، على الرغم من أنها (أي الرواية) لا وجود لها أساساً من دون اللغة التي خُلقت بها. فالترجمة تسمح بأن تتضاعف المعاني والدلالات وتتحوّل، فنحن لا ننتقل من لغة إلى أخرى ومن ثقافة إلى أخرى ببراءة.

لا أدري كيف سيستقبل القراء العرب هذه الرواية وكيف سيقاربون نصّها. فالعالم العربي أوسع وأكثر تنوعاً مما أستطيع تخيله.

تتحدث رواية «موعظة عن سقوط روما» عن العوالم التي يشيدها البشر، عن نموها وتطورها ونهاياتها، عن موازاة الوجود، عن التواصل. كما تتحدث عن معنى العالم المغلق، وأعرف أن القراء في المغرب العربي يفهمون ذلك أكثر مني. هي الصدفة ـ أو القدر الذي تحدثت عنه قبل قليل ـ أرادت أن تخرج الترجمة العربية إلى الوجود وأنا في أبوظبي التي أعيش فيها. بل إن القدر شاء أن تصدر الرواية الأصلية في فرنسا في اللحظة التي وصلت بها إلى الإمارات. لا أدعي معرفة هذا البلد ولو سطحياً لأني حديث الإقامة فيه لكن إذا كان لابد من إيجاد مكان معين حيث يمكن فهم ـ أكثر من أي مكان آخر ـ ولادة عالم جديد، عالم يسطع فجأة لتعويض عالم قديم فهذا المكان هو هنا الإمارات. إذا كان ما أقوله صحيحاً، فيبدو لي أن ما كتبته في روايتي «موعظة عن سقوط روما» ربما لن يكون بالغريب على القراء هنا. ذلك ما سنرى.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وفي انتظار ذلك، لم يبق لي سوى أن أجعل روايتي تعبّر عن نفسها، بفضل الروائي والمترجم شاكر نوري، في اللغة العربية الرائعة التي لا أجيدها.

جيروم فيراري

١٥ مارس ٢٠١٣

أبو ظبي / الإمارات العربية المتحدة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

«أأنت مذهول بأن العالم يشرف على نهايته؟ كان الأحرى بك أن تُذهل لوصوله لهذا العمر المتقدم. فالعالم كالإنسان: يولد، ويكبر، ثم يموت. (...) يمتلئ الإنسان في شيخوخته بالبؤس، والعالم بدوره كما الإنسان يمتلئ في شيخوخته بالنكبات. (...) قال يسوع: العالم يذهب، يشيخ، ويرحل، العالم يلهث أساساً من القدم لكن اطمئن: شبابك سوف يتجدد مثلما يتجدد شباب النسر».

القديس أوغسطين،

الموعظة ٨١، ٨ ديسمبر ٤١٠.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

الفصل الأول

«ربما لم تكن روما تهلك

لو لم يلاقِ الرومان الهلاك»

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

مثل شهادة دامغة على البداية، والنهاية معاً، كانت تلك الصورة التي التُقطت أثناء صيف عام ١٩١٨ والتي كان مارسيل أنطونيتي ينظر إليها، ويعيد النظر فيها بإصرار طيلة حياته. لم تكن سوى حالة عبثية إذ كان يسعى بصلابة إلى فكّ أسرار الغياب وألغازه. خمسة أخوة وأخوات يصطفون في الصورة بجوار أمهم. يحيط بهم البياض من كل صوب، لا يمكن فيها تمييز لا الأرض ولا الجدران، إذ يبدو الجميع فيها طافياً مثل الأشباح وسط ضباب غريب يتربص بهم جميعاً، ويكاد يبتلعهم عما قريب واحداً تلو الآخر ويمحو آثارهم. تجلس الأم، مرتديةً ثوب الحداد، مسمّرة في مكانها، لا يبدو عليها عمر معين، تضع على رأسها وشاحاً داكن اللون، يداها مبسوطتان على ركبتيها، تُركّزُ على نقطة تبدو في منطقة أبعد من عدسة الكاميرا وكأنها غير عابئة بكل ما يحيط بها ـ لا المصور ولا آلاته، ولا ضوء الصيف، غير عابئة حتى بأطفالها، ابنها الكبير جان ـ باتيست، الذي يضع «بيرية» مذيلة بكركوشة على رأسه، ويلبس بدلة بحرية ضيقة، يقف بخوف ملازماً أمه، .بناتها الكبريات الثلاث، يقفن وراءها

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

متراصات، مسمّرات جامدات، تجمّلن بثياب أيام العيد، أطلقن أذرعهن المستقرة على جوانب أجسادهن، أصغر البنات تقف في أول الصّف، جين ماري، حافية القدمين، بأسمال رثة، تخفي وجهها الصغير الشاحب والمستاء وراء خصلات شعرها الأسود الأشعث. كلما التقت نظرات مارسيل بنظرات أمه في الصورة، تأكد بأنها موجهة إليه، وكأنها تبحث عنه في السديم، عن عيون ذلك الطفل الذي لم يولد بعد والذي لا تعرفه بعد. في تلك الصورة، في ذلك اليوم القائظ من صيف عام ١٩١٨، في ساحة تلك المدرسة، حيث علّق مصور متجوّل قماشة بيضاء على عمودين، صانعاً منها خلفية ناصعة البياض لأجل إضاءة الصورة أكثر، كان مارسيل يتأمل مشهد غيابه الخاص في تلك اللقطة. كان يتأمل أشخاصاً سيحيطونه قريباً برعايتهم، وربما بحبهم كذلك، لكنه في حقيقة الأمر في لحظة التقاط الصورة لم يكن أي واحد منهم يفكر به، ولم يكن أحد يفتقده آنذاك. أخرجوا ثياب العيد الجديدة من دولاب مليء بحبات النفتالين. وكان عليهم أن يواسوا جين ـ ماري، التي لم تبلغ بعد أربع سنوات، ولا تمتلك بعد ثوباً جديداً ولا زوجين من الأحذية. وعندما توجهوا إلى المدرسة لالتقاط تلك الصورة، كانوا سعداء بلا شك لأن ذهابهم للمدرسة كان بالتأكيد حدثاً مهماً انتشلهم ولو للحظات من رتابة الروتين وعزلة أعوام الحرب.

اكتظت ساحة المدرسة بالناس طوال نهار ذلك اليوم من صيف

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

١٩١٨ الساخن، التقط المصور بورتريهات عديدة لنساء وأطفال، وذوي عاهات، ومسنين وقساوسة، استعرضوا أنفسهم أمام عدسة كاميرته، يبحثون بدورهم عن استراحة من خلال هذا الحدث. انتظرت أم مارسيل، وإخوانه وأخواته دورهم طويلاً للمرور أمام العدسة والتقاط الصورة. كانوا يجففون دموع جين ـ ماري من حين لآخر، لأنها كانت تشعر بالخجل من ثوبها المثقوب وقدميها الحافيتين. في لحظة التقاط الصورة، رفضت جين ـ ماري أن تقف مع أفراد أسرتها، فسمحوا لها على مضض أن تقف في مقدمة الصف وحدَها مختبئةً وراء شعرها الأشعث. كانوا جميعهم هناك ما عدا مارسيل الذي لم يكن بينهم. إلا أنه بموازنة غامضة وغريبة، هو موجود الآن وهم غائبون بعد أن حملهم واحداً تلو الآخر إلى مثواهم الأخير، هو موجود، وهم غائبون ولا وجود لهم إلا من خلاله، من خلال إصرار نظراته المخلصة لهذه الصورة، هو الغائب حينذاك عند التقاطها عندما حبسوا أنفاسهم في اللحظة التي ضغط فيها المصور على زّر كاميرته. هي بالفعل موازنة غريبة جعلت مارسيل يشعر وكأنه الآن السّد الوحيد والهش الذي يفصل أسرته عن العدم، يشعر وكأنه منقذهم الوحيد من الفناء واللاوجود. لهذا السبب حرص مارسيل دائماً على إخراج هذه الصورة من الدرج حيث يحفظها بعناية شديدة، بالرغم من أنه يكره وجودها في أعماقه لأن المسؤولية الملقاة على عاتقه كبيرة جداً، فإن هو أهملها في الدرج لن يبقى من أفراد عائلته أحد، وستصبح الصورة مجرّد سلسلة جامدة من بقع

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

سوداء ورمادية وستتوقف جين ـ ماري حينها، وإلى الأبد عن أن تكون تلك الفتاة الصغيرة ذات الأربع سنوات. ينظر مارسيل إلى عائلته بغضب مرات، وكأنه يلومهم على قلة بصيرتهم وجحودهم ولامبالاتهم به، ولكن حين ينظر إلى عيني أمه، يتخيّل وكأنها تراه في ذلك السديم حيث يؤسَر الأطفال الذين لم يولدوا بعد، وكأنها كانت تنتظره في ذلك الحين، لكن مارسيل لم يكن قط في حقيقة الأمر الشخص الذي تبحث عنه أمه بنظراتها اليائسة. لأنها كانت تبحث ـ من خلال نظراتها تلك، التي ترصد ما وراء عدسة الكاميرا ـ عن الشخص الذي يُفترض أن يكون واقفاً بجوارها والذي كان غيابه واضحاً جداً، و لم تكن تلك الصورة لتُلتقط في صيف ١٩١٨ إلا لتخلّد ذلك الغياب وتجعله ملموساً. كان أبو مارسيل سجيناً في منطقة الأردين أثناء المعارك الأولى منذ بداية الحرب، وعُيّن آنذاك للعمل في منجم للملح في منطقة «باس سيليسي». اعتاد الأب أن يبعث برسالة إلى أسرته كل شهرين، يكتبها له أحد الأصدقاء ويقرأها الأطفال ثم يترجمونها لأمهم بصوت عال. كانت الرسائل تستغرق وقتاً طويلاً للوصول إليهم، لذلك كانوا دائماً يخشون أن يقرأوا يوماً صدى كلمات ميت كتبتها أيد مجهولة. لكن الأب لم يمت، وعاد إلى القرية في شهر شباط/فبراير من عام ١٩١٩ من أجل أن يرى مارسيل النور. أهداب عينيه احترقت، وأظافر يديه وكأنها قُضمت بالحمض، شفتاه المتشقّقتان بهما آثار بيضاء لجلد ميت لم يستطع التخلص منه طوال حياته. بلا شك، نظر إلى أطفاله حين عودته دون

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أن يتعرف عليهم، ولم تتغير عليه ملامح زوجته بكل تأكيد، فمنذ زمن طويل فقدت شبابها ونضارتها. ضمّها إليه ولم يفهم مارسيل أبداً ما سّر هذا العناق؟ ما الذي دفع أحدهما إلى الاقتراب من الآخر؟ كيف لجسدين جافين ومنهكين أن يجد أحدهما الإثارة في الآخر؟ لا يمكن أن يكون السبب هو العشق ولا حتى الغريزة الحيوانية، بل ربما السر الوحيد كان يكمن في حاجة مارسيل لذلك العناق والاحتضان كي يأتي للوجود، ويترك السديم حيث كان يقبع منذ زمن طويل ينتظر لحظة ولادته. وكأنها استجابت لندائه الصامت ورغبته في الحياة. في تلك الليلة في ظلام غرفتهما، قرر أبواه الزحف كلٌّ منهما نحو الآخر بهدوء كي لا يثيرا انتباه طفليهما جان ـ باتيست وجين ـ ماري اللذين كانا مستلقيين على سريرهما في إحدى زوايا الغرفة، يتظاهران بالنوم وقلباهما ينبضان بلا شك أمام غموض قرقعات والديهما وتنهداتهما المسموعة التي كانا يفهمانها من دون استطاعة تسميتها. كانا مصابين بالدوار أمام حجم الغموض الذي كان يدور على مقربة منهما حيث تشابك الجسدان في عنف وحميمية عندما كان والداه منهمكين في فرك جسديهما الواحد بالآخر، كانا يلتويان، يكتشفان جفافهما بغية إيقاظ منابع قديمة جففها الحزن والحداد والملح، يستنبطان في أعماق بطنيهما ما تبقى من أثر لزوجة وبلغم، أو أثر رطوبة أو قليل من ذلك السائل الذي يصلح ليكون وعاء للحياة، وإن تكن قطرة واحدة، وقد بذلا قصارى جهدهما من أجل أن تنتهي تلك القطرة الفريدة بالتفجر لتتكثف في أعماقهما، من

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أجل خلق الحياة، وجعلها ممكنة في الوقت الذي لم يكونا فيه إلا أشباه أحياء. كان مارسيل يخشى أن يكون ذلك الطفل غير المرغوب فيه، والذي فُرض على الحياة بقوة الضرورة الكونية الغامضة التي سمحت له أن يكبر في بطن جاف وقاس كبطن أمه، بينما كانت تهبّ رياح وخيمة من البحر والسهل، محمّلة برائحة كريهة تنشر زكاماً قاتلاً، يكتسح القرى ويلقي بالعشرات في قبور حُفرت على عجل، لتصعق هؤلاء الذين صمدوا أمام الحرب. لم يستطع أحد إيقاف ذلك الوباء، وكأنه ذباب سام أتى من الأساطير القديمة، أو ذبابة نتجت عن تخمير جمجمة لمخلوق شرير، فخرجت ذات صباح من العدم، من أعماق تجاويفها الفارغة لكي تنشر أنفاسها المسمومة، وتتغذى من حياة البشر، وتسمن بشكل مخيف، فهيمن ظلها المرعب على وديان بأسرها وخيّم عليها ليل دامس، وحده رمح ملائكي استطاع النيل منها وطرحها أرضاً في آخر المطاف. منذ زمن طويل، كان الملاك قد رجع إلى إقامته السماوية، وبات لا يسمع صلوات الناس وطوافهم خاصة الضعفاء منهم والأطفال والعجزة والنساء الحوامل. إلا أن أم مارسيل ظلت صامدة، رابطة الجأش، وحزينة، فالريح الموبوءة التي كانت تصفّر حولها بدون توقف، لم تعصف ببيتها وعائلتها بعد. لكن في نهاية الأمر، عصفت الريح ببيتها أيضاً قبل أسابيع قليلة من ولادة مارسيل، كي يسود الصمت الذي جثم على الحقول المكسوة بأكوام العليق والشوك والعوسج، الذي اكتسح الجدران الصخرية المنهارة، والحظائر المقفرة والقبور. عندما أُقتلع

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مارسيل من بطن أمه، ظل جامداً دون حراك، صامتاً لثوان طويلة قبل أن يطلق صرخة ضعيفة خاطفة، وقد اضطروا للاقتراب من شفتيه ليتحسسوا الحياة فيه، والتنصّت إلى أنفاسه الضئيلة، التي لم تترك أي أثر لضباب واضح على المرآة. عمّده والداه في الساعة نفسها وجلسا إلى جانب مهده، وهما يلقيان عليه نظرة مليئة بالحنين، وكأنهما فقداه فعلياً، وهكذا كانت نظراتهما إليه طوال سنوات طفولته.عند كل حمى بسيطة، عند كل غثيان، عند كل نوبة سعال، كانا يسهران بجانب سريره كما لو كان يحتضر، ويستقبلان علاجه بغرابة وكأنه معجزة. وفي كل مرة، لا يصدقان احتمال حدوث معجزة مرة أخرى، فلا شيء يتضاءل أسرع من الإيمان بالرحمة الإلهية الغيبية. لكن مارسيل كان دائماً يتماثل للشفاء ويصمد، ويعيش. كان عنيدا بقدر ما هو ضعيف، وكأنه تعلم في ظلمات بطن أمه الجافة أن يجمع كل مصادره الضعيفة، ليوظفها من أجل البقاء والصمود وكأنه أصبح بعيداً عن أي تأثير. وكأن شيطاناً كان يحوم حوله بلا توقف، وكان والداه يخشيان من انتصار هذا الشيطان، لكن مارسيل كان يعلم بأنه لن ينتصر، وبالرغم من أنه كان يلقيه طريح الفراش، وينهكه بالأوجاع والصداع، والإسهال، إلا أنه لم يكن ينتصر. حتى لو أنه كان يشعل في أعماقه نار القرحة، ويجعل مارسيل يبصق دماً بعنف، الشيء الذي جعله يتغيب عن المدرسة سنة كاملة، لكن ذلك الشيطان لم يكن ينتصر.كان مارسيل يتماثل للشفاء دائماً ويقف منتصباً لكن في الوقت نفسه، كان لديه شعور أن هناك يداً تتربص دائماً بمعدته،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وتنتظر تمزيق جدارها الداخلي الرقيق بأصابعها الحادة. هكذا هي الحياة التي مُنحت لمارسيل، تشهد التهديد والانتصار في آن. ولقد ادخر قواه وعواطفه وابتهاجه، ولم يظهر حماسه عندما جاءت أخته جين ماري تبحث عنه وتصرخ: مارسيل، تعال سريعاً، هناك رجل يطير أمام النافورة، ولم تبتهج عيناه حينما رأى أول راكب دراجة عرفته القرية، الذي قطع الشارع بسرعة، وذيل سترته يهلهل ويتطاير خلفه مثل أجنحة طير طويل. كان يشاهد من دون اكتراث أباه يستيقظ عند الفجر، كي يذهب إلى زراعة أرض لا يمتلكها، ويهتم بحيوانات ليست ملكه أيضاً، في الوقت الذي كانت تشيد فيه نُصب الموتى، وترتفع فوقها تماثيل نساء برونزية تشبه أمه، تدفعن أمامهن ذلك الطفل الذي ينوين التضحية به من أجل الوطن على غرار هؤلاء الجنود الذين سقطوا بأفواه فاغرة، وهم يلوّحون بأعلامهم، كما لو أنه بعد أن تم تقديم قرابين من لحم ودم، وجب الآن تقديم العديد من الرموز للعالم الهالك، والذي يطالب بها من أجل أن يندثر كلياً ليفسح المجال لعالم يولد من جديد. لكن لم يحدث شيء، لا شيء قط، كان العلم قد اختفى حقاً من دون أن يأتي عالم جيد ليعوضه، رجال مهجورون، معزولون عن العالم، يواصلون تمثيلية توالي الأجيال والموت. تزوجت أخوات مارسيل الكبيرات، الواحدة تلو الأخرى، احتفلوا وتناولوا الفطائر البائتة تحت شمس حارقة ميتة، وشربوا كعادتهم النبيذ الرديء، مبتسمين على مضض، كما لو أن شيئاً ما سيحدث أخيراً، كما لو أن النساء وأطفالهن سيخلقون في نهاية

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المطاف العالم الجديد، لكن لم يحدث شيء قط، لم يكن الزمن يأتي بجديد، فهو عبارة عن سلسلة رتيبة من فصول تتشابه جميعها، والتي لم تكن توعد إلا بلعنة استمراريتها. تتسمّر السماء والجبال والبحر في أحداق عيون حيوانات بائسة تجرّ دونما توقف هياكلها الضعيفة على ضفاف الأنهار، وسط الغبار أو الوحل، أو في عقر بيوت مضاءة بشموع باهتة. كانت جميع المرايا تعكس النظرات نفسها، والانكسارات المحفورة ذاتياً في وجوه من الشمع. عندما يخيم الليل، كان مارسيل يشعر بقلبه منقبضاً وهو منطوٍ في عمق سريره، يأسره قلق دفين لأنه كان يعلم أن تلك الليلة العميقة والصامتة لم تكن امتداداً طبيعياً ومؤقتاً للنهار، بل عبارة عن شيء مرعب، حالة تسقط فيها الأرض بعد جهد مضن، يستمر اثنتي عشرة ساعة لا يفلح في الهروب منها. لم يكن الفجر، عند بزوغه، يعلن عن شيء جديد، وكعادته يذهب مارسيل إلى المدرسة، يتوقف أحياناً على الطريق ليتقيأ الدم، ويعاهد نفسه بأن يخفي ذلك على أمه التي قد تُجبره على الاستراحة والمكوث في السرير، وقد تستغرق وقتها كله بجواره جاثمة على ركبتيْها، تصلي وتدعو وتناشد، وهي تضع كمادات حارقة على بطنه، لم يكن يريد أن يسمح لذلك الشيطان أن يقتلعه من تلك الأشياء الوحيدة التي كانت تخلق له نوعاً من الفرحة وهي دروس الأستاذ، خرائط الجغرافيا الملونة وهيبة التاريخ، والمخترعون والعلماء والأطفال الناجون من داء الكلب، ورثة الحكم والملوك، كل تلك الأشياء التي تجعله يؤمن أن هناك ما وراء البحار،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

عالماً ينبض بالحياة، أن هناك أناساً لا يزالون يعيشون دون أن تقتصر حياتهم على البقاء في دوامة الآلام والمعاناة والحيرة، عالم يُلهم الناس برغبات أخرى غير رغباتهم في التخلي عن عالمهم بسرعة. كان يدرك بيقين أن هناك ما وراء البحار أناساً يحتفلون ببزوغ عالم جديد منذ سنوات، هو ذلك العالم الذي التحق به أخوه جان باتيست في ١٩٢٦، مخفياً عمره من أجل أن يستطيع الانخراط في الجيش، راكباً أمواج البحر، ليكتشف ما يمكن أن يكون عليه العالم الجديد، اكتشاف شاركه فيه مئات من الأولاد اليافعين الذين هربوا معه، من دون أن يستطيع آباؤهم أن يجدوا سبباً لإبقائهم، فاستسلموا للوداع على الرغم من صعوبة الفراق. كان مارسيل بجانب جين ـ ماري على مائدة الطعام، يأكل مغمّض العينين من أجل أن يلتحق بخياله بجان ـ باتيست على المحيط المذهل، حيث تطفو قوارب القراصنة، مدن بدائية تمتلئ بالأناشيد، والدخان والصرخات، غابات معطّرة، مسكونة بالحيوانات المتوحشة والسكان الأصليين المستوحشين، ويتخيلهم كأنهم ينظرون إلى أخيه بتبجيل وخوف كما لو أنه رئيس الملائكة الذي لا يقهر، مُحطّم الآفات، مُخلص البشر، والمسيحية. كان يستمع لأكاذيب التبشير بالإنجيل دون أن يقول شيئاً، لأنه كان يعلم ما هي القيامة وأن السماء لن تنفتح على مصراعيها، لن يكون هناك لا فرسان ولا مزامير ولا أبواق ولا دابة، لن يكون هناك وحش، بل فقط الصمت، كما لو أن شيئاً لم يحدث. بالفعل لم يحدث شيء. كانت الأعوام تنساب مثل حبات الرمل، وعدم حدوث أي شيء خيّم

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

على كل شيء بقوته العمياء، حكم مميت من دون منازع، لن يستطيع أحد أن يحدد بدايته. فالعالم اختفى بالفعل لحظة التقطت فيه تلك الصورة في صيف ١٩١٨، من أجل أن يبقى ثمة شيء يشهد على البدايات والنهايات أيضاً، وقد اختفى مارسيل من دون أن يثير انتباه أحد، طول حياته، تأمل مارسيل غيابه الأكثر لغزاً ورعباً من كل الغيابات التي وثقها على ورق فضيّ في ذلك اليوم. وهو يتتبع الآثار البيضاء على الصورة في وجوه أمه، وأخيه وأخواته، وعلى وجه جين ـ ماري المستاء، وفي حضورهم الإنساني البائس، فيما الأرض تتوارى تحت أقدامهم من دون أن تترك لهم أي خيار سوى أن يهيموا مثل أطياف في فضاء مجرّد بلا نهاية، من دون منفذ، ومن دون اتجاه، حتى الحب الذي يربط بينهم، لم يكن قادراً على إنقاذهم لأنه بغياب العالم يصبح الحب عاجزاً. نحن نجهل في الحقيقة ما هي العوالم وما الذي يحدد وجودها. ربما هناك في مكان ما في الكون قانون غامض يترأس خلق هذه العوالم ونموها ونهايتها. لكننا نعرف التالي: لكي ينبثق عالم ما، يجب أن يموت عالم قديم. ونحن نعرف أن الفسحة التي تفصل بينهما ربما تكون قصيرة جداً أو على العكس طويلة بحيث إن البشر يستطيعون تعلّم العيش في عشرات السنين في الأسى والحزن ليكتشفوا أنّهم غير قادرين على العيش، أنهم لم يعيشوا في نهاية المطاف. ربما نحن قادرون على أن نتعرف على الإشارات غير المنظورة التي تُعلن عن عالم اختفى للتو، ليس من خلال صفير قنابل تُطلق على سهول الشمال الجريحة، ولكن من

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

خلال قرقعة الكاميرا التي تكاد أن تشوّش ضوء الصيف المهتز، ومن خلال يد رقيقة، مترهلة لامرأة شابة تغلق برفق باباً وسط الليل، باب حياة، كان من الممكن أن لا تكون حياتها، أو من خلال شراع مربع لسفينة تعبر مياه المتوسط الزرقاء في رحاب مدينة عنابة، حيث يحمل خبراً غير معقول من روما مفاده أن بشراً لا يزالون موجودين، لكن عالمهم اختفى ولم يعد له من وجود.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الفصل الثاني

«أيها الأخوة، لا تخشَوْا إذاً من العقاب الإلهي»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

في ثنايا الليل، حرصت حياة على عدم إصدار أي ضجيج، رغم أنْ لا أحدَ قادرٌ على سماعها، أغلقت باب شقتها الصغيرة الكائنة في أعلى الحانة التي سكنتها طيلة ثمانية أعوام حيث عملت فيها كنادلة ثم توارت عن الأنظار. عند الساعة العاشرة صباحاً، عاد الصيادون. على الشاحنة الصغيرة، تزاحمت الكلاب التي ما زالت هائجة تحت تأثير السباق ورائحة الدم، وهي تهّز أذنابها باستمرار، تنوح وتطلق عواءها الهستيري، والتي كان يرّد عليها الرجال المبتهجون والمتوترون مثلها، بالشتائم واللعنات، وقد اهتّز بالضحكات المكبوحة فيجيل أورديوني بجسده الضخم في الوقت الذي كان فيه رفاقه يربتون على كتفه، ويهنئونه على قدرته لأنه استطاع بمفرده أن يقتنص ثلاثة خنازير برّية من مجموع خمسة خنازير اصطادوها في الصباح، وقد احمّر وجهه ضاحكاً، في حين كان فنسان ليندري البائس يشكو من أنه لم يعد يصلح لشيء، لأنه أفلت صيد ذكر خنزير ضخم على بعد مسافة تقّل عن ثلاثين متراً، شاكياً، ومبرراً أن السبب الوحيد لاستمراره في المشاركة في عملية الصيد والمطاردة الجماعية، لا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يعدو أن يكون التجمّع من أجل احتساء المشروب الذي اعتادوا على تناوله، وها هو يسمع أحداً يصرخ أن الحانة مغلقة. كانت حياة، منتظمة على الدوام مثل مسار الكواكب وواثقة من عملها، وفكر فنسان أن خطباً ما أصابها، ما دفعه إلى تسلق الدرج راكضاً حتى الشقة، وطرق الباب بهدوء في بادئ الأمر قبل أن يطرقه بشدة وبعبثٍ مثل طبل، صارخاً:

ـ حياة، حياة، هل أنت على خير؟ أجيبيني، من فضلك!

وأعلن بأنه سيحطّم الباب. ثمة من أوحى إلى فنسان أن يُهدّئ من روعه، قد تكون حياة قد ذهبت إلى القرية في عجلة من أجل التسوق، ولكنه من الصعب بل من المستحيل تخيّل اضطرارها إلى ذلك، خاصة، في بداية الخريف، علاوة على ذلك نحن في عطلة يوم الأحد ما يجعل الاحتمال مستحيلاً، زيادة على ذلك، فأي تسوّق عاجل هذا يبرر إغلاق الحانة، لكن لا أحد يدري أبداً ماذا يحدث؟ ستعود حياة بالضرورة وستوضح أمرها، ولكنها لم تعد. كرر فنسان بصوت عالٍ أنه سيضطر لكسر الباب وتحطيمه الآن، إذ أصبح من الصعب عليه السيطرة على أعصابه، ما جعل رفاقه يقتنعون في نهاية الأمر أن الحل الأمثل والمعقول يتمثل في إخبار ماري ـ آنجل سوسيني، صاحبة الحانة وإبلاغها بالخبر الغريب، وهو غياب نادلتها حياة. استقبلتهم ماري ـ آنجل بذهول، وذهبت للظن أنهم سكارى في تلك الساعة المبكرة من النهار، وأنهم لا يعون ماذا يقولون،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وأنهم ينوون المزاح معها. بدا التعب والإنهاك على الجميع باستثناء فيرجيل الذي انزوى، ولا يزال يضحك من وقت لآخر من دون سبب، في حين كان الجميع واعين تماماً، وينتابهم قلق غامض. بدا فنسان ليندري مُدمراً لدرجة جعلت ماري ـ آنجل تأخذ نسخة من مفاتيح الحانة والشقة وتلتحق بهم، فيما يزداد قلقها. صعدت لتفتح باب شقة حياة. كانت الشقة نظيفة للغاية، ولا يوجد فيها أي أثر لذرة من الغبار، وطاولة المطبخ وصنابير الحنفيات تلمع من النظافة، وأدراج الدولايب فارغة، وشراشف السرير والوسادات تم تغييرها، لم يبق أي شيء يعود لحياة، لا قرط أذن ولا مقبض للشعر منسيّاً في زاوية من زوايا الحمام، ولا قطعة ورق، أو حتى خصلة شعر من الآثار التي تدل على وجودها، فوجئت ماري ـ آنجل برائحة مواد التنظيف التي توحي أن كائناً بشرياً عاش هنا. نظرت إلى الشقة الميتة، من دون أن تفهم الأسباب التي دفعت حياة إلى المغادرة بهذا الشكل المفاجئ، حتى من دون كلمة وداع، وهنا أدركت أنها لن تعود ولن تراها بعد الآن. سمعت صوتاً يقول:

ـ يجب أن نخبر الشرطة.

لكنها هزّت رأسها بحزن، ولم يصرّ أحد على ذلك، لأنه من الواضح أن التراجيديا الصامتة وقعت هنا، في لحظة غامضة من الليل، لا تخص إلا شخصاً واحداً، عانى من الوحدة، ولم يستطع المجتمع الإنساني أن ينصفه. سكت الجميع للحظة وثمة من قال بخجل:

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ـ بما أنك هنا، ماري ـ آنجل، يمكنك فتح الحانة، من أجل تناول بعض المشروبات.

امتثلت ماري ـ آنجل للأمر بصمت. وانبعثت تمتمة رضا من فرقة الصيادين. ضحك فيرجيل بقوة، وتوجهوا جميعاً إلى الحانة بينما الكلاب تنبح وتئن تحت أشعة الشمس، وراح فيرجيل ليندري يتمتم قائلاً:

ـ أنتم عصابة من السكارى والتافهين.

وهو يتبع المجموعة إلى الحانة، وقفت ماري ـ آنجل، خلف البار، تقوم بحركات تعرفها جيداً رغم أنها تأملت نسيانها، تصرفت بكل يسر وأريحية بين الكؤوس والأواني المليئة بقطع الثلج، تدوّن ذهنياً بانتظام وبدون أي خطأ طلبات الزبائن للمشروبات التي ترسلها بإيقاع سريع وبأصوات راعدة ومدوية، والتي أصبحت تدريجياً غير واضحة، وكانت تُصغي إلى محادثاتهم المتقطعة، من دون رابط يجمعها، ذات القصص التي رويت مائة مرة لكن كل مرة بسرد متنوع ومبالغة عجيبة. وكذلك تلاحظ طريقة فيرجيل أورديوني الذي لم ينس طريقته، والتي تتجلى في قطع الأحشاء الطرّية للخنزير البرّي الميت للتو لانتزاع شرائح رقيقة من الكبد كي يتناولها هكذا نيئة من دون طبخ، ساخن ونيئ، بهدوء إنسان بدائي ومتوحش، رغم ما يبديه من تقزز واشمئزاز، وهو يستحضر ذكرى أبيه المسكين الذي علمّه أنْ لا شيء أفضل للصحة من تلك الشرائح النيئة، وها هم أصدقاؤه

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يطلقون صرخات التقزز والاشمئزاز نفسها، وهم يضربون بقبضات أكفهم على دكة البار المصنوع من الزنك، والملطخ بمشروب اليانسون، فيما ما زالت الضحكات تتصاعد في الحانة. كان البعض يشيد بفيرجيل ويصفه بالحيوان لكن في الوقت نفسه يعتبرونه صياداً ماهراً ورامي نار محترفاً. كان فنسان ليندري يجلس وحيداً في ركن، يحدق في كأسه بعيون مليئة بخيبة الأمل. كلما مّر الزمن، كانت ماري ـ آنجل تتأكد أنها ليست مستعدة لاستئناف هذا العمل من جديد، والذي لم تعد تتحمله لدرجة غير متخيلة. خلال سنوات، اعتمدت على حياة، وتركت لها مسؤولية إدارة أعمال الحانة شيئاً فشيئاً، مانحة إياها كل الثقة، كما لو أنها جزء من عائلتها، شعرت ماري ـ آنجل بقلبها ينقبض بقوة، وهي تفكر كيف رحلت حياة من دون أن تودّعها أو تترك لها رسالة، مجرد بضعة أسطر كشهادة لتلك السنوات، وتلك الأحداث التي ارتبطت بهذا المكان، والتي كانت تعني الشيء الكثير، لكن ماري ـ آنجل أدركت أن هذا ما لم ترغب فيه حياة بالضبط، لأنها لم ترد فقط الاختفاء بل أرادت أن تمحو كل تلك السنوات التي قضتها محتفظة فقط بيديها الجميلتين اللتين تضررتا قبل الأوان، تمنت لو كان بإمكانها قطعهما وتركهما في ذات المكان بعد رحيلها، ولم تكن الطريقة المهووسة والغاضبة سوى علامة من علامات الإرادة العاتية لمحو كل شيء، إيماناً بأنه بقدرة الإرادة يمكننا استغلال قصص من حياتنا لمحو سنوات من العمر، لم نكن لنرغب في عيشها، حتى لو تطلب الأمر محو ذكريات

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

هؤلاء الناس الذين أحبونا. وعندما كانت ماري ـ آنجل، تقدم جولة أخرى من مشروب اليانسون في الكؤوس المليئة لدرجة لم يبق فيها مكان لإضافة الماء لخلطها، بدأت تفكر في حياة، وتتمنى أن تكون سعيدة، وإن لم تكن فعلى الأقل أن تشعر بالحرية أينما كان مكانها وأينما كانت وجهتها، استجمعت ماري آنجل كل سبل حبها فباركت في سرها حياة وتركتها تبتعد من دون أن تلطخ رحيلها بالضغينة. هكذا ابتعدت حياة، غير مبالية لا بالتبريكات ولا بالضغينة والحقد، ومن دون شك منها أن اختفاءها قد تسبب في قلب أوضاع عالم لم تعد تفكر به، فماري ـ آنجل أدركت للتو بكل يقين أنها لن تفتح الحانة مرة أخرى، لن تقبل على مضض، ولو مرةً إضافية واحدة بمشهد الصفار المقزز المتبقي، والذي يتبلور في كؤوس قذرة، ورائحة الأنفاس المشبعة باليانسون، وقهقهة لاعبي الورق «بيلوت»[1] في قلب فصول الشتاء الطويلة والتي تبعث في نفسها الغثيان بمجرد التفكير فيها، لن تتحمل مرة أخرى صوت المشاجرات

(١) Belot لعبة ورق بيلوت: هي طريقة فرنسية من طرق اللعب بأوراق اللعب، والتي لها قوانينها الخاصة. تلعب بالبطاقات عن طريق أربعة لاعبين بـ ٣٢ بطاقة، ثماني بطاقات لكل لاعب. أربعة لاعبين، اثنان ضد اثنين، يتم توزيع الأوراق لكل لاعب كالتالي: ٣ أوراق، ورقتين، ثم تقلب ورقة واحدة في المنتصف ويتم البحث عما يتعاقد معها (تسمى المشترى)، وتؤخذ من قبل المشتري، إما بـ (صن) أو (حكم)، ومع اللعب تحتسب النقاط، وتنتهي اللعبة بوصول أحد الفريقين لـ ١٥٢ نقطة! وتتكون البطاقات من الأنواع الأربعة للأوراق: ديمن أو شوكت أو سهنة أو قومس هاص أو لال سبيت أو كاله شيريا أو كلفس. تلعب بجميع الأوراق ما عدا الستة وتحتها والجوكر.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الدائمة التي لا تنتهي، والتي تحمل الطقوس ذاتها في التهديدات والوعود الكاذبة، والتي تنتهي دائماً بمصالحات أبدية ودامعة. عرفت أنها غير قادرة على ذلك. وحبذت لو توافق ابنتها فيرجيني، على أن تأخذ مكانها في الحانة، في انتظار تشغيل نادلة جديدة أخرى، لكن هذا الحل كان مستبعداً لأسباب عديدة. لم تقم فيرجيني بأي شيء في حياتها يمكن وصفه بالعمل. أبدعت باستكشاف العالم اللامتناهي للكسل وعدم الاكتراث، وها هي تبدو مصرّة على المضي قدماً في هذه النزعة. ولو افترضنا أن فيرجيني قد تكون قادرة بجدية على العمل فإن مزاجها العبوس وشكلها الذي لا يوحي بالمسؤولية والنضج يجعلانها غير جديرة بأي عمل خاصة ذلك العمل الذي يلزمها التعامل بشكل من المرونة والتوازن مع بشر آخرين، خاصة إذا كان هؤلاء البشر زبائن فظين وأجلافاً مثل الزبائن المعتادين على الحانة. ستعثر ماري ـ آنجل على نادلة في نهاية المطاف ولكنها لم تعد تشعر أنها قادرة على أن تتصرف كمديرة، ترفض أن تضطر ثانية لمراقبة ساعات افتتاح الحانة وإحصاء الإيرادات كل مساء كي تتأكد من دقة الحسابات، لن تستطيع ثانية تأدية دور كوميديا السلطة والتشكيك، والتي استطاعت حياة أن تثبت عدم لزوم تلك المعاملات منذ زمن طويل وفوق هذا كله، والأهم من ذلك لم تكن ماري آنجل تريد أن تعترف في أعماقها أن حياة يمكن استبدالها في نهاية المطاف. كانت تنظر إلى فيجيل أورديوني وهو يتوجه، مترنحاً نحو الحمام، وتفكر بحتمية المصير الذي ينتظر الحمّام، والذي يلمع

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

حالياً بمنظف سائل الكلور المعقم، ذات المصير الذي ينتظر أرضية الحمام والجدران، وقد تخيلت كيف ستقضي ظهيرة يوم الأحد وإسفنجة التنظيف بيدها تمسح خلف هؤلاء الزبائن المتوحشين، فقررت أن تمرّر إعلاناً لتأجير الحانة.

* * *

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في تلك الليلة، بعد أن أعطت ابنها ليبيرو أخباراً مفصّلة عن كل واحد من إخوانه وأخواته، وعن الزمرة التي لا تُحصى من أبناء الأخ والأخت، وبعد أن سألته كعادتها كل ليلة منذ وصوله، إذا كان قد تأقلم مع من ذهب إليهم في باريس، استدركت جافينا بينتوس قبل أن تغلق الخط مخبرة إياه بأن نادلة الحانة قد غادرت القرية بطريقة غامضة. نقل ليبيرو الخبر إلى ماتيو أنطونيتي، الذي أجابه بتذمر ولامبالاة، ثم باشروا أعمالهم دون الاكتراث للموضوع الذي سوف يحدد بداية حياة جديدة بالنسبة لهم. كانا يعرفان بعضهما بعضاً ليس منذ الأزل بل منذ سنوات الطفولة. كان ماتيو في عمر الثامنة عندما أبدت أمه قلقها من صفاته الانعزالية والتأملية، فقررت أن لابد له من صديق للاستمتاع بعطلته في القرية. أخذته من يده، بعد أن رّشت عليه ماء الكولونيا، واصطحبته إلى عائلة بانتوس حيث الابن الأصغر كان بعمر ابنها ماتيو. يسود بيتهم الضخم أنواع مختلفة من التوسعات والإضافات والزوايا التي لم يكن تغليفها بورق الجدران، والتي أصبحت تبدو إضافات ضخمة تنمو بدون توقف، كما لو

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أنها تتحرك بقوى خارقة ومتوحشة، هناك أسلاك كهربائية مزركشة بوصلات متدلية على طول امتداد الواجهات، وفناء البيت مكتظ بالأنابيب، ونقالات البناء، والقراميد، وكلاب نائمة في الشمس، وأكياس الأسمنت وكميات هائلة من الأشياء غير المصّنفة التي تنتظر أن تبرهن على ضرورتها ذات يوم.

ارتدت جافينا بانتيوس سترة، جسدها المشوّه بفعل الحمل، تكرر إحدى عشرة مرة والذي كان يستمر إلى آخر مرحلته تفيض أطرافه من إطار كرسي هزيل يُطوى، كان ليبيرو جالساً على جدار صغير خلف أمه ينظر إلى إخوته الثلاثة الملطخين بشحم تزييت الآلات يعملون على إصلاح سيارة قديمة يصعب تحديد عمرها انتزعت منها ماكينتها. عندما رأى ليبيرو ماتيو يقترب، تجرّه أمه، وهو يقاومها، ثبّت ليبيرو نظراته على ماتيو من دون حراك ومن دون ابتسامة، فأصبح هذا الأخير أكثر ثقلاً لدرجة أجبرت كلودي أنطونيتي فجأة على التوقف، وفي بضع ثوان، انهار باكياً، بحيث لم يكن أمامها خيار سوى أن تنقله إلى البيت لتعتني به وتواسيه وتوبخه في الوقت نفسه. لجأ أخيراً إلى ذراعي أخته الكبيرة، أوريلي، التي تقمصت كعادتها دور الأم البديلة بجديّتها الطفولية. في نهاية الظهيرة، طرق ليبيرو بابهم ووافق ماتيو على مرافقته إلى القرية في فوضى طرقات سرية من الينابيع والحشرات الرائعة والممرات الصغيرة التي أصبحت تشكل فضاءً مرتباً شيئاً فشيئاً، إلى أن أصبح يكتسب ملامح عالم لم يعد يخيفه

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بل يقع في حبه إلى درجة الهوس. كلما مرّت السنوات، أصبحت نهاية العطلة حزينة، لدرجة شعرت فيها كلودي بالأسف الشديد، كونها دفعت ربما ابنها مرات إلى الدخول في علاقة اجتماعية قوية لم تتنبأ بعواقبها من قبل. لم يعد ماتيو يعيش إلا في انتظار عطلة الصيف، وحين بلغ سنته الثالثة عشرة، أدرك أن والديه، بأنانيتهما المتوحشة لم يكونا ليقررا ولو لثانية أن يتركا عملهما في باريس ويستقرا في القرية، وإعطاءه فرصة العيش هناك بصورة نهائية، عندما أدرك ذلك أخذ ماتيو يضغط على والديه من أجل إرساله إلى القرية أثناء عطلة الشتاء على الأقل. وكان يرد على رفضهما بنوبة عصبيّة عميقة ومشينة، مضرباً عن الطعام لفترات يقرر مدتها بدهاء حيث تكون قصيرة فلا تؤثر على صحته، ولكن في الوقت نفسه طويلة بالشكل الذي تبدو مقلقة فتثير غيظ والديه وسخطهما. كان جاك وكلودي أنطونيتي يرددان بحزن بأنهما أنجبا شخصاً عنيداً وفظيعاً ومشاكساً لكن استخلاص هذه الملاحظات المؤسفة لم يساعدهما على حلّ مشكلتهما. جاك وكلودي كانا أبناء عمّ من نفس الجد. بعد أن توفيت زوجته أثناء الولادة، خضع والد جاك، مارسيل أنطونيتي، لواقع أنه عاجز عن الاهتمام بمولود رضيع واستنجد كعادته بأخته جين ـ ماري، طالباً منها العون كما فعل طوال حياته، والتي استقبلت جاك بدون تردد، وقامت بتربيته ورعايته مع ابنتها كلودي. ترعرعا وكبرا مع بعض واستقبل اكتشاف علاقتهما، ومن ثم إعلان نيتهما بالزواج وسط ذهول وامتعاض أفراد العائلة. لكنهما أصرّا على تحدّي

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

العائلة والزواج في آخر المطاف بحضور ضئيل وحفل بسيط حيث ساد شعور السخط تجاه ذلك الزواج الذي لم يكن انتصاراً للحب بل انتصاراً لشيء معيب تمثل في زواج أقارب يُعتبران أخوة.

ولدت أوريلي سليمة بصحة جيدة على عكس المتوقع ما ساعد على تهدئة التوترات العائلية، وأصبح ماتيو يعيش في جو يبدو طبيعياً تماماً. لكن سرعان ما تبين أن مارسيل، الذي عجز عن معاقبة ابنه وزوجة ابنه، اختار أن يلقي بعدوانيته اتجاه أحفاده، إلا انه انتهى بالرغم منه إلى الارتباط عاطفيا بأوريلي لدرجة أنَّ تعلقه بها يكاد يوصف بالمرضي حيث يتعامل معا وكأنها معبودته لكن في الوقت نفسه كان يتبع ماتيو بسوء نية وبكراهية على الرغم من أنه من غير اللائق إظهار هذا الشعور، كما لو أن الطفل الصغير هو الذي نظّم شخصياً هذا الزواج الكريه والبغيض الذي ولد من خلاله. عند كل صيف، كانت كلودي تباغت نظرات والدها العدائية التي يوجهها نحو ابنها، وعند كل مرة يقترب فيها ماتيو لتقبيل جده كان هذا الأخير يتراجع إلى الخلف، كانت حركته تلك تبدو جلية وبينة بالقدر الكافي حيث لا يمكن ظنها حركات عفوية، كان لا يضيّع أبداً فرصة في التعليق سلباً على حركاته كجلوسه على طاولة الطعام أو قلة نظافته أو بلاهته، كان جاك يخفض نظراته بألم في الوقت الذي كانت كلودي تكاد لا تمسك نفسها حيث إنها تتراجع عشرين مرة في اليوم من صد وإهانة هذا الرجل المسن الذي لم تعد تكن له أيَّ عاطفة. عندما بدأ ماتيو يرافق ليبيرو، أبدى مارسيل خساسته، وقال متمتماً:

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ـ لا يدهشني بأنه افتتن بـشخص من سردينيا[1].

لم تعقب كلودي بشيء.

ـ أتمنى أن لا يعيده ثانية للبيت.

لم تقل شيئاً على مدى سنوات. لكن قبل أسابيع قليلة، أرسل ماتيو بطاقة تهنئة إلى جده بمناسبة عيد ميلاده كعادته في كل عام.

عيد ميلاد سعيد، أحبك. حفيدك، ماتيو.

بطاقة تهنئة شعائرية وبريئة أجاب عليها مارسيل بخطين:

ولدي، وأنت في سن الثالثة عشرة من العمر تقريباً، الجدير بك أن تعفيني من قراءة هذه السخافات التي لم تصبح تناسب سني ولا سنك. الجدير بك أن تكتب لي إذا عندك شيء تقوله، وإلا التزم الصمت.

وقعت الرسالة بيد كلودي قبل أن تصل إلى ماتيو، فأمسكت بالهاتف وهي ترتعد من الغيظ:

ـ أنت عجوز تافه، يا عمي، وستفطس بلا شك كأي عجوز تافه، ولكن في انتظار ذلك، أحذرك من الحديث بهذه الطريقة مع ابني.

---

(١) Sardinia سردينيا (إيطاليا)، وهي ثاني أكبر جزيرة في البحر الأبيض المتوسط (بعد صقلية وقبل قبرص). هي إقليم ذاتي الحكم من إيطاليا، ويجاورها جزيرة كورسيكا الفرنسية وشبه الجزيرة الإيطالية وصقلية وتونس وجزر البليار الإسبانية. وقد غزاها المسلمون أربع مرات في التاريخ.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تباكى مارسيل نوعاً ما في الهاتف قبل أن تقفل كلودي الخط في وجهه، وهي تلعن ظلم القدر الذي حرمها والديها والذي ترك هذا العجوز الخرف الذي لا يمكن تحمُّله، وهو يشكو ويتذمر، ولكنه في الوقت نفسه، يبدو صلباً، وقاهراً لقرحة تتفاقم، والتي كانت من المفروض أن تودي بحياته منذ سنوات، قبل سبعين عاماً. كان في حقيقة الأمر بصحة فائقة، وكأنه يصرّ قبل كل شيء على إلحاق الأذى بحياة ابنه وهو في سن البلوغ بعد أن أهمله في سنوات طفولته. مشروع عذب داعب ذهن كلودي وهو ركوب طائرة والذهاب إلى القرية من أجل خنقه بوسادة، أو أفضل من ذلك خنقه بيديها إلا أنها يجب أن تتخلى عن رغباتها الانتقامية تلك التي تخالجها، واستخلاص حقيقة واحدة هي أنه من المستحيل أن تعهّد ابنها إلى هذا الرجل من أجل قضاء عطلة، وفي الوقت نفسه كان من المستحيل عليها أن تخبر ابنها أن عليه البقاء في باريس لمجرد أن جده لأبيه يكرهه. اتصال هاتفي من غافينا بينتوس حلّ المشكلة: أعلنت في لهجة بارباغيا[1] في خليط من اللغة الكورسيكيّة والساردیّة بأنها جاهزة لاستقبال ماتيو كلما رغب في ذلك. كانت كلودي ترغب في إبداء الرفض، لا

(١) Sard سارد: هي لغة أو لهجة تنتمي إلى اللغات الهندو - أوروبية، ويتم الحديث بها في بارباغيا في سردينيا وعند عدد من العمال المهاجرين الساردیين المنتشرين في أنحاء العالم. هي قريبة من اللاتينية السوقية. وأصل اللغة الرومانية. وظل أهالي سارد محافظين وبدائيين. يتحدث بهذه اللغة نحو مليون و٣٥٠ ألف شخص، من قبل المهاجرين من أصول ساردية في إيطاليا والعالم.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لشيء إلا لتلقن ماتيو أن الابتزاز العاطفي لا ينفع لشيء أبداً، كما أنها لم تشكك بأنه هو كان، من خلال ليبيرو، وراء هذا العرض الملائم جداً، لكنها قبلت بمجرد أنها فهمت أن بقبولها هذا أصبحت الآن في وضع يسمح لها بدورها ممارسة الابتزاز العاطفي على ابنها، ولم تحرم نفسها من تأدية ذاك الدور، وهي تلوّح بتهديدها إلغاء العطلة كلما شعرت بضعف النتائج المدرسية أو بمحاولة تمرد ما، وابتهجت لسنوات حيث لاحظت أن في نهاية الأمر، يعطي الابتزاز أكله، الشيء الذي يؤكده منظر ابنها يومياً على أنه ابن مؤدب ومطيع.

* * *

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

هناك عالمان، ربما عوالم لانهائية أخرى، لكنها انحصرت في عالمين فقط بالنسبة إليه. عالمان منفصلان تماماً، طبقي، من دون حدود مشتركة، وثمة رغبة بجعل العالم الأكثر غرابة، كما لو أنه اكتشف أن الجزء الجوهري من ذاته هو الجزء الأكثر غرابة فيه، وحق عليه الآن اكتشافه واللحاق به، هذا الجزء الذي اقتُلع منه قبل ولادته بكثير حيث حُكم عليه بالعيش كغريب، من دون أن يدرك ذلك حتى أصبحت في تلك الحياة كل الأشياء المألوفة كريهة وممقوتة، لم تكن حياة بالأساس بل مجرد تركيبة آلية ساخرة، يريد الآن نسيانها، كترك رياح الجبل الباردة تلسع وجهه، وهو يصعد مع ليبيرو في خلفية سيارة الدفع الرباعي المرتجة، والتي يقودها سوفير بيتوس على الطريق المتكسرة المؤدية إلى حظيرته. وهو في عمر السادسة عشرة كان ماتيو يقضي جميع عطلاته الشتائية في القرى، يترعرع ويكبر في جو أخوة مبهمة لعائلة بانتيوس بأريحية عالم اثنولوجي مُحنك.

اقترح شقيق ليبيرو الكبير عليهما أن يأتيا لقضاء النهار معه، وعندما وصلا إلى الحظيرة، وجدا فيرجيل أورديوني منشغلاً بعملية

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

خصي صغار الخنازير المجتمعة خلف السياج. كان يقدم لهم الأكل لاستقطابهم مطلقاً همهمات موزونة، متنوّعة من شأنها أن تلقى قبولاً طيباً في أذن الخنازير، وعندما يُفتتن أحد الخنازير بسحر هذه الموسيقى، أو عندما يكون معمياً من شدة شرهه ونهمه، يقترب الخنزير بدون انتباه، فينقض فيرجيل عليه، يلقيه أرضاً مثل كيس بطاطس، ثم يدوّره ممسكاً بأرجله الخلفية ثم يعتلي بطنه، حاصراً بين الكماشة المحكمة لفخذيه الضخمين، الحيوان المفزوع الذي أصبح الآن يطلق عويلاً شنيعاً، مدركاً بالتأكيد أن لا خير يُراد له، وفيرجيل، ممسكاً سكينه بيديه، يقوم بشق كيسي الخصيتين بحركة واثقة ثم يوغل أصابعه في الفتحة لاستخراج الخصية الأولى حيث يقوم بتقطيع الحبل الصغير قبل أن يقوم بنفس الحركة للخصية الثانية، ثم يرمي بهما في حوض كبير نصف ممتلئ.

وفور انتهاء العملية، يبدو الخنزير المتحرر بصلابة وجلادة عجيبتين أذهلتا ماتيو، ثم ينكب على الأكل كأن شيئاً لم يكن بين أقرانه من الخنازير غير الآبهة.هكذا مرّ الواحد تلو الآخر بين يدي فيرجيل الماهرتين والخبيرتين. كان ماتيو وليبيرو يشاهدان العملية مستندين إلى حاجز. خرج سوفير من الحظيرة والتحق بهما.

ـ لم ترَ ذلك قطعاً ماتيو، صحيح؟

هزّ ماتيو رأسه وضحك.سوفير.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- فيرجيل بارع في ذلك، إنه يعرف الصنعة بكل تأكيد.

لم يفكر ماتيو بالتعقيب على أيّ حال، فالمكان المسور الذي أمامه تحوّل لتوه إلى مسرح مليء بالمفاجآت. جلس فيرجيل على خنزير فتح للتوّ كيسي خصيتيه، ثم أطلق شتيمة ثم استدار نحو سوفير الذي سأله عما حدث.

- هناك خصية واحدة. واحدة فقط ! الخصية الأخرى لم تنزل في الكيس!

هزّ سوفير كتفيه وقال :

- هذا يحدث !

لم يكن فيرجيل ينوي الاستسلام، قام بتقطيع كيس الخصية وباشر في البحث عن الثانية في الكيس الفارغة، ثم صرخ:

- إنني أتحسسها! أتحسسها!

واستمر بإطلاق الشتائم لأن الخنزير الذي كان يدفع ثمن تأخر البلوغ، كان يبذل جهوداً يائسة من أجل الانفلات من قبضة معذبه، هارباً في جميع الاتجاهات، والغبار يتطاير، وأصبحت صرخاته تشبه الآن صرخات آدمي إلى درجة جعلت فيرجيل يتوقف عن إصراره. نهض الخنزير ولجأ إلى ركن من السور، مظهره عابس ومكفهر، رجلاه ترتجفان، وأذناه الطويلتان المبقعتان بالأسود مطبقتان أمام عينيه.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تساءل ماتيو.

- هل سوف يموت؟

التحق بهما فيرجيل، حاملاً الحوض تحت ذراعيه، يجفف عرقه من جبينه ضاحكاً:

- كلا، لن يموت، إنه خائف قليلاً فقط، فالخنزير قويّ لا يموت بهذه السهولة، وضحك ثانية وسألهما:

- كل شيء بخير يا أولاد ؟ هل نذهب لتناول الغذاء؟

واكتشف ماتيو أن الحوض يحتوي على وجبة غذائهم، وأجبر نفسه على إخفاء دهشته لأن هذا العالم أصبح عالمه، بالرغم من أنه لا يعرف تفاصيله تماماً. فكل مفاجآته، وإن كانت مثيرة للاشمئزاز، يجب عليه في الحال نكران وقعها عليه، والتعامل معها كأنها عادة مألوفة، لو أن رتابة الروتين لا تتناسب بتاتاً هذه المرة مع التلذذ الذي شعر به ماتيو لفكرة التهام خصيات الخنزير المشوية على نار الخشب، بينما كانت رياح عاتية تدفع بالغيوم نحو الجبال، فوق كنيسة صغيرة مكرسة للعذراء، ناصعة البياض تشتعل في سفحها شموع بألوانها الناصعة يكون قد أضاءها سوفير وفرجيل أحياناً من أجل صديقة عزلتهم. لقد كنست الرياح منذ زمن طويل الأيدي التي شيدّت هذه الكنيسة، لكنها تركت هنا آثار وجودها، وهناك في أعلى المنحدر الشديد الميلان، يمكن أن نرى بقية آثار جدران منهارة،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تكاد لا ترى تقريباً لأنها تحمل اللون الأحمر ذاته الشبيه بصخرة الجرانيت حيث انبثقت في البداية قبل أن يستعيدها الجبل، وأن يمتصها ويذيبها ببطء في بطنه المغطى بالأحجار والشوك، لا لكي يُظهر قوته بل ليبرهن على رقته. كان سوفير يسخن غلاية قهوة رديئة على النار، ويتكلم مع فيرجيل وأخيه بلغة لم يفهمها ماتيو لكنه عرف بأنها لغتهما، ويستمع إليهما، وهو يحتسي القهوة الساخنة، ويتخيل وكأنه يفهم حديثهما ولكن كلماتهما لم تكن بالنسبة إليه سوى خرير نهر نسمع انسياب مياهه الخفية في عمق جرف وكأنه جرح عميق في بطن الجبل شقت حفرته أصابع الآلات بعيداً في بداية خلق الكون.

بعد تناول الوجبة، التحقا بفرجيل في غرفة حيث يجففون الأجبان وفتح حقيبة قديمة، ضخمة، مليئة بنفايات فظيعة رثة وقديمة، وحلقات حديدية قديمة وصدئة وأزواج أحذية جلدية عسكرية من جميع الأحجام متصلبّة لدرجة تبدو وكأنها منحوتة من البرونز، وأخرج منها بندقية حرب ملفوفة بخرق وقطع من الخردة المتنوعة اتضح أنها رشاشات من نوع «ستين»[1]، الشيء الذي أصاب ماتيو بذهول، والتي ألقي بها من السماء بواسطة مظلات خلال الحرب. كانت كبيرة في أعدادها بحيث لا يزال الناس يعثرون عليها، وما زالت تنتظر من يلتقطها في ساحات منطقة المقاومة منذ

(١) sten ستين: رشاش بريطاني استخدم بشكل واسع في الحرب العالمية الثانية وحرب كوريا. وكانت هذه البندقية رمزاً للمجاميع المقاومة، وهي قليلة التكاليف. وقد صُنع منها ٤ ملايين، واشتق اسمها من أسماء مصمميها.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ذلك الحين. كان فيرجيل يقول ضاحكاً على الدوام إن أباه كان من رجال المقاومة الكبار. ويشكل العدو المخيف للإيطاليين في تلك الفترة عندما كان ريبيدو[1] ورجاله على الأرض نفسها، يتقدمون ويتربصون ليلاً، وبصمت مترقبين صوت الطائرات، في تلك الأثناء ربّت فيرجيل على كتف ماتيو الذي كان يستمع إليه، فاغر الفم، متخيلاً أنه تخيّل أنه بطل خطير بدوره أيضاً:

- تعال، دعنا نطلق النار.

فحص فيرجيل البندقية، أخذ بعض طلقات الرصاص وذهبا للجلوس على صخرة كبيرة، مطلة على الوادي في سفح الجبل ثم بدأوا يطلقون الرصاص على سفح الجبل المقابل طلقة تلو طلقة، وكان صدى إطلاق الرصاص يضيع ويتلاشى في غابة «فادي مالي»، حيث تغشى كميات السحاب الكبيرة الأرض بينما تتصاعد كتل الضباب من البحر ومن الوادي، شعر ماتيو بالبرد، ارتجاج بندقيته رضّ كتفه لكنه كان في أوج السعادة والابتهاج.

* * *

(١) Ribeddu ريبيدو: هو الاسم المستعار لدومنيك لوشيني، رئيس المقاومين الشيوعيين في منطقة ألتا روكا. (هذه الملاحظة فقط من المؤلف).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

على عكس كل الترقبات، رسم رحيل حياة بداية سلسلة من النكبات التي داهمت حانة القرية شبيهة باللعنات الإلهية التي نزلت على مصر. على الرغم من أن كل شيء كان يسير نحو الأفضل: ما لبثت أن أعلنت ماري - آنجل سوسيني عن وظيفة إدارة الحانة الشاغرة حتى تقدم مرشح. كان رجلاً في الثلاثين من عمره، ينحدر من مدينة ساحلية صغيرة، عمل طويلاً كنادل وساقٍ في عدد من الحانات، لم يتردد في وصفها بالمتميزة. كان يفيض حماساً بكل معنى الكلمة، فاحتمالية نجاح الحانة كبيرةٌ جداً من دون أدنى شك، ولا يثبت ذلك بمجرد التحاق مدير ماهر وحاذق، وهذا ما لم يكن متوفراً حتى اللحظة في ماري ـ آنجل دون قصد الإساءة لها بالطبع. لم يكن أحد مجبراً على امتلاك الطموح لكن هذا الشاب كان يمتلك طموحاً كبيراً جداً، لم يكن ليقتنع بإدارة صغيرة هادئة، فالزبائن المحليون ليسوا كافين لإنجاح الحانة. لا يمكن أن نعوّل على لاعبي ورق «بيلوت» والسكيرين المحليين من أجل إنجاح تجارة جديرة بهذا الاسم، يجب استقطاب الشباب، والسياح، اقتراح تصور جديد، اقتناء

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أجهزة صوتية موسيقية ومكبرات صوت، إعداد وجبات صغيرة، وفي هذا الصدد كان يخطط لمطبخ واستقدام فرقة «دي. جي» الشهيرة من أوروبا لتقديم الموسيقى[1]، فهو يعرف أجواء الليل جيداً مثلما يعرف جيبه، كان يتمشى في الحانة مشيرا إلى ما يجب تغييره حتماً، بدءاً بالأثاث الذي يرثى له. وعندما أعلنت ماري ـ آنجل أنها تطلب أحد عشر ألف يورو سنوياً كسعر، شاملاً الإدارة والإيجار مستندة في طلبها هذا على إيرادات المحل، رفع الشاب ذراعيه إلى السماء صارخاً إن هذا مجانيّ، لم يبق لماري - آنجل إلا أن تشهد بذهول على التغييرات التي ستشهدها، والتي هي من صنعه باعتباره مدير العمل. يُعتبر أحد عشر ألف يورو مبلغاً قليلاً لا يُذكر وشبيهاً بالهدية، انتابه شعور مزعج، وكأنه يقوم بسرقتها بهذه العملية. شرح لها بأنه قرر بداية أن يستثمر أمواله في الأعمال الأساسية، وينوي دفع القسط الأول من المبلغ خلال النصف الأول، بعدها بستة أشهر ينوي دفع القسط المتبقي ودفع مستحقات سنة مقدماً. وجدت ماري ـ آنجل الاقتراح منصفاً ورفضت تصديق فنسان ليندري حين أتى يحذرها من أن هذا الرجل، بعد أن قام ببحث صغير عنه، خلص إلى أن هذا الشخص ليس إلا مراوغاً معروفاً، تتلخص كل خبرته المهنية في بعض الأشغال الموسمية في محلات بسيطة لبيع البطاطا المقلية على

(١) Disc Jockey اختصارها بالإنجليزية: DJ الـ (دي جي) هو اختصار لكلمة ديسك جوكي ويقصد بها مقدم الأغاني المسجلة أي الشخص الذي يتولى اختيار وتقديم الأغاني والألحان المسجلة مسبقاً لمجموعة من الجمهور أو رواد الحانة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الشواطئ. ويبدو أن فنسان كان غير محق في تخوفه هذا. فالأشغال التي أعلن عنها بدأ تطبيقها فعلياً. تم تحويل الصالة الخلفية إلى مطبخ، تم تغيير الأثاث، ثم جلب مكبرات الصوت، وآلات موسيقية وأسطوانات، وطاولة رائعة لبلياردو فرنسي، وفي عشية الافتتاح، علقت لافتة مضاءة في أعلى باب الحانة. يمكن أن نرى عليها وجهاً غامزاً لتشي غيفارا تنطلق منه فقاعة من الرسوم المتحركة تعلن في حروف مضاءة من النيون الأزرق :«حانة الكوماندانت، موسيقى، وطعام، واستقبال».

في اليوم التالي، في أمسية الافتتاح، تم استقبال سكّان القرية بأصوات موسيقى التكنو الصاخبة التي كانت تحجب صراخهم وهم يلعبون لعبة ورق «بيلوت» واكتشفوا بذهول أن المدير قرر أن لا يبيع مشروب «الباستيس»، كنوع من الارتقاء بالمعايير النوعية، وكبديل اقترح عليهم تقديم شراب خليط من أصناف الفواكه والكحول باهظ الثمن حيث كانوا يشربونه على مضض ولا يستطيعون طلب ملء كأس أخرى ثانية لأن المدير كان منشغلاً في الاحتفاء والترحيب بزمرة من الأصدقاء الذين كانوا يحتسون ليترات من شراب الفودكا ما جعلهم يرقصون بأجساد عارية على طاولة البار. وسرعان ما تحوّل هؤلاء الأصدقاء إلى الزبائن المنتظمين الوحيدين للحانة التي قلصّت ساعات افتتاحها إلى أقل مدة ممكنة حيث أخذت بقفل أبوابها خلال الصباح، وفي الساعة السادسة مساءً، تعلن صوت موسيقى «التكنو»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الصاخبة ابتداء ساعة تقديم المشروبات. فتبدأ السيارات الأجنبية تصطف في كل مكان، وتتعالى أصوات القهقهات والصرخات إلى حدود الساعة الحادية عشرة ليلاً، في تلك الساعة التي تتجه فيها زمرة الأصدقاء، من ضمنهم المدير أيضاً إلى المدينة، لتستأنف الموسيقى عند الساعة الرابعة صباحاً، عند العودة من الملاهي الليلية، ليتم الحكم على أهل القرية بالأرق والسهاد، وهم ينظرون من فتحات نوافذهم مدير الحانة محاطاً بمجموعة من فتيات ساحرات الجمال، ينظرون إليهم، وهم يدخلون إلى الحانة، فيقفل حينها الباب بالقفل حيث ذاعت شائعات وسط القرية بأن طاولة البلياردو الفرنسي لم يتم اقتناؤها إلا من أجل استخدامها كسرير للمدير الجديد لإشباع شهوانيته. في غضون ثلاثة أشهر، ذهبت ماري - آنجل لرؤية المدير، وسألته عن كيفية دفع أجرة إدارة الحانة، فأكد لها أن لا تقلق لكنها ارتأت أن تعاود زيارتها له، برفقة فنسان ليندري الذي طلب منه الاطلاع على حسابات المحل، وأخبره بأنه لولم يستجب المشروع لفضوله، فإنه سيضطر إلى الأسوأ.

حاول المدير المراوغة قبل أن يعترف أنه لا يملك دفتر حسابات وأنه يأخذ كل مساء إيرادات اليوم من الخزانة، لينفقها في سهراته في المدينة.

وانه يتوقع أن تستوي الأمور ويدفع المستحقات في فصل الربيع المقبل عندما ينتعش الموسم مع بداية الموسم السياحي.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تنهّد فنسان.

- ستدفع كل المستحقات الأسبوع المقبل وإلا حطمت كل أسنانك.

فأتت ردة فعل المدير مباغتة لا تخلو من القدرية بشيء من النبل:

- لا فلس لديّ إطلاقاً. أعتقد أن عليك تحطيم أسناني.

حاولت ماري - آنجل منع فنسان من الانفعال في محاولة منها للبحث عن حلّ أو ترتيب، الشيء الذي بدا مستحيلاً، فإضافة إلى إفلاس الصندوق، لم يدفع حقوق الموردين كما لم يدفع تكاليف أعمال الإصلاحات التي تمت بالقروض. شدّ فنسان قبضته منفعلاً بينما جرّته ماري - آنجل إلى خارج المحل وهي تكرر: لا داعي لذلك، لا داعي لذلك. لكنه استدار وأخذ دورق ماء وهشمّه على رأس المدير الذي انهار وهو يئن. فيما كان فنسان يلهث من الغضب.

- إنها مسألة مبدأ، تباً لك، مسألة مبدأ فقط!

اضطرت ماري - آنجل إلى التنازل عن حقوقها ودفع الديون التي لم تكن مسؤولة عنها وقررت أن تكون حذرة في المستقبل في اختياراتها، لكن هذه التجربة لم تنفعها كثيراً. فقد أودعت الإدارة بيد زوجين شابين لطيفين، حوّلا الحانة بشجارهما المتكرر إلى أرض بلا بشر حيث تنطلق منها صباح مساء قرقعات زجاج مكسّر كما

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تتعالى منها الشتائم والسباب والكلمات البذيئة غير اللائقة، تتبعها مصالحات جنسية لاهثة، وصاخبة، والتي بينت أن مخزون الكلمات البذيئة للزوجين لا ينضب سواء في حالتي الغضب والانتشاء، إلى درجة أن أمهات مستنكرات للوضع منعن أطفالهن ونسلهن البريء من الاقتراب من هذا المكان الفاجر إلى أن تم استبدال الزوجين الشابين بسيدة ذات مظهر وسن محترمين لكنها كانت تمضي أيامها في التشاجر مع الزبائن وتسعير أثمان المشروبات بحسبِ هواها ونزواتها، كما لو أنها كرّست كل طاقتها من أجل إغراق الحانة في الإفلاس في فترة قياسية، أصيبت ماري - آنجل بخيبة أمل كبيرة على أبواب فصل الصيف، واقتنعت بضرورة أخذ زمام أمور الحانة شخصياً وإصلاح الأضرار بنفسها قبل فوات الأوان. لكن في شهر يونيو عندما أصبحت شبه متأكدة من قرار مباشرة العمل، قُدّم لها عرض أفرحها كثيراً. جاء أصحاب العرض من أوروبا. كانوا يعملون في حانة عائلية في ضاحية ستراسبورغ طيلة خمسة عشر عاماً، ويبحثون الآن عن بلد مناخه جميل وأكثر رأفة. بيرنارد غراتاس وزوجته مع أولادهما الثلاثة، أعمار أطفالهما تتراوح بين اثني عشر إلى ثمانية عشر عاماً، ليسوا على قدر كبير من الوسامة ولكنهم يتمتعون بتربية صالحة، مصطحبين جدة عليلة ومخرفة، أوحت حالتها لماري - آنجل بالثقة تجاه العائلة لأن وضع الجدة المسنة يحتاج إلى استقرار، وكانت عائلة غراتاس تجسيداً لهذا الاستقرار. عندما شرحت لهم بأنها اضطرت لتكبد متاعب كثيرة لا ترغب في الحديث عنها كثيراً، وأنها تفضل أن يتم

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الدفع لها مقدماً، سرعان ما وقّع لها بيرنارد غراتاس فوراً على صك واتضح أن الصك يحمل رصيداً مما كان مفاجأة جميلة لماري - آنجل التي عهدت لهم بمفاتيح الحانة والشقة، وهي تكاد لا تكبت في نفسها رغبة أخذهم بالأحضان. استقرت الجدة بالقرب من موقد النار وأعادت عائلة غراتاس افتتاح الحانة ثم أعادت تسميتها بحانة «الصيادين»، لم يكن الاسم متميزاً لكنه عبارة تخاطب تقاليد زبائن البلد الذين كانوا متخوفين منها لكن سرعان ما عادوا ليرتاحوا للمحل واستعادوا عاداتهم القديمة: تناول قهوة الصباح، ولعب الورق في المساء الذي يبدأ فيه تقديم المشروبات، وهم يتداولون نقاشاتهم المقتضبة في عذوبة ليالي الصيف. كانت ماري - آنجل سعيدة لكنها لا تزال تعيب على نفسها بأنها لم تفهم خطأها مبكراً. ما كان يجب عليها أن تعهد بحانتها إلى مواطنيها مهما كلف الأمر، ولو أنها فكرت لثانية واحدة، لسارعت للبحث عن مديرين من أوروبا، ونجاح عائلة غراتاس أثبت لها ذلك بطريقة ساطعة، أناس بسطاء وكادحون وواعون بحقائق الوضع الشيء الذي كان يعوض كثيراً عن غياب الأفكار الفانتازية عندهم، نعم هذا ما كان يجب عمله منذ البداية، وفكرت أن الأمر سينتهي بهم إلى التأقلم الكلي مع سكان القرية، رغم أن سكّان القرية يتمتعون بمفاهيمهم الخشنة في الضيافة في الوقت الحالي، لا يطلقون عليهم إلا لقب « سكان الغال»[1] ولا يتخاطبون إلا إذا احتاجوا طلب شيء ما، لكن كل شيء سيتطور نحو

(١) Gaule الغال: (بالفرنسية: غال، باللاتينية: Gallia غاليا) هو الاسم الذي أطلقه =

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الأفضل، فمع اقتراب فصل الصيف أصبحت الأجواء وإن لا يمكن وصفها بالصداقة، فهي على الأقل أجواء مفعمة بالهدوء والأريحية وها هو بيرنارد غراتاس تتمُّ دعوته للمشاركة في مباريات ورق «بيلوت»، حتى إن فنسان ليندري قرر أن يصافحه، الشيء الذي أخذ يقلده زبائن الحانة الآخرون في ذلك، ليسود الانسجام المستقر الذي طالما حلمت به ماري - آنجل. لم تتوخ الحذر من أشياء كان يجب أن تنتبه إليها، والتي تعد مؤشراً واضحاً. لم يعد غراتاس يقدم دورات طلبيات الشرب، لكنه أصبح يشرب منها كثيراً استجابة لعزائم الزبائن له، أصبح يفتح زرين ثم ثلاثة أزرار في قمصانه التي أصبح يختارها ضيّقة الخصر، كما ظهر فجأة حول معصمه سلسلة من الذهب، ومن أجل تتويج المظهر هذا كله، اقتنى في نهاية الصيف سترة من الجلد المعتق وماكينة حلاقة لحية، الشيء الذي يشكل بالنسبة إلى شخصٍ مدرك فاطن أن الأمور تنذر بالأسوأ.

* * *

= الرومان على المنطقة التي يسكنها الغاليون والتي كانت تمتد إلى شمال إيطاليا وفرنسا وبلجيكا. وتضّم بلاد الغال المناطق التي تشمل الآن فرنسا وبلجيكا، والجزء الألماني الواقع غرب نهر الراين. تَحَدّث قاطنو هذا الإقليم، والمسمون الغاليين، أشكالاً من السلتية، وهي مجموعة لغوية منها اللغتان الأيرلندية والولزية المعاصرتان. كان زعماؤهم الدينيون قساوسة يدعون درويديين. وكان لهم تأثير كبير في السياسة. أطلق الرومانيون على بعض الغاليين لقب ذوي الشعر الطويل لأنهم لم يكونوا يحلقون رؤوسهم أو لحاهم.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في بداية شهر يونيو عندما وصل ماتيو وليبيرو إلى القرية، حاملين شهاداتهما في جيبهما، لم يكن بيرنارد غراتاس قد شرع بعد في تحويله الجذري لشكله، هذا التحوّل الذي سرعان ما دل على انقلاب واضطراب داخليين، اتضح أنه خطير ولا رجعة فيه. كان يقف وراء البار بجديّة، ممسكاً خرقة بيده، بجوار زوجته التي تتولى الإشراف على صندوق المال، ويبدو ذا حصانة ضد كل شيء، مزاجه قابل للانزعاج، منظر اختصره ليبيرو بصيغة وجيزة واحدة:

- كان كتفه يبدو كبيراً.

لكن لم يكن هو ولا ماثيو ينويان ربط أيّ علاقة صداقة مع غراتاس. كانا سعيدين جداً في عطلتهما ولا يريدان الاهتمام أكثر بهذه المسألة. كانا يخرجان كل ليلة للسهر يقابلان فتيات، ويصطحبانهن إلى البحر للاستحمام في منتصف الليل، يذهبان إلى القرية أحياناً. ثم يرافقانهن عند الفجر منتهزين الفرصة لتناول فناجين القهوة في الميناء. كانت البواخر تفرّغ حمولتها الهائلة من الأجساد البشرية. والمكان مزدحم بالناس الذين يرتدون السراويل

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

القصيرة والنعال الخفيفة، حيث كانت تُسمع صرخات الذهول والدهشة والتعليقات الغبية. وكان المكان يعج بالحياة بشكل ملفت. كانا ينشدان هذه الحياة الحافلة بهذا الكم من الحركة بقدرة واسترخاء لا يمكن وصفهما، كما لو أن تلك الحياة تختلف عن حياتهما الطبيعية، لأنهما كانا في موطنهما وعلى أرضهما، حتى لو كان عليهما مغادرة البلد في شهر سبتمبر. تعمد ماتيو التنقل ذهاباً وإياباً إلى هناك لكن بالنسبة لليبيرو، تلك هي زيارته الأولى إلى الجزيرة بعد غياب طويل. كان والداه مهاجرين من مدينة «باريغيا»، مثل عدد كبير من الناس، خلال ستينيات القرن الماضي لكنه لم يزر قط سردينيا التي عرفها فقط من خلال ذكريات أمه، كأرض بائسة، تحوي نساء عجائز يضعن أوشحة، مربوطة بعناية تحت الشفة السفلى، ورجالاً يرتدون لفافات جلدية يشدون بها سيقانهم، تلك التي تُذكر أن أجيالاً من المختصين الإيطاليين في الجريمة كانوا يهتمون بدراسة هؤلاء الرجال لسنوات: طول سيقانهم، القفص الصدري، وشكل الرأس، مشيرين بعناية إلى أي عيب في جماجمهم من أجل فَك اللغة السرية واستخلاص الأسرار اليقينية التي تكمن وراء السجل الإجرامي والبربري لتلك الجالية. هذه الأرض انمحت بالنسبة إليه ولم تعد تعني شيئاً له. كان ليبيرو أصغر إخوانه الأحد عشر وكان سوفير، الأخ البكر، يكبره بخمسة وعشرين عاماً، لم يعرف السباب والشتائم والكراهية التي تنتظر مهاجري سردينيا، ولم يعرف الأجور البخسة للعمال، والاحتقار،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

سائق الحافلة المدرسية، شبه سكران والأب يضرب الأطفال عندما يمرون بجانبه قائلاً :

- لا يوجد في هذا البلد سوى السردينيين والعرب!

كان يرميهم بنظراته اللئيمة والقاتلة من خلال مرآة الحافلة. كل شيء انتهى، الأطفال المذعورون الذين كانوا يختبئون بخوف وبصمت في مؤخرة الحافلة ويخبئون رؤوسهم بين أكتافهم من شدة الخوف، قد شبوا وأصبحوا رجالاً. أما السائق فقد مات دون أن يفكر أحد بتكريمه بالبصق على قبره. وأحس ليبيرو أنه في بلده. كان مسلكه الدراسي مكتملاً ومتألقاً كذلك، وبعد حصوله على الثانوية العامة البكالوريا، قُبلت جميع طلباته للأقسام التمهيدية. كادت أمه أن تختنق من الفرحة، على الرغم من أنّه لم يكن لديها أدنى فكرة عن الصفوف التمهيدية، كادت أن تخنق ليبيرو أيضاً حين ضمته بشدة إلى صدرها الضخم الذي اهتّز من شدّةِ العاطفة والافتخار. اختار ليبيرو الذهاب إلى باستيا، وخلال سنتين، في كل صبيحة يوم اثنين، كان واحد من إخوانه أو أخواته يستيقظ في كبد الليل من أجل أن يرافقه إلى بورتو - فيشو، حيث يستقل الحافلة.

في باريس، طلب ماتيو من والديه السماح له بالتسجيل في باستيا أيضاً. كانا قد وافقا على ذلك الاقتراح لكن نتائجه الدراسية لم تكن تسمح له بذلك، كما اعترف بنفسه. قام بالتسجيل في جامعة باريس الرابعة للحصول على شهادة ليسانس في الفلسفة، فهذا هو الحقل

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الوحيد الذي حقق فيه نجاحاً نسبياً، فتقبل الوضع واضطر كل صباح أن يركب المترو، متجهاً إلى تلك المباني القبيحة في منطقة بورت دي كليانكور. كان متيقناً من أنه يعيش معزولاً في عالم ليس عالمه، عالم لا يوجد إلا مؤقتاً بين قوسين، شعوره هذا لم يمكنه من عقد صداقات. شعر أنه يعيش مع أشباح ليس لديهم أيّ تجربة مشتركة إضافة إلى أنهم كانوا متغطرسين ومتعجرفين بشكل لا يُحتمل، كما لو أن مجرد دراستهم للفلسفة كانت تفوضهم بميزة فهم معنى جوهر الحياة التي تقتصر على غيرهم من البشر لعيشها في غباء. لكن بالرغم من ذلك ارتبط بزميلة له في الدراسة اسمها، جوديت هالير، التي كان يدرس معها من وقت لآخر، ويصطحبها إلى صالة السينما أحياناً، أو يتناول معها كأساً في المساء. كانت حادة الذكاء، ومبتهجة وجمالها المتواضع لم يكن كافياً لصّد ماثيو لكنه عجز عن ربط علاقة حب مع أي فتاة، على الأقل هنا، في باريس، لأنه كان يعرف أنه لن يستقر هناك ولا يريد أن يكذب على أحد. وهكذا وباسم المستقبل الوهمي، مبهم المعالم كالضباب، منع ماتيو نفسه من عيش الحاضر، كما يحصل عادة، وهذه حقيقة لبني البشر. ذات ليلة، شربا وتبادلا الحديث طويلاً في حانة بمنطقة الباستيل وتأخر ماتيو عن قصد عن موعد آخر قطارات المترو. اقترحت عليه جوديت أن يبيت عندها، فتبعها وسارا إلى شقتها بعد أن أرسل رسالة قصيرة إلى أمه. كانت جوديت تسكن في غرفة خدم فظيعة في الطابق السادس في الدائرة الثانية عشرة من باريس. لم تشعل النور بل تركت الأضواء مطفأة،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أطلقت موسيقى خفيفة وتمددت على السرير، مرتدية قميصاً ولباساً داخلياً، وتدير وجهها نحو النافذة. عندما استلقى ماتيو بالقرب منها، بكامل ثيابه، استدارت نحوه دون أن تتلفظ بكلمة، كان يرى عيونها تبرق في العتمة، بدت له وكأنها أظهرت ابتسامة مرتجفة وهو يسمع أنفاسها الثقيلة العميقة، الشيء الذي أثر فيه، ويكفي أن يمدّ يده ويمسّها، ولو خفيفاً كي يحدث شيء ما بينهما، لكنه لم يستطع، شعر وكأنه قام بهجرها وخداعها قبل الآوان، شلّ شعور الذنب حركاته، ولم يحرّك ساكناً واكتفى بالنظر في عينيها مباشرة إلى أن اختفت ابتسامتها واستسلما سوياً للنوم.

تمسك بها كما يتمسك بقدرات خفية تسكن أعماقه، مرات عدة حين يحتسيان القهوة معاً تخيّل أنه يرفع يده كي يلامس خدها، ويرى تقريباً هذه اليد المفترضة المتخيلة ترتفع في الهواء الشفاف ببطء لتلامس خصلة من شعر جوديت قبل أن تحط على وجهها، فيشعر حينها بحرارة وجهها في راحة كفه، وتستمر يده ببطء في المداعبة لتصبح فجأة ثقيلة وصامتة، حينها يعرف أن ضربات قلبه الحقيقي تزداد، لكنه لن يقفز ليخترق السديم الذي يفصله عن هذا العالم الافتراضي الممكن لأنه بمجرد الالتحاق به، سوف يدمّره. هكذا لم يستمر هذا العالم، في منتصف طريق الوجود والعدم، وهكذا أيضاً حافظ عليه ماتيو بعناية، بين شبكة معقدة من أفعال لم تكتمل، من الرغبات، من التنافر، ومن أجساد لم يكتشفها ولم يتحسسها، دون أن

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يعرف أنه وبعد سنوات عديدة بعد سقوط العالم الذي كان سيختاره للعيش سيؤدي به إلى جوديث كما لو أنها ملجأ ضائع، وحينها سيؤنب نفسه كيف أنه أخطأ خطأ ذريعاً في تخميناته وتنبؤاته بالقدر. لكن في هذه اللحظة، لم تصبح جوديت قدره بعد، ولا يرغب أن تصبح كذلك، كان يفضل أن تكون مجرد مناسبة لحلم جميل، غير ضار وعذب، بفضلها تصبح وطأة الزمن التي تخنقه وتسحله شيئاً فشيئاً، أكثر انسيابية وخفّة، وعندما مضى عامان وطرح السؤال لمعرفة أين سجّل ليبيرو لدراسة الليسانس، أبدى ماتيو عرفانه إلى جوديت، كما لو أنها هي التي مكنته من النجاة من قبضة الخلود اللزجة، والتي ربما كان سيمسي سجيناً لولا وجودها. كان ماتيو يأمل أن يأتي ليبيرو إلى باريس ليواصل دراسته، ويأمل ذلك لدرجة أنه لا يستطيع أن يتصور ولو ثانية أن الوضع سيكون غير ذلك لأنه ظّن أن الواقع سيأخذ حتماً ولو من وقت لآخر، جزءاً من أحلامه وآماله ليجعلها حقيقة ممكنة ولو لمرة واحدة. لهذا تألم كثيراً عندما علم أن ليبيرو سوف يحضّر شهادة الليسانس في الآداب في منطقة كورت، ليس لشيء فقط بل لأن عائلة بانتوس لا تملك أموالاً كي تبعثه إلى أوروبا. شعر أن هناك إلهاً يكنّ له المكر والضغينة، يقرر مسار العالم والأحداث بطريقة يجعل من خلالها حياته سلسلة طويلة من التعاسات وخيبات الأمل التي لا يستحقها، ربما كان الأجدر به أن يخلص إلى هذه الملاحظة منذ زمن بعيد لولا أن مبادرة أمه جعلته يعيد النظر في هذه الفرضية المقلقة منذ زمن بعيد. جاءت كلودي لتجلس بالقرب منه بينما كان

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

هو يجلس وسط الصالون مستسلماً لأفكاره السوداوية بحيث لا أحد يمكن الإفلات من مشهد تعاسته تلك. نظرت إليه بشفقة يشوبها المرح بحيث كان يوشكُ أن يشعر بالحرج الشديد لكن الوقت لم يتسع لذلك، فقد ابتسمت له قبل أن تقول:

- سنقترح على ليبيرو أن يأتي إلى هنا ويستقر معنا في غرفة أوريلي. ما رأيك؟

وفي هذا الصيف، عندما كان في الثامنة من عمره، تبعها من جديد عند عائلة بانتوس. كانت لا تزال غافينا بانتوس جالسة على كرسيها وسط كومة من الحصى. دعتهما لتناول فنجان قهوة في الداخل وجلسا حول الطاولة الضخمة التي أصبح ماتيو الآن يعرفها جيداً. التحق بهم ليبيرو. كانت كلودي تتحدث فيما يستمع ماتيو لأمه، وهي تتحدث باللغة التي لا يفهمها رغم أنها لغته كما يعرف، أمسكت بيد غافينا بانتوس التي كانت تهّز رأسها بإشارة إلى النفي بينما انحنت نحوهما كلودي واستمرت في الحديث من دون أن يتمكن ماتيو أن يفعل شيئاً سوى أن يتخيّل ما كانت تقوله:

- أنتم استقبلتم ابني كما لو كان ابنكم، والآن جاء دورنا، هذه ليست صدقة، إنه دورنا.

تكلمت بقناعة كبيرة إلى أن فهم ماتيو، من خلال ابتسامة أضاءت وجه ليبيرو، فهم أنها حصلت على ما جاءت من أجله.

* * *

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

اكتسى طريق بيرنارد غراتاس الوعرة مظهر الاحتفال في بدايته. كان ماثيو وليبيرو يحضران أطروحتيهما في الماجستير في باريس عندما بدأ بيرنارد ينظم حفلات وأشواط لعب ورق البوكر في الصالة الخلفية للحانة كل أسبوع. لم يكن بيرنارد غراتاس ليتخذ مبادرة مثل هذه وحدَه. مما لا شك فيه أن أحداً ما اقترح عليه ذلك، فضّل أن يظل في الخفاء والسّر لكنه هو حتماً شخص فهم أنه يمسك بحمامة مستسلمة ترغب أن يُنزع ريشها بسرعة وعجالة. لاقت أشواط البوكر هذه نجاحاً كبيراً إلى أن أذيع في المنطقة خبر أن غراتاس ليس إلا لاعباً مسكيناً بقدر ما هو مغفل، وأنه فضلاً عن ذلك كان يوقن أن لعبة البوكر هي لعبة حظ وأن الحظ لابد من أنْ يكون يوماً حليفه. في البداية كان يدخن السيجار الصغير والذي لم يفده بشيء كما لم تفده تلك النظارات السوداء التي أخذ يرتديها صباح مساء. بدأ يهدر أمواله كأحد النبلاء الكبار، مظهر لياقة لا محدودة حيث يقدم لجلاديه جولات شرب على حسابه. ذات يوم، ومن دون إنذار، اختفت زوجته والأطفال والعجوز. عندما علمت ماري - آنجل

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بذلك، ذهبت لمواساته ووجدته في الحانة وكان في حالة حماس غير طبيعي. أكد أن زوجته رحلت حاملة معها جميع أثاث المنزل، تاركة له على مضض فراشاً بسيطاً لينام عليه. كانت ماري - آنجل تستعد لتتلفظ ببعض الكلمات لمواساته حين قال إن ما حدث هو أفضل شيء حصل له في حياته، ها هو يتخلص في نهاية المطاف من امرأة شريرة وثلاثة أطفال أغبياء وعاقين في الوقت نفسه من دون الحديث عن تلك العجوز، التي قضت عمرها تسقيه من خبثها كي تنكد عليه حياته قبل أن تغرق في الخرف والعجز، لأنها كانت، خبيثة ولئيمة إلى حد لا يمكن تصوره، خبيثة لدرجة كان يشعر بأنها تغتبط في سرها لكونها أصبحت عاجزة، وأنها بذلك تضمن حقاً مضموناً في تنغيص حياته إلى أن تموت من دون أن يلومها أحد على ذلك. تيقن أن ذلك، سيطول لأنه شبه مؤكد أنها ستعيش إلى أن تبلغ المئة عام أو أكثر. تلك العجوز اليابسة كالجلد، منذ سنوات وهو يحلم في سره أن تلقى مصرعها إثر حادث منزلي أو موت رحيم من دون أن يقول شيئاً لأحد، محتملاً بجلادة وعزم حياة بائسة لم يكن ليتحملها لألد أعدائها، لكن كل شيء قد انتهى الآن، حان الوقت لكي يعيش، وليست لديه نيّة لحرمان نفسه من ذلك، حان الوقت كي يترك العنان لشخصيته الحقيقية كي تنطلق، تلك التي لطالما قمعها في أعماق نفسه، بسب التعب والقرف والاشمئزاز والجبن، ولقد انتهى الخنوع الآن وها هو قد ولد من جديد وقال لماري - آنجل إن الفضل يعود إلها، لأنه يشعر بأنه في بيته بين أصدقائه الأعزاء،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لتذهب زوجته إلى الجحيم، لم تعد تعنيه في شيء، له الحق أن يكون أنانياً الآن لأنه استحق ذلك بجدارة، لم يشعر قط بالسعادة على الإطلاق، وها هو الآن يشعر بتلك السعادة، وهو سعيد بحق في نهاية المطاف، لم يتوقف عن ترديد ذلك، بجدية ظاهرة شبه مرضية، وهو يلقي بنظراته الممتنة المليئة بالعرفان على ماري- آنجل لدرجة أنها خشيت أن يضمها إليه من كثرة الانفعال، الشيء الذي منع نفسه ظاهرياً من فعله واكتفى بقول كلمات الشكر، من دون أن يتمكن من الاعتراف لها بامتنانه، خصوصاً لكونها أنجبت فيرجيني التي دخل معها في علاقة منذ أسابيع قليلة، والتي جعلت منه رجلاً سعيداً. لم تكن سعادة بتلك الوضوح والتفاخر. كان بيرنارد غراتاس يضحك كل الوقت وبصوت عال وبقوة لأتفه الأشياء، كان يفيض طاقة، ويتنقل كثيراً ذهاباً وإياباً بين البار والصالة من دون أيِّ علامة تعب أو سكر، بالرغم من أنه أصبح الآن يفرط في الشراب، يحرج الزبائن بطباعه التي تفيض حناناً ومحبة لا لزوم لهما، وأصبح يخسر الأموال بتلذذ وحماس واضحين، حيث بدا مشهد انتشائه وابتهاجه مضايقاً ومزعجاً للغاية، كما لو أن حالته دليل على مرض نفسي كريه ومقزز يخشى أن ينتقل بالعدوى، وكلما ظهر بيرنارد غراتاس أكثر لطفا ووداً نفر منه الناس من دون أن يعي ذلك. لقد قرر الآن أن يعيش في عالم تحكمه سلطة واحدة وهي الوهم. لربما وللأسف لا يمكن لمملكة الوهم أن تكون مثالية حيث إن رجلاً مثل بيرنارد غراتاس بدأ يشعر بشيء من الارتباك والحيرة من أن لا شيء يبدو حقيقياً،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وهو يترنح تحت ثقل يقين لا يتمكن من تدميره ولا من التعبير عنه، لكن يمكن الهروب منه فقط عارضاً حالة سعادته بعناد وصلابة تثير السخرية واليأس، ولم يكن يفهم لماذا يستيقظ ليلاً ودقات قلبه تزداد من شدة القلق إلى أن جاء ذلك اليوم من شهر يونيو حين أجابته فيرجيني، بعد أن طلب منها الانتقال إلى سكنه للعيش معه، وحين أجابته بهزة الكتفين، المليئة بالازدراء والاستخفاف وأفهمته أنه فقد عقله، لم تعد ترغب برؤيته ثانية، وبعد ذلك ذهبت لتجلس على رصيف الحانة تحت أشعة الشمس، وهي تطلب مشروباً بارداً، وقام بتقديمه لها من دون أن يتلفظ بكلمة. لطالما هرب من هذا الموقف لكنه الآن يقع فيه ويمسك به ويحطمه. ألقت فيرجيني عليه نظرة تدل على انزعاجها وقالت:

- لا تظهر بهذه السحنة، أنت مثير للسخرية.

خلال أيام معدودة واصل عمله بشكل طبيعي، كما لو أنه مسكون بقوة داخلية غريبة، وفي ساعة المساء، حيث تبدأ بتقديم المشروبات والحانة مكتظة بالزبائن، انفجر بالبكاء وطرح كل مآسيه على الملأ، كما فعل من قبل، في سعادته بالبراءة الصلفة ذاتها، سارداً بصوت عال، وهو يشهق بكاءً كيف أن جسد فيرجيني العاري يبدو جميلاً، وكيف أن نظراتها تبدو غامضة، مجرّدة من المشاعر، كملكة مستاءة حين كان يعاشرها، وهو يبدي كل قواه دون أن يفلح في انتزاع تنهيدة واحدة منها، كأنها شاهدة فقط على عملية

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تتابعها باهتمام لكن لا تعنيها شخصياً إلا قليلاً، وتذكر كيف أنه كلما عاشرها بقوة أصبحت نظراتها محدقة، ساكنة وقاسية من بين رموش لا تهزها أيُّ مشاعر أو رجفة، شعر بشيء من الإهانة وفي الوقت نفسه، شعر بالافتتان لتلك النظرات التي حوّلته إلى حيوان مختبر من دون أن يقلل ذلك من شعوره بالإثارة، بل على العكس، كما قال، وهو يستنشق بصخب، كان ذلك يهيجه، في تلك الأثناء بدأت تسمع في الحانة أولى همهمات الاستهجان، شخص ما صرخ، وقال له أن يتعقل، وأن يصمت، لكنه لم يستطع التوقف، أصبح لا يعرف للخجل طريقاً، ووجهه يلمع تحت الدموع والمخاط، يعبّر عن تفاصيل مخجلة ومثيرة للاشمئزاز، يتكلم كيف أن فيرجيني من دون أن تفارق نظراته كانت تسند راحة يدها على ظهره، ثم تنزل بوسطه المنتصب على امتداد عموده الفقري، وتلقيه بنظرات تتحول حينذاك إلى نوع من الاحتقار المؤلم، يهابه كل مرة، لأنه يعرف عندئذٍ أن لا مجال أمامه إلا أن يستسلم للنشوة، عندما كان الحضور يتابع بذهول رحلة الأصبع الوسطى، اكتفى الحضور بذاك، وقرروا تجنب الوصف الدقيق للنشوة الجنسية لبيرنارد غراتاس، اقترب منه فنسان لياندري، وصفعه مرتين، ثم جرّه خارجاً ممسكاً بذراعه. ها هو بيرنارد غراتاس الآن جاثمٌ على ركبتيه على الإسفلت، وقد توقف عن البكاء محدقاً إلى فنسان.

- لقد فقدت كل شيء. لقد دمّرت حياتي.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لم يعقّب عليه فنسان. كان يحاول أن يكرس كل قواه لمساواته لكنه كان لا يزال يرغب في ضربه. ثم مدّ له منديلاً.

- أنت أيضاً، عاشرتها، كنت أعرف ذلك. كيف تجرأت على ذلك؟

قرفص فانسان بالقرب منه.

- إذا كنت تعتقد أن فيرجيني تعتبرك شريكاً لها، فأنت ساذج كبير. كفّ عن إزعاج الناس بقصصك، وتماسك.

هزّ بيرنارد غراتاس رأسه.

- لقد دمرّتُ حياتي.

* * *

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

توصل ليبيرو إلى العثور على أسبابه الخاصة في كراهية باريس حيث لم يكن ماتيو. هكذا في كل مساء وفي كل صباح، بينما هما في عربة المترو المزدحمة على الخط الرابع، كانت خواطرهما تجتمع في مرارة خانقة ليس لديها المعنى ذاتُهُ في دواخلهما. في بداية الأمر، اعتقد ليبيرو بأنه تم إدخاله إلى قلب المعرفة، كمن اختير ليطلع على سّر لأنه انتصر في فهم ما لا تفهمه عامة الشعب، ولم يكن يستطيع المشي في باحة جامعة السوربون الكبيرة من دون أن يشعر بذلك الافتخار المقترن بالخشوع والخشية وكأنك في حضرة الآلهة. كان يصطحب معه أمه الأميّة، أخوته المزارعين ورعاة البقر، كل أسلافه سجناء منطقتهم «الباراباغيا» الجاهلة الوثنية المظلمة، والذين كانوا يهتزون فرحاً في أعماق قبورهم. كان يؤمن بأبدية الأشياء الخالدة، وبنبلها الذي لا يتبدد، ولا يتغيّر، والتي كانت مدوّنة على واجهة سماء عالية وصافية. ثم توقف فجأة عن الإيمان بكل ذل. أستاذه في مادة الأخلاقيات، شاب خريج من المدرسة العليا، ثرثار وودود إلى حد كبير، ويتعامل مع النصوص بطلاقة رائعة وعدم اهتمام لدرجة تشعرك بالغثيان، ويلقي بعنف على طلبته عبارات مطلقة ونهائية حول مفهوم

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الشر المطلق، والتي ما كان لينكرها كاهن من القرية، رغم أنه كان يعلل قوله بمجموعة من المراجع والاستشهادات والمقولات التي لم تتمكن من ملء فراغ مفاهيمهم أو إخفاء بساطة مفاهيمهم.

كل ذلك الانحراف الأخلاقي فوق كل ذلك من أجل خدمة طموح صلف ووقح تماماً، لم تكن تلك الجامعة بالنسبة إليه إلا مرحلة ضرورية، لها معنى، لكنها في الوقت ذاته، مرحلة ستؤدي به إلى تحقيق أمنيته في الالتحاق بحلقات تلفزيونية حيث يحقرون علناً برفقة أقرانه اسم الفلسفة أمام نظرات عطف صحافيين جهلة ومغمورين، لأن الصحافة والتجارة أصبحتا تحتلان مكانة الفكر. لا يمكن أن ينتاب ليبيرو أي شك بهذه الحقيقة، وأصبح وكأنه رجل ثري لتوه، بعد جهود خارقة بذلها في عالم لا يساوي شيئاً في سوق العملة. لم يكن تصرّف هذا الخريج من مدرسة المعلمين العليا نموذجاً شائعاً لغيره من الأساتذة الآخرين، الذين كانوا يقومون بمسؤوليتهم في التدريس بصرامة، والتي حازت احترام ليبيرو وتقديره. كان معجباً جدا بطالب دكتوراه يأتي كل يوم خميس إلى القاعة بين الساعة السادسة مساء إلى الساعة الثامنة مساء، يرتدي سروالاً فاتح اللون من قماش القذيفة المخملية، وسترة خضراء غامقة اللون، بأزرارها المذهبة، وكأنه عارض أزياء خرج لتوه من محل «ستازي»، مظهراً عدم مبالاته للأشياء المادية، كان يقوم بالترجمة والتمعّن والتعليق الرصين على كتاب «الميتافيزيقيا» اليوناني أمام حضور يقظ مهتم بالثقافة اليونانية القديمة. لم يكن ذلك الجو المفعم بالتركيز والثقافة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في تلك الصالة المغبّرة الكائنة في السلّم (ج)، المخصصة لهم، قادراً على تغطية حجم غلطهم، كانوا جميعهم مهزومين، كائنات لم تستطع التكيّف مع محيطها، والتي ستصبح قريباً غير مفهومة ومنبوذة كأنهم مخلوقات نجت من كارثة خبيثة، من كارثة غيّبت أقرانهم عن الوجود، وهدمت المعابد التي كانوا يعبدونها ويقدسونها، والتي شّع ضوؤها على العالم في سالف الزمان. منذ زمن وليبيرو يحب أصدقاءه الذين أوجدتهم الصدفة وسوء الحظ. كانوا رجالاً شرفاء. هزيمتهم المشتركة هي عنوان مجدهم. كان من الممكن أن يقرر مواصلة حياته العاقلة والمشاكسة في جديتها وكأن شيئاً لم يكن، مكرساً إياها بالكامل إلى تقديس رفات قديسين امتهنوا القداسة، لا يزال ليبيرو يعتقد أن مكانته المهمة تستدعي الاحترام، مسجلة عالياً في مدخل بوابة السماء، وأنه لا يهتم إذا ما لم ينتبه إليها أحد. كان يجب أن يتجاهل موضوع الأخلاقيات والسياسة التي أفسدها سمُّ النشرات الإخبارية الحالية، ليلجأ إلى صحراء الميتافيزيقيا القاحلة، برفقة مؤلفين لا يمكن لهم أن يثيروا رجس الاهتمام الصحافي. قرر أن تكون أطروحته في الماجستير عن القديس أوغسطين[1]. أما ماتيو، والذي كانت صداقته تأخذ دائماً شكلاً من أشكال الانصياع

(١) Saint Agustine ولد القديس أوغسطين في عنابة، رابع كبريات المدن الجزائرية، وهي مدينة تاريخية أسسها الفينيقيون وحكمها الرومان وأطلقوا عليها اسم «هيبوريغيوس» واستولى عليها الفندل عام ٤٣١. (ومن أبرز معالم عنابة كاتدرائية القديس أوغسطين). ومما يشار إليه أن لهذا القديس ١٨ مليوناً من الأتباع =

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

العبودي، اختار ليبنيز[1] موضوعاً، وضاع بدون يقين منه في المتاهات الوعرة للإدراك الإلهي، في ظل الهرم الخيالي المكون من عوالم ممكنة حيث يده التي نسخت إلى ما لا نهاية، يضعها على خد جوديت في نهاية المطاف. كان ليبيرو يقرأ المواعظ الأربع لسقوط روما، بإحساسه، وهو حين يقرأها، يقوم بمقاومة كبيرة، كأن يقرأ «مدينة الله»[2] لكن كلما أخذت الأيام تتقلص، كانت آخر

= لاسيما في الولايات المتحدة حيث بنوا هناك أكثر من ٥٠٠ كنيسة. عاش أوغسطين حياة العربدة في شبابه، وتحول بعدها إلى دراسة الفلسفة ثم تحول إلى الديانة المانوية. انتقل إلى روما بعد ذلك وعمل مدرّساً للخطابة هناك، ودرس الفلسفة الإغريقية، وخصوصاً الأفلاطونية الجديدة، ثم اعتنق المسيحية وعاد إلى بلاده في الجزائر حيث أصبح مساعداً لأسقف مدينة عنابة القريبة من مسقط رأسه. ألّف أوغسطين الكثير من المواعظ والتأملات الدينية التي وصلنا منها ٥٠٠ موعظة و٢٠٠ رسالة. أهم مؤلفاته على الإطلاق كتابا «مدينة الله» و«الاعترافات» - تأثر بفلسفة القديس أوغسطين عدد من كبار الفلاسفة مثل القديس توما الإكويني وجون كالفن ومارتن لوثر وغيرهم.

(١) Leibniz ولد الفيلسوف ليبنتز في ليبزنغ سنة ١٦٤٦. تلقى تربيته في فرنسا حتى عام ١٦٧٢ ثم درس كلاً من فرنسيس بيكون وكليبر وغاليله وديكارت، وحصل على شهادة اللسانس في الفنون سنة ١٦٦٣ في ليبزنغ. توفي سنة ١٧١٦ في عزلة تامة لكن باريس وحدها أبدت دهشتها لوفاة الفيلسوف العظيم، فقام فونتيل برثائه وإظهار أثره سنة ١٧١٧. من أهم أعماله:أسس التحليل الحديث.

(٢) Cite de Dieu مدينة الله (٤١٢ - ٤٢٧): ألّف أوغسطين هذا الكتاب إثر نهب روما عام ٤١٠، حين كانت الانفعالات في أوجها، واستوجبت أن يتحدث الناس عما يشبه يوم القيامة. وقد حمّل أوغسطين آلهة روما الوثنية أسباب الهزيمة ورآها مسؤولة عن هذه الكارثة الهائلة. فدرس تاريخ روما ومدح الأجداد العظام، ثم حلّل الانحطاط الذي أصابها وعزاه إلى فساد الحاكم الذي كان سبب تدمير المدينة. وميّز أوغسطين بين المدينة الأرضية التي تقوم على حب الذات الذي يقود إلى انتهاك حرمة الإله وبين المدينة السماوية التي يجب أن تقوم على حب الله واحتقار الذات.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

آماله تتبدد وسط الضباب الماطر الذي يثقل الأرصفة المبلّلة. كل شيء كان حزيناً وقذراً، لا شيء كان مكتوباً في السماء سوى وعود بالعواصف والرذاذ، كان المقاومون مكرهين مثلهم مثل المنتصرين، لم يكونوا دنيئين بل كانوا مهرّجين وفاشلين، وهو أولهم، والذي دُرب لينتج نصوصاً إنشائية وتعليقات فصيحة لكنها عديمة الفائدة، لأن العالم ما زال ربما بحاجة إلى أوغسطين وليبنيز، لكنه لم يعد تعنيه تفسيراتهما وتأويلاتهما البائسة، وها هو ليبيرو يصبح ممتلئاً بشعور الاحتقار نحو نفسه، نحو جميع أساتذته، النساخين المخربشين وضيقي التفكير، جميعهم من دون استثناء ولزملاء الدراسة، بدءاً من جوديت هالر والتي عاب على ماتيو أنه لا يزال يلتقي بها، وهي التي كانت تتأرجح دائماً بين الخطيئة والادعاء، لا شيء يفلت من طفح كرهه واحتقاره، حتى أنه لم يعد يتحمل أوغسطين، رغم يقينه أنه أصبح الآن يفهمه أكثر من أي وقت مضى. لم يعد يرى فيه الآن سوى إنسان غير متحضر، ومتوحش، جاهل، والذي يبتهج لنهاية الإمبراطورية لأنها تُعد بداية لعالم، يرتقي فيه البلداء والعبيد الذين يحتفلون بانتصاراتهم، والذي ينتمي إليهم، وصاياه كانت تلمع بشراهة الانتقام والانحراف، والعالم القديم، عالم الآلهة والشعراء يختفي تحت نظره، والذي يفوح بالمسيحية بزمرتها الكريهة من الناسكين والزهاد والشهداء. كان أوغسطين يخفي فرحته العارمة تحت نبرات نفاق الحكمة كما هو حال الكهنة ورعاة الكنيسة. أنجز ليبيرو أطروحته بشكل لا بأس به، في حالة إجهاد معنوي جعلت

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

متابعة الدراسة بالنسبة إليه مهمة مستحيلة. عندما علم أن بيرنارد غراتاس قد أكمل ببراعة عملية تسكعه تلك وأصبح متسكعاً مكتملاً، علم أن في ذلك فرصة فريدة تُتاح له، وقال لماتيو إنه يجب عليه الآن تولي إدارة الحانة. فرح ماتيو بالخبر طبعاً. في بداية الصيف عندما وصلا إلى القرية، كان بيرنارد غراتاس قد أعلن للتو لماري - آنجل أنه بسبب الخسارة التي لا يستحقها والتي تكبدها من وراء لعب القمار بالبوكر، يتعذر عليه دفع أجور الإدارة والصفعات الجديدة التي تسلمها من فنسان لياندري لم تستطع تغيير شيء في جوهر الموضوع. استقبلت ماري - آنجل الخبر وكأنه قدر محتوم، قدرية لا تستطيع الا تقبلها.

ولأنها فقدت كل الأمل في تحسين الموقف، قررت، عوضاً عن ذلك، الإمساك بالأمور بتوليها شخصياً الإدارة، فقررت ترك الإدارة بيد غراتاس إلى شهر سبتمبر حتى يتمكن على الأقلّ، من دفع جزء من مديونيته. جاء ليبيرو وماتيو لمقابلتها من أجل أن يعرضا عليها خدماتهما. اعترفت بصدق بأنهما لا يمكن أن يكونا أسوأ من سابقيهما. ولكن من أين سيعثران على المال؟ كانت تثق بهما، لأنها تعرفهما منذ طفولتهما، وتعرف أن لا فكرة لديهما بالاحتيال عليها لكنها اضطرت أن تبلغهما أنها تريد أن تحصل على المال مسبقاً لأنها بحاجة إلى تلك الأموال للعيش. تمكن ليبيرو أن يجمع ألفي يورو حيث أقنع أخوته وأخواته بجدية مشروعه. عرض ماتيو مشروعه

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ذات ليلة من شهر يوليو على مائدة العشاء. توقف كل من كلودي وجاك عن الأكل ووضعا ملاعقهما على المائدة بينما استمر الجد في تناول صحن الشوربة بهدوء.

- هل تعتقد بأننا سنمنحك المال من أجل أن تترك دراستك وتصبح مدير حانة؟ هل تعتقد بذلك جدياً؟

كان يحاول أن يدافع عن مشروعه من خلال عرض أسباب تبدو مقنعة في وجهة نظره، لكن أمه قاطعته بشكل عنيف وقالت:

- إخرس.

كان الغضب قد عصر وجهها وجعله شاحباً.

- قم من المائدة حالاً. لم أعد أرغب برؤيتك.

شعر بالإهانة لكنه أطاعها ولم يقل شيئاً.

اتصل بأخته هاتفياً ليستجدي دعمها ولكنه لم ينجح في إقناعها. انفجرت أورالي ضاحكة.

- إنه هراء، هل فكرت أن أمي كانت ستقفز فرحاً لهذا الخبر؟

سعى ماتيو للدفاع عن قراره من جديد لكنها لم تصغ إليه.

- هلّا نضجت قليلاً، لقد أصبحت متعنتاً بصدق.

ذهب ماتيو للقاء ليبيرو ليبلغه بالخبر السيئ، فشربا حزناً حتى الثمالة. في اليوم التالي عندما استيقظ ماتيو حوالي منتصف النهار،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كان يعاني من صداع في الرأس نتيجة يأسه أكثر من أنه نتيجة الكحول، فوجد جده جالساً بجوار سريره. استوى ماتيو على فراشه بصعوبة ونظر إليه مارسيل برفق غير مألوف.

- تريد أن تستقر هنا وتدير الحانة، يا بني؟

هزّ ماتيو رأسه بغموض.

- سأقوم بالتالي، سأدفع مبلغ إدارة الحانة لهذا العام، وسأدفعه مرة أخرى للسنة المقبلة. وبعد ذلك لن تحصل مني على شيء، لا شيء إطلاقاً ولو على قرش واحد. لديك الوقت الكافي خلال هذين العامين لتثبت ما أنت قادر على فعله، يا بني.

قفز ماتيو من الفرح وعانقه بيديه. كان الأسبوع التالي كارثياً. قامت كلودي بالشجار مع مارسيل، واتهمته بسوء النية بغية تخريب ابنها، وأن فعلته هذه تنّم عن التصميم والترصد لمعرفته بظروفهم، واتهمته أنه لم يساعد حفيده إلا لأنه يكرهه، ويريد رؤيته وهو يدمّر حياته، من أجل أن يبرهن للجميع أنه كان على حق في معاملته وتقديراته له، وذلك المخبول الأبله أبدى ابتهاجه لتلك المبادرة الماكرة لأنه لا يفقه شيئاً ويلقي بنفسه في المجهول بحماس كبير مثل مغفل صغير. احتج مارسيل ودافع عن طيب نيته لكن ذلك لم يُجْدِ نفعاً. كانت قد أصدرت عليه حكماً نهائياً، قائلة له، إنه سيدفع ثمن عمله الشائن بطريقة أو بأخرى، على غرار ما فعلت بماري - آنجل

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

التي زارتها في منزلها بغتةً من أجل أن تتشاجر معها، وتقول لها: هل تجد عزاءها في إفساد أطفال الآخرين لأنها أنجبت عاهرة؟ لكن لا شيء ينفع، وهدأت كلودي في آخر المطاف، وفي منتصف شهر يوليو، تمكن ماتيو وليبيرو من امتلاك الحانة بعد أن أقنعا غراتاس بالحيلة أن يتولى غسل الأواني في المطبخ. استقل ليبيرو مكانه خلف البار. وأخذ ينظر إلى القناني الملونة المصطفة، والمجلى، وصندوق الحسابات، فشعر بأنه في مكانه. هذه هي العملة التي لها ثمن وقيمة، هذه هي العملة التي يفهمها كل الناس ويؤمنون بها. هذا ما كان يعطيه قيمته ولا يوجد أي قيمة أخرى خرافية يمكن أن تتعارض مع قيمته سواء على الأرض أو في السماء. لم يعد ليبيرو قادراً على مقاومة مشاعره. وفي الوقت الذي كان يحقق فيه ماتيو حلمه القديم، ويستمتع بوحشية بتحطيم أراضي ماضيه التي باتت فريسة لهيب النار، وهو يمسح فوراً كل رسالة ترسلها إليه جوديت بإلحاح: كان سعيداً، متى سأراك ثانية؟ لا تنسيني، كما لو أن بإمكانه أن يقصيها من أحلامه الآن، توقف ليبيرو عن الحلم منذ زمن طويل. اعترف بفشله وأدلى بموافقته، تلك الموافقة المؤلمة والشاملة واليائسة أمام بلاهة العالم.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

الفصل الثالث

«انظر لما أنت عليه لأنه ستأتي النار لا محالة»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

الجبال تخفي البحر الواسع، وتفصل بكل حجمها الجامد بين مارسيل وأحلامه التي لا يملها على الإطلاق. منذ صغره، كان في ساحة المدرسة الابتدائية الأساسية في سارتين، لا يلمح سوى رأس الخليج المغروس في الأرض كأنه يشبه بحيرة كبيرة، وديعة، مألوفة وساحرة. لا يحتاج رؤية البحر كي يحلم، فأحلام مارسيل لا تتغذى من التأمل، ولا من الاستعارة المجازية، ولكنها تتغذى من المعركة اللانهائية التي يقودها ضد جمود الأشياء التي تتشابه في مظهرها، وتتألف جميعها من ذات المواد الصلبة واللزجة واللينة في آن. حتى مياه الأنهار تبدو صاخبة، وعلى ضفاف الشواطئ المهجورة، تنبعث من هدير الأمواج رائحة المستنقعات المنفرة، إذ ينبغي على المرء أن يحارب الركود كي لا تبتلعه الرمال المتحركة ببطء، وها هو مارسيل ما زال يصارع من دون هوادة تلك القوة الجامحة التي تسكن جسده، ذلك الشيطان الذي يُصر على إبقائه طريح الفراش، فم مليء بالبثور، لسان مقضوم بالارتجاع المزمن للحوامض، كأن مثقباً حفر في صدره وبطنه، بئر في لحمه الحيّ، وهو يصارع ضد اليأس، ضد

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أن يبقى باستمرار سجين سرير رطب، مبلّل بالعرق والدم، ضد الزمن الضائع، مكافحاً ضد نظرة أمه المُضنية، ضد صمت والده المستسلم الخانع، منتظراً أن يفوز ثانية، وأن تفوز قواه في الوقت نفسه، ليدرك حقه في الوجود، في ساحة المدرسة العليا الابتدائية في سارتين، حيث المنظر محجوب بسلسلة الجبال المتراصة. إنه الوحيد من بين أخوانه وأخواته الذي واصل دراسته إلى ما بعد الحصول على الشهادة، فلا شياطين جسده ولا جمود الأشياء وركودها، قادرة على منعه من مواصلة دراسته إذ ينوي الالتحاق بالمدرسة الوطنية القانونية أو أبعد من ذلك، فهو لا يريد أن يصبح معلماً، لا يريد أن يلقّن دروساً عديمة الجدوى لأطفال مساكين قذرين حيث ستعيده نظراتهم المذعورة إلى بؤس طفولته الخاصة، لا يريد مغادرة قريته ودفن نفسه في قرية أخرى مشابهة وبائسة، معلقة مثل ورم على جزيرة لا يتغيّر فيها شيء، لأنه في حقيقة الأمر لا شيء يتغيّر هنا ولن يتغيّر شيء أبداً. من الهند الصينية، يرسل جان باتيست المال، اشترى لوالديه بيتاً واسعاً من أجل أن يستوعب جميع أفراد عائلته في فصل الصيف من دون أن يضطروا إلى النوم، ملتصقين ببعضهم البعض مثل حيوانات في أسطبل، أصبح لمارسيل غرفة خاصة، لكن ما زال الجلد الميت ملتصقاً على شفتي والده الجافتين وجبين أمه، ولا يزال محفوراً بالتجاعيد العميقة والمسطرة نتيجة الحداد، إنهما لا يختلفان عما كانا عليه قبل خمس عشرة سنة لا أكثر،أقل شباباً ولا أكثر شيخوخة من قبل، تماماً بعد نهاية العالم، وعندما يتأمل مارسيل

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

خياله في المرآة، يشعر بأنه ولد هكذا، ضعيف البنية ومترنح القوام، تركت طفولته آثار بصمات قاسية على جسمه، لا شيء يمكن أن يحرره من ذلك المظهر الطفولي. يبدو هذا الأخير على الصورة التي يبعثها جان - باتيست، في حالة متغيرة لأنه يعيش في جزء من العالم حيث الزمن لا يزال يترك علامات ملموسة إثر مروره، تبدو عليه علامة السمنة الواضحة، كما يظهر فجأة ضعيفاً بنفس السرعة كأن جسده عاش دائماً في ظل حياة من الانقلابات الفوضوية القوية والصاخبة، يبدو في الصورة منتصباً في وقفة عسكرية بصف في منتهى النظام في ارتداء البزات العسكرية وراكبي الخيول أو يبدو في وقفة استراحة، وقبعته العسكرية موضوعة خلف الرأس، أمام نباتات مجهولة، برفقة عسكريين آخرين أو فتيات بلباس الحرير. كان وجهه مشوهاً بالزيوت والإعجاب بالنفس، ومفرّغاً من التعب، والانحراف والحمى، لكننا كنا نقرأ دائماً التعبير ذاته في السخرية والابتهاج، معطياً انطباعاً بأنه منحرف قوّاد، ولم يعد مارسيل معجباً به، يغار منه حيث إنه ينعم بكنز لا يستحقه بوضوح. كل ما كان يراه في صور أخيه أصبح لا يطاق، حبه الواضح للعاهرات، بنيته الجسمانية الضخمة والمهيبة، إطلالته ومواقفه الصلفة وحتى كرمه، لأن كل هذه الأموال لا يمكن أن يكون قد وفّرها من راتبه كرقيب أول، بل جمعها من تجارة محظورة كالأفيون أو الدعارة. عندما عاد جان - باتيست إلى القرية من أجل حفل زواج أخته جين - ماري، كانت بنيته كما في اليوم الأول حين غادر البلدة وما زالت

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

سحنة الشباب نفسها تضيء وجه الرجل الذي نضج في تلك البقعة الخيالية حيث زبد البحر يبدو شفافاً تحت أشعة الشمس الساطعة مثل حزمة ألماس يانعة، كان محاطاً بزوجته وأطفاله، وتزين المرساة الذهبية التي ترمز إلى الفرق الاستعمارية، كمّه الطويل وقبعته، لكن تأثير موطنه الأصلي المسموم يرجعه ثانية إلى ما لم يتوقف لحظة عن كونه كأي فلاح جاهل وعديم الكفاءة، دفعه القدر للعيش في عالم لا يستحقه، لن تنفع الصناديق المعبأة بقناني الشمبانيا التي طلبها لعرس أخته الصغرى، ولا حتى مشروعه المضحك لفتح فندق في منطقة سنيون بعد تقاعده، كل ذلك لن ينفع في تغيير حقيقته البائسة. كانوا جميعهم فلاحين بؤساء منحدرين من عالم لم يعد عالماً منذ زمن طويل لكنه ملتصق بأحذيتهم كالوحل، هي مادتهم اللزجة واللينة التي تكوّنوا منها كذلك، والتي يحملونها أينما ارتحلوا إلى مرسيليا أو إلى منطقة سنيون.

في مرسيليا أو سايغون، عرف مارسيل أنه الوحيد الذي بإمكانه الهروب من هذا العالم. كانت الفطائر جافة للغاية ومغطاة بقشرة رقيقة من السكر اليابس، طعم الشمبانيا الفاتر يترك في الحلق مذاق الرماد، والرجال يتصببون عرقاً تحت شمس الصيف، لكن جين ـ ماري كانت تشع بالبهجة الخجولة ووشاح الساتان والدانتيللا البيضاء يمنح وجهها البيضاوي أناقة ورشاقة شبيهة بعذراء يهوذا القديمة. إنها ترقص، تتعلق بكل قواها بكتفي زوجها الذي يبتسم برصانة كما

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لو أنه كان يعرف مسبقاً أنه لن ينجو من الحرب الجديدة التي تنتظرهم جميعاً. وراء حاجز الجبال، وراء البحار، ثمة عالم في هيجان وفوران مستمرين، هناك بعيداً عنهم، وبدونهم، عادة ما تتقرر حياتهم ويتحدد مصيرهم من دون دراية منهم. لكن أخبار ذلك العامل ضاعت في البحر الواسع، قبل أن تصلهم، والأصداء التي وصلت إلى مارسيل بدت بعيدة ومغلوطة بحيث لم يكن يأخذها على محمل الجد. وهو يهز كتفيه بازدراء واستخفاف عندما حاول صديقه سيباستيان كولونا، في ساحة المدرسة الابتدائية العليا في منطقة سارتين، أن يشاركه حماسته الموريسية[1] ويتحدث له عن فجر أزمنة جديدة، نهضة وطن، أوصلها اليهود والبلاشفة إلى الخراب، وكان مارسيل يقول: ما الذي تتحدث عنه؟ أنت لم تر يهودياً أو بلشفياً في حياتك أبداً! ويهز كتفيه بازدراء واستخفاف لأنه لا يؤمن بإمكان المرء أن يشتعل حماساً لوهم ضبابي ومغبّش مثل هذه الأمور التجريدية. وما كان يجعل قلب مارسيل ينبض حماساً، هي الفكرة الملموسة والعذبة للالتحاق بالخدمة العسكرية قريباً، إذ إن مستواه الدراسي يسمح له أن يرتقي إلى منصب ضابط، وها هو يتخيل منذ الآن الخط المذهّب لشارته كطالب على بزته العسكرية، وفي أثناء العرس، عندما قام جان - باتيست، وفمه يمتلئ بالفطائر، بأداء تحية

(١) Morris الموريسية: صفة لها علاقة بمعتقد شارل موريس الذي كان نظرياً ورجل سياسة فرنسياً، شارك في تأسيس منظمة «أكسيون فرانسيس» وهي منظمة فوضوية كانت ضد الثورة الفرنسية، وهو مؤلف كتاب «عشاق فينيسيا».

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

عسكرية ساخرة قبل أن يلعب بشعره ضاحكاً، كأنه طفل في العاشرة من عمره. شعر مارسيل بفرح عارم لم يتمكن حتى إعلان الحرب أن يخمده. عادت جين - باتيست للعيش في المنزل بالقرية مع زوجة وأطفال جان - باتيست. كانت تنتظر وصول الرسائل اليومية منذ خط ماجينو[1] سور فرنسا الحربي، تتحدث عن الملل، والكبت والانتصار، كتب لها زوج جين - ماري الشاب، كم كان يفتقدها وكم أصبحت الليالي باردة، مفكراً بحرارة جلدها على جلده، وراغباً أن يأتي الألمان بسرعة كي يتمكنوا من قهرهم والانتصار عليهم من أجل العودة بسرعة إلى جانبها، وكتب بأنه في ذلك الوقت لن يغادرها، وكان يُقسم لها بذلك، ولن يفارقها أبداً عندما سيصبح كل ذلك مجرد ذكرى بعيدة وخالدة. مرّ الزمن ولا يزال يكتب لها أشياء لم يكن ليتجرأ على قولها وجهاً لوجه، حتى همساً، يتحدث لها عن بطنها الذي تعلم على لمساته، عن فخذيها، عن نهديها الشاحبين القاتلين، ويتحدث عن الانتصار المقبل مرة أخرى، كما لو أن انتصار جسد زوجته يجب أن يُعجن إلى حد الانصهار بانتصار البلد الذي يدافع عنه. أصبح كل يوم أكثر حماسة، وأكثر تحدياً وأكثر حربية، والرسائل تُسكر جين - ماري، وهي تتضرع إلى الله أن يعيده إليها

---

(١) Maginot Line خط ماجينو: بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، اعتمدت فرنسا استراتيجية دفاعية سلبية بإنشاء «خط ماجينو»، الذي يُعد نموذجاً للتحصينات الدفاعية الثابتة. أطلق عليه هذا الاسم وزير الحربية الفرنسي أندريه ماجينو الذي نادى للأخذ بنظرية الدفاع الثابت، ودافع عنها أمام البرلمان الفرنسي.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

قريباً، من دون تخوف منها أن تلك الدعوة لن تستجاب قط. في مارس من عام ١٩٤٠، بعد أن أكد للطبيب العسكري بأنه لا يعاني من أيّ مشكلة صحية، ترك مارسيل أخته، قريته ووالديه من أجل الالتحاق بمجموعة من طلبة ضباط في فوج سلاح المدفعية في منطقة دراغيغينان. من الجهة الأخرى للبحر، وكأن شيطان القرحة قد أصيب بالشلل، وكأنه حرم من قدراته الضارة، ولأول مرة في حياته، تمتع مارسيل بحيوية كان يجهل امتلاكها، وتصرف كطالب نجيب كما اعتاد أن يكون دائماً غير آبه بغير ذلك، وهو يصكّ أذنيه على باقي الأشياء، لا يسمع ضجيج الدبابات الهادرة، حفيف الأشجار، وهي تتكسر وتهوي في غابات الأردين، صخب طالبي الهجرة وبكاء الإهانة، وكل أحلامه في النصر اكتسحتها رياح الهزيمة والاندحار، إنه لا يسمع صوت فيليب بيتان يتحدث عن الشرف والهدنة، وحين وصلت إلى القرية الرسالة الأولى لجان - باتيست كتبها من منطقة ستالغ[١]، والبرقية التي أخبرت جين - ماري أنها أصبحت أرملة في الخامسة والعشرين من عمرها، في ذلك الحين، بدأ مارسيل يسمع في نهاية الأمر، من دون أن يستطيع تصديق ما يسمعه. قائد الجيش يعلن إلى رجال فرقته بأنهم لن يصبحوا أبداً ضباطاً بل سيتم تعيينهم في ورشات عمل الشباب، ويقصد بذلك، أنهم لن يكونوا سوى فرق

(١) stalg ستالغ وهو مصطلح ألماني يستخدم لسجناء معسكرات الحربين العالميتين الأولى والثانية. وحسب معاهدات جنيف ١٩٢٩ كانت هذه المعسكرات تستخدم لسجناء الحرب العسكريين وليس المدنيين.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كشّافة، دورهم التغني بمجد المارشال[1]، حينها شعر بحرقة حامضية في معدته تمزق بطنه وصدره وترميه على ركبتيه وسط رفاقه، أمام قائد الجيش الذي بدأ ينظر إليه، وهو يتقيأ دماً وسط الغبار. عند خروجه من المستشفى، بعد أن تمت إعادة تكوينه وتأهيله للذهاب إلى مرسيليا ليستقر هناك عند إحدى أخواته الكبيرات، وأمضى أياماً كاملة ملقى على سريره، يترنح بين الضغينة والغثيان، من دون أن يتمكن من اتخاذ قرار العودة إلى القرية كي لا يلقى به من جديد في أحضان القلق والحداد الخانقين، فقد أجّل كل مرة رحلة الرجوع، متعلقاً بشكل بائس بهذه المدينة الضخمة والقذرة كما لو أنها ستحمل له الخلاص. إنه واثق أن الوجود مدين له بشكل رهيب وأن الوجود لن يسدد ذلك الدين إلا إذا قرر هو البقاء في هذه المدينة، لأنه يعرف، بمجرد أن يضع قدميه على أرض مسقط رأسه، كل الحسابات ستُمحى، الشتائم والخسائر والتعويضات، ولن تصبح الحياة مدينة له بشيء. إنه ينتظر أن يحدث شيء ما، وهو يمشي متسكعاً في شوارع هذه المدينة التي تخيفه ضخامتها وقذارتها،

---

(١) Philippe Pétain يقصد المؤلف بالمارشال: فيليب بيتان: (١٨٥٦ - ١٩٥١) وهو عسكري ورجل دولة فرنسي أكرم بلقب المارشال سنة ١٩١٨. رئيس الدولة الفرنسية (١٩٤٠-١٩٤٤) ورئيس الوزراء (١٩٤٠) ووزير الحربية (١٩٣٤). لقب بمنتصر فردان إذ استطاع أن يصد الهجوم الألماني على هذا الموقع في معركة فردان سنة ١٩١٦. بعد هزيمة فرنسا سنة ١٩٤٠ تقلد منصب رئيس الدولة في فيشي، وصار مجرد رئيس شكلي للدولة. اعتمد نظامه سياسة ممالأة وتعاون مع ألمانيا النازية، وألقت شرطته القبض على الكثير من اليهود والمقاومين وأرسلتهم إلى معسكرات الإبادة الألمانية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يلقي نظرات قلقة نحو الميناء محاولا مقاومة إغراءات الحنين السامة، ويغلق أذنيه لأنه كان يخاف أن يسمع، من الجهة الأخرى للبحر، عذوبة الصوت الذي يحبه، والذي يدعوه للعودة إلى ذلك العالم السديم الذي ينتمي إليه. التحق به سيباستيان كولونا، وفي كل يوم، كان العشرات من مواطنيه يصلون إلى مرسيليا من أجل العثور على عمل. وبفضل توصيات أحد أعمام سيباستيان، تم تعيينه في بنك «سوسيتيه جنرال». لكن الأسابيع توالت فيما الديون بقيت غير مدفوعة. هل توفي الحياة بدينها تجاهه بهذا الشكل؟ أهكذا تعزيه الحياة لأنه لم يصبح ضابطاً، بإجباره على الغوص في كتب الحسابات الممّلة والخانقة، والتي لا يتخلص منها إلا للاستماع إلى سيباستيان، وهو يمدح في خطاباته التي لا تنتهي مزايا الثورة الوطنية، معظّماً الحكمة الإلهية التي تساعد البشر أن يستقوا درساً حكيماً وناجعاً من أسوأ الكوارث، مادحاً الصبر والتضحية، وتقبل الواقع لأن فرنسا هي الآن بحاجة إلى علاج قاس وغير متوقع من أجل أن تتطهر من السّم الذي كان ينهشها، أهذه هي الحقيقة؟ أو أن الحياة على عكس ذلك، تلاحقه باحتقارها المتكرر حتى وهو بين ذراع تلك العاهرة التي قرر أن يكلمها كي يطمئن رغبته في المعرفة والمواساة في الوقت نفسه؟ عيناها سوداوان، متعاطفتان، وتلمعان بنعومة مزيفة تتبدد سرعان ما أصبحت في خلوة معه، حينها لم يعد هناك أي بريق في نظرتها التي ألقتها عليه، وهو يغتسل في حوض التنظيف الكئيب والمتصدّع، نظرت إليه بقسوة وبلا شفقة، فيما ارتجف من الخجل،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مدركاً مرارة ما كان مقبلاً على معرفته، غير راغب في أي مواساة أو عزاء. تبعها إلى السرير حيث الشراشف التي تنبعث منها رائحة العفن، ويجب تحمّل أن تتولى هي جميع المبادرات أمام سكونه. شعر بحرارة حيث التقت منطقة بطنيهما وامتزجت مثل بالوعة قذرة تسكنها الزواحف، أحسّ بنداوة نهديها المضغوطين على صدره، وبساقيها على ساقيه، ووُلدت في ذهنه صور رهيبة صعبة التحمّل، كأن دابة، أو طيراً كبيراً مرتجفاً يُغرس في جسمه حتى الرقبة في أحشاء جيفة، لأنها كانت تحتفظ ببرودة أعصاب وقحة، عيناها الميتتان ترقب السقف، حيث يتلامس جلداهما، في كل نقطة تماس، تتبادل إفرازاتهما، والسائل اللنفاوي الشفاف، وأمزجة داخلية خاصة، كما لو أنه وجب على جسده أن يصون إلى الأبد، في بشاعة تغيراته، أثر جسم هذه المرأة التي لن يراها أبداً بعد الآن، والتي لا يعرف اسمها، ثم قام فجأة ليرتدي ملابسه ويرحل. وصل إلى الشارع وهو يلهث، شاعراً بدم غريب ينساب في عروقه، يتصبّب العرق من جفونه الآن ليست له الرائحة ذاتها، وبدأ يبصق على الأرض لأنه لم يتعرف على تذوّق لعابه الخاص. خلال أسابيع، فحص جسده بقلق، انتشرت دُمل صغيرة، واحمّر جلده، أحس أنه حكم عليه بمرض القوباء، الأكزيما، مادة لزجة، والزهري والسفلس، والتهاب الأعضاء الجنسية والطفح الفطري، ولكن مهما كان اسم المرض الذي يتربص به، لن يكون سوى الشكل السطحي للألم المستعصي الذي ألمّ به، والذي يعلن عن وجوده الذي لا شك فيه، أصّر على مراجعة الأطباء

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كل أسبوع إلى أن احتل الجيش الألماني المنطقة الحرّة، وأجبره على أن يُقتلع من هذا الهوس. كان سيباستيان كولونا يهيج غضباً، ولام تناقضات الحلفاء، ومكر هتلر الذي لم يحترم وعوده، لكن ثقته بالسلطة الأبوية للمارشال قد اهتزت بوضوح، تخوّف من أن يتم إرساله عنوة إلى العمل في مصانع ألمانيا، وقال لمارسيل: يجب أن نرحل من هنا، يجب أن نغادر المكان بسرعة، لكن السفن لم تكن تغادر الميناء. علم سيباستيان من عمه أن سفينة نقل كانت تتهيأ للإبحار من تولون إلى باستيا بعد أيام معدودة. فذهبا بالحافلة. رأيا أعمدة دخان سوداء ترتفع فوق البحر، لم يبق من الأسطول الفرنسي الغارق غير ركام ضخم من صفائح الحديد والفولاذ تعيق عمل المرسى، وقاذفات القنابل الألمانية تقصف السفن القليلة التي حاولت الهروب، وهي تشق طريقها بين الألغام والشبكات المعدنية، انفجر سيباستيان باكياً. حينما أدرك أن حالته المستعصية التي تستحق الاهتمام بنفس القدر الذي يستحقه شرف البحرية الحربية، حينها أخبر مارسيل أن عليهما الدخول إلى الأراضي الإيطالية إذا أرادا الاحتفاظ بفرصة العودة إلى قريتهما. أجابه مارسيل أنه لا يمتلك المال لمواصلة الرحلة، وأنه سيعود إلى بيت أخته في مرسيليا لكن سيباستيان رفض ذلك رفضاً قاطعاً، فهو يملك المال ولن يتخلى عن مارسيل. حينذاك أدرك أن الصداقة سرّ غامض. نجحا في الوصول إلى مدينة نيس كي يصلا إلى قريتهما بعدها بأسبوع. غمر حداد جين - ماري البيت كله، حيث يطفو فيه ضباب لا يمكن

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تبديده. كل شيء تبدد تحت غطاء ثقيل من الصمت بحيث كان مارسيل يستيقظ أحياناً مذعوراً نادماً على صفير القنابل تلك في مرسى تولون. نهض لكي يشرب ووجد أباه واقفاً في المطبخ، متسمراً من دون حراك، رأى عينيه مثبتتين لا تتحركان، سأل أباه مرعوباً: أبي، ماذا تفعل هنا؟ لم يحصل منه على أيّ إجابة سوى هّز الرأس، أحس فيها بأبدية الصمت، نظر إلى أبيه برعب، واقفاً بقميصه الصوفي الخشن، بجفنيه ورموشه المحروقة، وشفتيه البيضاوين، وعلى الرغم من الخوف الذي ملأه به، لم يتمكن من غض نظره، جمع قواه، ومرّ بجانبه، ليأخذ إبريق الماء، فشرب وعاد للنوم، وهو يُقسم سراً أنه لن يستيقظ ثانية في الليالي المقبلة، حتى لو مات عطشاً، لأنه يعرف بأنه سيعثر على أبيه منتصباً في المكان ذاته، خارج العالم، متسّمراً في ذهول مؤلم بحيث لن يتمكن حتى الموت من قهره. أراد مارسيل أن يُستأصل من قشرة الصمت الذي يعيش فيه، أخذ يُصغي لرياح التمرد العاتية التي تصفّر حوله، ينتظر وصول فورة الغضبة الدامية المفاجئة لتقتلع أبواب المنزل ونوافذه وتدخل الهواء النقي. كان سيباستيان كولونا ينقل له أخبار المظليين، وتفجيرات القنابل اليدوية، يروي أنه في منطقة التاروكا، قام اثنان من أبناء عمومة أندرياني بقتل إيطالي قبل أن يلتحق بالمقاومة، وهو يدين هذه الأعمال الإجرامية وغير المعقولة من دون أن يدرك أن مارسيل لا يشاركه الاستنكار نفسه، ويتخيل بأنه يحمل السلاح ضد المحتل. في بداية شهر فبراير، ثمة مجهول بدأ بقتل الجنود الإيطاليين

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المعزولين، كل أسبوع، بانتظام تام. ويتم العثور على جثث ملقاة في الوحل، بجوار دراجة نارية مقلوبة، على الطريق الجبلية، في محيط كيلومترات قليلة حول القرية.

كانوا يُقتلون ببندقية الصيد وأحياناً يُجهز عليهم بضربة سكين في العنق، ويُذبحون كالخنازير، بعضهم كانوا شبه عُراة لكن جميعهم كانوا حُفاة بشكل فظيع. لكن تظل الأحذية جميعها مفقودة وهذا التفصيل الذي يبدو لا قيمة له هو ما كان يصيب النفوس بالذهول والاحترام في الوقت نفسه. كما لو أن القاتل يمارس طقوساً مرعبة وغير مفهومة في آن واحد، وقيل إن رجال المقاومة لا دخل لهم في ذلك، إنما هو عمل نصير مجهول أو عمل رسول منذر بالموت المحتّم، عديم الشفقة، وحيدٍ مثل ملاك سيد الجيش. في القرية، باستثناء سيباستيان كولونا، حيث احتقاره للإيطاليين كان يتوازى مع إعجابه بموسوليني وخضوعه الكلي الشغفي للسلطة، أراد جميع شباب القرية أن ينضووا إلى لواء المقاومة ويصبحوا بدورهم مقاتلين رهيبين في خدمة العدالة. أصبح العجز بالنسبة إليهم أمراً غير محتمل الآن.

كانوا يلتقون كي يناقشوا ما يمكن فعله، ويخططون لتصفية الخونة والمتعاونين، وقد أدرج اسم سيباستيان على هذه القائمة، لكن مارسيل دافع عنه بقوة وترافع عنه بحماس، وقال إنه لم يؤذ أحداً على الإطلاق. وأخيراً قطع وعداً في ساعة متأخرة من الليل مع

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مجموعة مقاتلة في الجبل، فانطلقوا من القرية في الساعة الواحدة صباحاً، سائرين جميعهم في الليل القارس البرد، مغمورين بحماس القتال الفتي، لكن عندما اجتازوا لتوهم مبنى المدرسة، سمعوا صدى إيقاع خطوات تتقدم نحوهم، على بعد عشرة أمتار من فوقهم، فنزلوا راكضين نحو القرية، قاصدين بيوتهم من أجل الترصد فيما قلوبهم تدق من الخوف، يترصدون مرور الدورية الإيطالية والتي لم تأت أبداً لأنهم هربوا بسبب صدى خطواتهم، ويعيدها لهم صمت الليل المتجمد. أوهنهم الخجل. كانوا يتجنبون بعناية لقاء بعضهم البعض كي لا يجبروا على مواجهة خزيهم. في الربيع التالي، توقفت الأحاديث عن القاتل الغامض ولا أحد يعرف هل هلك أم عاد لإقامته السماوية في انتظار القيامة. لم يكف الغموض إلا أثناء انتفاضة سبتمبر الذي تلخصت بالنسبة إلى مارسيل في بضع خطوات ذهاباً وإياباً في طرقات القرية، حاملاً في يده بندقية عديمة الفائدة. نزل آنج ـ ماري أورديوني من الحظيرة التي تطل على غابة «فادي مالي» حيث يعيش مع زوجته حياة مستوحشة وبدائية تشبه حياة الإنسان الحجري. وهو يرتدي حذاء عسكرياً إيطالياً وسترة عسكرية، انتزعت منها الشارات والرتب.

وفي عزّ فصل الشتاء، أخذ حذاؤه الوحيد يتمزّق إلى أوصال، ولا يمكنه ترقيعه وفي الوقت نفسه لم يكن يملك المال لشراء زوج أحذية جديد. كان يبدو طبيعياً بالنسبة إليه أن يستغل المحتل لكنه

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بحاجة إلى الوقت من أجل العثور على زوج من الأحذية بمقاس قدميه، لأنه على الرغم من أن طبيعته تشبه طبيعة رجل الكهف، فإن قدميه صغيرتان بشكل غريب. أحد المسؤولين عن الجبهة الوطنية صرخ بأنه رجل تافه وغير واع، وتجب معاقبته وإعدامه فوراً بطلقة نارية إلا أن آنج ـ ماري نظر إليه ببرود وأجابه بأنه من الأفضل أن يخرس. في الجبل، يجب ارتداء أحذية جيدة. وصلت القوات الفرنسية إلى القرية، كان جنود «غومييه»[1] المغاربة المساعدون يقهقهون ويشربون، ويغنون بالعربية في الشوارع. ومارسيل ينظر بذهول إلى رؤوسهم الحليقة، وضفائر شعورهم الطويلة التي تتدلى خلف رقابهم، وتقوسات سكاكينهم، وقال له سيباستيان: انظر قليلاً إلى ماذا يشبه إله محررينا، من الموريسكيين والزنوج، الشيء ذاته يتكرر، البرابرة يقدمون خدماتهم للإمبراطورية أولاً قبل أن يساهموا في سقوطها وتحطمها، لن يبقى منا شيء. بعد مرور بضعة أسابيع، كانوا يتقيأون جنباً إلى جنب على سفينة ليبرتي التي تقلهم إلى الجزائر وسط عواصف أمواج البحر المتخثرة مثل الوحل تطهرهم من الرجس العالق بهم وتجمّد عظامهم من شدة البرد.

في منطقة ميزون كاري، هناك رقيب يجلس وراء مكتب صغير، غارق في دراسة سجل من دون قيمة، يخبرهم بتعييناتهم المسندة

(١) Goumier غوميه لفظة تطلق على الجنود المغاربة الذين كانوا يعملون في الوحدات التابعة للجيش الفرنسي في أفريقيا بين ١٩٠٨ و ١٩٥٦ في العهود الاستعمارية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

إليهم بطريقة تنم عن عدم اكتراث فظيع. لا شيء يدل على أن هناك، خلف ذلك المكتب، يتقرر حكم العفو أو الإعدام، لأن ذلك المكان انتصب على مفترق الطرق وتشعباتها، مكان الانفصال النهائي بين النعاج والتيوس، بعضها على صف اليسار والبعض الآخر على اليمين، لكن لا أحد طلب منهم الاختيار بين مجد الموت في ساحة الحرب وبين حياة تافهة، وفي اللحظة التي عرف فيها سيباستيان كولونا اسم فرقة المشاة التي عين فيها، شرع في تخيّل مسيرته الحتمية نحو رصاص الرشاشة التي تنتظره منذ الأبد في مونت كازينو. ضمّه مارسيل عفوياً بين ذراعيه من دون أن يعرف أنه لن يرى منه سوى الاسم منحوتاً بيد مجهولة من حروف ذهبية على نُصب الموتى، وكأن الرخام أقل عرضة للتلف من الجسد، وصعد في القطار متجهاً إلى تونس. ولدى وصوله، علم بأنه سيتم إرساله إلى الدار البيضاء مع فرقته العسكرية، من أجل أن يتدرّب هناك على استخدام قطع أسلحة دي. سي. آي. الأميركية، ولم يرد فهم منطق التنقلات العسكرية. واصل القطار رحلته نحو الغرب بمحاذاة البحر في رحلة طويلة دامت ثلاثة أسابيع. كان ممددّاً مع رفاقه في العربات المخصصة للبضائع، والتي فرشت بالقش الدافئ، والتي قضى عليها معظم وقته نائماً، لا يقتلع من خدره إلا ليلعب الورق أو لينظر إلى تلك السهول والمدن الصامتة التي تمر بحزن، مدن لم تكن واحدة منها تمر مرور السهول والمدن الصامتة ولا واحدة من تلك المدن كانت تفي بوعد أحلامه، البحر يداعب من جديد ضفافاً منطفئة، ولا شيء بقي من تلك

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الحكايات الرائعة التي ملأت كتب التاريخ، لا نار بعل[١] ولا جوقة الشرف الأفريقية سكيبيو[٢]، لا فارس من نوميديا[٣] يحاصر أسوار سيرتا من أجل أن يردّ إلى ماسينيسا[٤] قبلة سوفونيسب[٥] التي سُرقت منه، الأسوار والمحاصرون عادوا جميعاً إلى الغبار وإلى العدم لأن الرخام والجسد قابلان سويا للفناء والانقراض، وفي بون الكاتدرائية

---

(١) Baal بعل: أهم إله لدى الكنعانيين، وكانوا يعتبرونه الإله المحارب، لهذا صوروه مسلحاً. وكان الفينيقيون يعتبرونه إله الشمس، وقد نقلوا معهم عبادته لقرطاج بشمال أفريقيا حيث أطلقوا عليه الإله بعل هامون.

(٢) Skippo اشتهرت عائلة سكيبيو بتنشئة أفضل الجنرالات الذين تمكنوا من صد العديد من هجمات القرطاجيين التي استهدفت روما، وبذلك حازت على اسم عائلة سكيبيو «رعاة روما». لم تكن عائلة سكيبيو إحدى العائلات المرموقة، لكن أصولها التي تعود إلى أيام نشوء روما ساعدتها في تطورها السريع. وبموافقة مجلس الشيوخ والرومان أصبحت هذه العائلة إحدى أرفع العائلات التي غيرت قدر روما، حيث حازت على الكثير من الامتيازات السياسية والاقتصادية، لكن طموحها لم يتوقف عند ذلك الحد، فقد استمرت بالكفاح من أجل الثروة والقوة ما أدى إلى القضاء على الحكم الثلاثي.

(٣) Nomeidae نوميدي: نوميديا هي مملكة أمازيغية عاصمتها سيرتا قامت في الجزائر، وامتدت إلى غرب تونس وإلى جزء من المغرب وليبيا وتعتبر من أشهر ممالك الأمازيغ القديمة.

(٤) Massinissa ماسينيسا (٢٣٨ ق. م. - ١٤٨ ق. م.) هو أول ملك على نوميديا وعاصمتها سيرتا (قسنطينة اليوم) في البداية كان حليفاً لقرطاج، وشارك وعمره ١٧ عاماً فقط مع صدر بعل جيسكو في هزيمة صفاقس الأولى. وحارب كحليف لقرطاج في هسبانيا، بفرسانه النوميدية. وبعد هزيمة القرطاجيين في الجزيرة.

(٥) Sophonisbe سوفونيسب: وهي الأميرة زوجة قائد قرطاجنة وزعيمها هزدروبال التي نصحت زوجها بالقتال في روما التي هددت باحتلال بلادهما، وعند دخول الرومان إلى قرطاجنة ألقت بأولادها في النار ثم رمت نفسها، رافضة بذلك العيش ذليلة في ظل الاحتلال.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

التي استقبلت موعظة أوغسطين وأنفاسه الأخيرة التي كستها صياح أهل فانداليس[1]، لم يبقَ منها سوى أرض مهملة، مكسوة بالأعشاب الصفراء تهب فيها الرياح. وصل إلى مكانه في الدار البيضاء، وقرر أن يجتهد ليصبح جندياً لكن الأميركيين لم يسلموا قطع سلاح دي. سي. أي، فأصبح الانتظار طويلاً لا يُحتمل إلى درجة أصبحت فيها العودة إلى ماخور العاهرات لابد منها. لم يكن يتمكن من استيعاب أنه في الوقت الذي تقرر فيه مستقبل العالم، ها هم يحكمون عليه بالملل والضجر من جديد، ولم يحمل له الأطلسي الواسع أيّ مواساة أو عزاء.

في غضون شهر واحد، علم بأنه يتم البحث عن ضباط إداريين وسارع على الفور لتقديم ترشيحه. إذا ما تم رفض القتال، عليه على الأقل، أن يصبح ما كان يحلم به أن يكون دائماً. أخيراً شعر بالسعادة في نهاية المطاف ورافقته سعادته إلى أن تم استدعاؤه من طرف الكولونيل الذي انتقد فعله الشائن مستخدماً مصطلحات في قمة العنف، إذ كان يعنفه، ويضرب بقبضته على مكتبه، لست سوى حثالة، حيث أنطونيتي، وصف بالجبان، ومارسيل بالولهان المضطرب،

---

(١) Vandale الفاندال (أو الوندال) من الشعوب الجرمانية القديمة، اشتهرت بالترحال والغزو والقتال. يتصف تاريخه الباكر بالغموض، ويعتقد أنهم غادروا مواطنهم الأصلية في جنوب اسكندنافيا قبيل بداية العصر المسيحي واستقروا على الشواطئ الجنوبية لبحر البلطيق. أخذت العرب اسم الأندلس من اسم سكانها الأصليين الفانداليس فقالوا فانداليسا أو فاندالوزيا وأطلقوا عليها جزيرة من باب التغليب فقالوا جزيرة الأندلس كما قالوا جزيرة العرب.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فأخذ يتمتم، «لكن سيدي الكولونيل»، «سيدي الكولونيل» لكن الكولونيل كان يصرخ، أتريد أن تكون مشرفاً في الإدارة؟ إدارة؟ مكرراً كلمة «إدارة» كما لو كانت هذه الكلمة تعبّر عن فاحشة مخلة بالحياء لا اسم لها تلوّث فمه، أنت خائف من القتال، اعترف؟ تفضل أن تختفي لتعدّ كيلوات البطاطا وزوج الجرابات ؟! يا لك من حثالة، يا لك من نذل! وأخذ مارسيل يقسم أنه لا يعيش إلا من أجل القتال، وأنه كان يرغب دائماً أن يصبح ضابطاً، وأنه فقط رأى في هذا الإعلان فرصة يجب استغلالها، لكن الكولونيل لم يهدأ: كان يجب أن تأتي لرؤيتي، إذا أردت أن تصبح ضابطاً، ضابط سلاح المدفعية، أيها السيد! ضابط له شرف! كنت أستطيع تعيينك في فوج لكن العمل في الإدارة؟ تباً، الإدارة؟ لا أحد من رجالي سيعمل في الإدارة، هل تسمعني؟ ولا واحد! والآن انصرف، هيا اذهب قبل أن أرميك في الحفرة!

خرج مارسيل وبطنه تندلع فيه النار، تبخرت كل آماله مرة أخرى بلا رحمة، ولم يتبق له إلا أن يستمر في مواصلة انتظار قطع سلاح دي. سي. أي. والتي لم تصل حتى تم تعيينه في نهاية الأمر في سكرتارية ضابط الإدارة من دون أن يرى لا الكولونيل، ولا غيره، أن في ذلك التعيين أي تناقض أو فضيحة. رجع إلى فرنسا برفقة الضابط في نهاية ١٩٤٤ وصعدا ببطء نحو الشمال على بعد مئات الكيلومترات خلف خط الجبهة. كان مارسيل يتكلف بالسجلات،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ويحضّر قهوة رديئة. لم يكن يسمع قط قرقعة السلاح. حصل ذلك مرة واحدة في منطقة كولمار، على بعد بضع مئات من الأمتار من السيارة التي كان يقودها، قنبلة ضالة سقطت واقتلعت الغبار والحصى.

توقف مارسيل، مرسلاً نظراته إلى المدينة حوله، والتي خُرِّبت تماماً، والتي لا تحتاج إلى قذيفة أخرى لتحطيمها بهذا الشكل. طنين جميل أصاب أذنيه لبضع دقائق. فاستدار نحو الملازم الأول لكي يسأله عن أحواله، ونفض الغبار عن سترته براحة اليد، وهو يقطب حاجبيه قليلاً، كان ذلك هو الفعل الوحيد الذي جمعه بالسلاح، الحدث الوحيد الذي استطاع أن يجعله يفكر أن الحرب لم تجعله بعيداً عنها كلياً. والآن، ها قد انتهت الحرب وها هو بين أسرته ثانية. يستسلم لعناق أبيه الذي يضمه إلى أحضانه كما يضم جان ـ باتيست، يرخي عناقه قليلاً ليشده من جديد كما لو أنه لم يستوعب أن الحرب لم تأخذ منه ولديه. كان جان ـ باتيست يشعّ فرحاً، إنه أصبح بديناً بشكل فظيع. لقد أمضى السنوات الثلاث الأخيرة من الحرب في مزرعة في منطقة بافيير تديرها أربع راهبات، كان يغمز بعينه وهو يتحدث عنهن، وبعد ذلك يطمئن أن زوجته لا تنظر إليه بينما كان مارسيل يخشى أن يكون أخوه يريد أن يختلي به لكي يسترسل في سرد أسرار وتفاصيل مشينة. لم يرغب بسماع ذلك. كان في السادسة والعشرين من العمر. لن يرى أبداً ساحة المدرسة الابتدائية العليا في منطقة سارتين، لأن سنه أصبح كبيراً، وعندما ينظر إلى يديه، بأنهما ستتفتتان مثلما تتفتت أيادٍ من الرمل.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في باريس، عند ذهابها لاستقبال جان - باتيست، قابلت جين - ماري في منطقة لوتياتا شاباً أصغر منها عمراً، مقاوماً عائداً لتوه من المنفى، وأعلنت أنها ستتزوجه. فقد استنفدت طاقتها من شدة الكآبة والحزن، وهي تعرف ذلك، لكنها كانت تتظاهر كما لو أنها لا تزال تؤمن بالمستقبل. كان مارسيل يعاتبها، وكيف أنها تبذل كل تلك الجهود غير المجدية والبائسة كي تتظاهر بالحياة، وهو يعاني من رؤية أخته تمثل كوميديا النسيان هكذا، كره التظاهر بالسعادة، وعندما انشغلت بتحضيرات الزواج، واجهها بصمت مليء بالعناد والازدراء. لكن في الكنيسة، عندما صعدت نحو المذبح حيث ينتظرها أندريه ديغورس، نحيل وفتي في بزته العسكرية التابعة لمنطقة سانت سيريان، توقفت لحظة ثم التفتت نحو مارسيل، وابتسمت له بابتسامة طفولية، والذي لم يترك لها خياراً إلا أن يرد عليها بابتسامة وكأنه أرغم على ذلك. لم تكن تمثل أيّ كوميديا، ولم تكن تسمح لنفسها بالتنازل لا للجحود ولا للهزل لأنها تملك في داخلها منابع لا نهائية من الحب الذي يصونها. شعر مارسيل بالخزي من نفاد بصيرته وصلافته، وفي وضح الصباح، أحس بالخزي مرة ثانية، من قلبه الضعيف، قلبه المليء بالظلمات، الخزي أمام أندريه لأنه كان محارباً تافهاً، الخزي من حظه المحتقر والخزي أيضاً من أنه لا يستطيع حتى التمتع بوضعه هذا، كان ينظر إلى أندريه باحترام وبحسد، ويشعر بالخزي من أن يستقبله في قريته البائسة، كل المدعوين إلى العرس. رأى أن كل الحاضرين يجسدون العار،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

عائلة كولونا، التي لا تزال في حداد دائم، وعائلة سوسيني، الذين سمحوا لابنتهم البلهاء مرافقتهم، والتي كانت حاملاً بلقيطها الألف، وآنج - ماري أورديوني، ووجهه المحمر بشدة الافتخار، يضغط على صدره المغطى بالميداليات، الطفل البدين الذي وضعته زوجته في حظيرتهم القذرة، كان يشعر بالعار حتى من والديه، ومن حيوية جان - باتيست الفاضحة والطافحة، ويشعر بالعار من نفسه كذلك، الذي يحمل في صدره قلباً ضعيفاً ومليئاً بالظلمات. نظر إلى أخته ترقص بين ذراعي أندريه. الأطفال يركضون بين الطاولات العرجاء. وضع آنج - ماري أورديوني إصبعه داخل فم ابنه كي يمتصه بعد أن غمسه في كأس النبيذ الوردي. مارسيل يستمع إلى ضحكات الناس ونشاز آلة الأكورديون، وإلى صوت جان - باتيست المعربد. جلس تحت الشمس بالقرب من أمه التي أمسكت بيده وهّزت رأسها بحزن. كانت تبدو الشخص الوحيد الذي لم يكن سعيداً كون الحياة تأخذ مسارها من جديد. كيف يمكن للحياة أن تأخذ مسارها من جديد بينما لم تبدأ بعد؟

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الفصل الرابع

«ما يفعله الإنسان، يدمّره الإنسان»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

في شهر أغسطس، قبل رحيلها إلى الجزائر، أمضت أوريليو نحو خمسة عشر يوماً في القرية مع الشخص الذي ما زال يعتبر آنذاك شريك حياتها وكانت مذهولة مما وجدته من حياة صاخبة وفوضوية، والتي تفيض على كل شيء. ظهر بوضوح أن مصدر تلك الفوضى وينبوعها ينطلق من حانة أخيها. هناك نجد زبائن مختلفين في جو احتفالي دائماً، يلتقي المعتادون، والشباب الآتون من القرى المحيطة والسائحون من جميع الجنسيات، يلتقون بشكل عجيب في تجمّع احتفالي يسوده شرب الخمر، لا يعكره أي اضطراب أو مشكلة، على عكس جميع التوقعات. وكأنه المكان الذي اختاره الرّب لكي يجرّب سلطان الحب على الأرض وسكان المنطقة أنفسهم، والذين عادة ما يتذمرون بسرعة لأدنى المشاكل، وعلى رأسها الحياة البسيطة التي يحياها المواطنون، ها هم يُظهرون ابتسامات عريضة ودائمة أمام المنتخبين. يبدو بيرنارد غراتاس، الذي عاد منتصراً من الجحيم، تحت تأثير الجو نفسه الذي يسود الجميع بدون استثناء. لقد استفاد من ترقية رهيبة، جعلته يقفز من أهوال العمل في المغطس

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

إلى تحضير السندويتشات، المهمة التي قام بها بمزاج عال وخفة سريعة. هناك أربع نادلات يَجلْنَ في الصالة وعلى رصيف الحانة، وهن يحملن بأناقة الأطباق، وخلف البار، هناك امرأة أكبر سناً، تجلس على مقعد، تدير صندوق الحساب، وشاب يغني ويعزف على الغيتار أغاني كورسيكية، وإنجليزية، وفرنسية وايطالية، وعندما يغني لحناً جذاباً، يصفق له الزبائن جميعهم بحماس. كرس ماتيو وليبيرو نفسيهما لتعميق العلاقات الإنسانية، ينتقلان من طاولة إلى أخرى للسؤال عن راحة ضيوفهما، يوزعان الشراب، يداعبان ذقون الأطفال بعد أن يقدما لهم المثلجات، كانا سيّدَيْ عالم كامل ومثالي، عالم مبارك، حيث تجري فيه أنهار من الحليب والعسل. حتى كلودي لاحظت ذلك، وقالت وهي تتنهد:

ـ ربما هذا هو مجاله.

نظرت إلى ابنها الذي يشع سعادة، يتنقل من طاولة إلى أخرى، قال:

ـ أليست سعادته هي التي تهم؟

لم ترَ أوريللي مناقضة قولها، وتعترف لها أن ماتيو يثير سخطها إلى أبعد الحدود، وأنها لا ترى شيئاً في سعادته سوى تعبير لانتصار طفل مدلّل، طفل عنيد تمكن من الحصول على لعبة اشتهاها، بقوة إطلاق الصراخ وذرف الدموع. كانت تشاهده وهو يلعب بدميته أمام

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

جمهور مغمور، وهو يعرض ببهرجة سعادته وفرحته، كانت تخشى أن السخط الذي تشعر به نحوه لم يكن عميقاً ودائماً، لأنه شعور لا يأتي من معاناة، من خيبة أمل، ولا من الغضب، إنها عبارة عن مقدمة لشعور نهائي للامبالاة، ذلك الشاب الذي أحبته أيّما حب، والذي طالما واسته باستمرار، ها هو يتحول تدريجياً إلى شخص من دون أفق أو اهتمام، حيث عالمه محدود بأفق مكون من رغباته الصغيرة، وعرفت أوريللي حينما ستعرف مدى جديته، أنه يصبح غريباً عليها تماماً.

جاءت من أجل أن تسّلم على أهلها وأقربائها قبل أن ترحل، وخاصة جدها، وتتمتع برؤيتهم جميعاً، كانت تأتي كل مساء بعد العشاء لتشاهد العرض الذي يقدمه ماتيو، يبدو وكأنه أصبح ضرورياً أن يمروا إلى الحانة من أجل تناول شراب مع العائلة، جلس ماتيو إلى طاولتهم، وهو يتحدث عن مشاريع تتعلق بنشاطات عروض الحانة في فصل الشتاء، والطرق التي دبرها باحتيال مع ماتيو من أجل اقتناء اللحوم المدخّنة، من غرف الخادمات، وهذا الرجل الذي قاسم حياة أوريللي منذ بضعة أشهر، وجد متعته وإثارته في ذلك. كان يطرح أسئلة مهمة، ويعطي رأيه، كما لو أنه يجب عليه كسب الحب أو كما بدأت تفكر فيه أوريللي، إنه في حقيقة الموقف ليس هناك سوى معتوه مبتهج بلقائه بمعتوه آخر يبتهج هو الآخر، والذي سيتمكن من مشاركته جميع أنواع الحماقات. لكن بعد ذلك بقليل،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

عاتبت نفسها على قساوتها وعلى السهولة التي تحوّل فيها فجأة حبها لهما إلى احتقار، شعرت بالحزن لأنها تملك في دواخلها قلباً قاسياً. لم يكن لديها أي اعتراض على أصحاب الحانة أو نوعية السندويتشات أو عمل الخادمات، ولم تكن لتصدر أحكاماً على خيارات ماتيو لو أنها تيقنت أن خياراته مدروسة وصادقة لكنها لم تكن تتحمل لعب دور التمثيلية والجحود، كان ماتيو يتصرف وكأنه مجبر على بتر ماضيه، يتحدث بلكنة مفتعلة لم تكن أبداً لكنته، لكنة سخيفة لدرجة تضيع وسط جملة قبل أن يستدرك بخجل، ثم يستأنف تمثيليته المثيرة للسخرية، والتي تنم عن أزمة هوية، تمثيلية يستبعد فيها أي تفكير، لأن أقل تجلّ للعقل كان يعتبر عنصراً خطيراً. وليبيرو نفسه، الذي كانت تعتبره أوريللي دائماً مثل ولد رقيق وذكيّ، يبدو مصراً على سلوك النهج نفسه، لقد اكتفى بمحاكاة صوتية مختصرة عندما أخبرته أنها ستمضي السنة المقبلة بين جامعة الجزائر وعنابة حيث ستشارك في عملية تنقيب عن الآثار في موقع عنابة ضمن فريق فرنسي وجزائري، وكأن القديس أوغسطين، الذي كرس لدراسة أعماله عاماً من حياته، لم يعد يستحق منه لحظة إضافية من الانتباه. عدلت أوريللي عن الحديث معهما عن الأشياء التي تعنيها لنفسها، وكل مساء، عندما كانت تصل إلى الحد الذي يمكن لها أن تتحمّل الأغاني والضحكات والبلاهات، كانت تقف قُرْبَ الطاولة وتطلب من جدها:

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ـ ألا ترغب بالخروج من هنا والتجوّل قليلاً؟

وتقول للتدقيق:

ـ كلانا فقط؟

حتى لا يفكر أحد بالالتحاق بهما ثم يمشيان سوياً على الطريق، باتجاه الجبال، يأخذ مارسيل ذراع حفيدته، ويتركان خلفهما ضجة العيد، والأضواء، ثم يجلسان لوهلة بجوار النافورة، تحت السماء الصافية المليئة بالنجوم في شهر أغسطس. إنها المرة الأولى التي يتم طلبها للمشاركة في مشروع تعاون دولي وكانت متشوقة للالتحاق بالعمل فوراً. كان والداها قلقين على أمنها وسلامتها. والرجل الذي يشارك حياتها الآن قلق على صيرورة علاقتهما. لم يكن ماتيو قلقاً من شيء. كان جدها ينظر إليها وكأنها ساحرة قادرة على أن تنتزع بمفردها العوالم الغابرة من أغوار الغبار والنسيان المظلمة التي ابتلعتها، في تلك اللحظات الممتلئة بالحماس، عندما بدأت دراستها، هكذا تخيلت نفسها. أصبحت أكثر تواضعاً وجدية.

عرفت أنه لا توجد حياة أخرى بعيداً عن عيون الرجال وكانت تجتهد كي تكون إحدى تلك العيون التي لا تترك الحياة تنطفئ. لكن دواخلها الشريرة تهمس لها أحياناً أن ذلك غير حقيقي، إنها لا تسلط الضوء إلا على الأشياء الميتة ولم تكن تعيدها للحياة، بل على العكس، كانت حياتها هي، .من بدايتها إلى نهايتها، استسلاماً إلى

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الموت شيئاً فشيئاً، وكانت أوريللي تشد على جدها في ذلك الليل. عندما حلّت ساعة الرحيل، قبلت جدها بكل قوتها ثم قبلت جميع أقربائها محاولة أن لا تتاجر بعاطفتها. طلب منه ماتيو:

ـ في آخر المطاف، إنه جيد ما حققناه، أليس كذلك؟

كان يبحث عن موافقتها لذلك بإصرار طفولي لدرجة لم يترك لها الاختيار فردت:

ـ نعم. هذا جيد، إنني سعيدة من أجلك.

وهي تقبّله مرة أخرى. عادت إلى باريس برفقة الرجل الذي شارك حياتها، وبعد أيام ها هو يرافقها إلى مطار أورلي حيث تبادلا القبل في ذلك الصباح، بعد ليلة حب أرادها أن تكون الأكثر حميمية واحتفالية، تبادلت أوريللي معه العناق والقبل بكل شغف وحب وبكل ما أوتيت من قوة. كانت طائرة الخطوط الجوية الفرنسية خالية تقريباً. حاولت أن تقرأ ولكن لم تستطع، كما لم تستطع النوم كذلك. كانت السماء صافية. عندما حلقت الطائرة فوق جزر باليريس المتوسطية المستقلة عن اسبانيا، ألصقت أوريللي وجهها بنافذة الطائرة ونظرت إلى البحر وتتبعته إلى أن ظهر لها الساحل الأفريقي. في الجزائر كان رجال الأمن الوطني، مدججين بالرشاشات، ينتظرون الطائرة التي كانت تستعد للوقوف على الممر الخاص بها. نزلت من السلم مجبرة نفسها على أن ترى هؤلاء الحرس، وتسلقت الحافلة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

التي كانت تصدر ضجيجياً والتي اقتادتها إلى المطار. كان شباك شرطة الحدود مكتظاً بالازدحام والضجيج اللذين يفوقان الوصف. كانت ثلاث أو أربع طائرات قد هبطت على ما يبدو في آن واحد، من بينها طائرة من نوع ٧٤٧ والتي وصلت من مونتريال بتأخير تسع ساعات، وكان رجال الشرطة يدققون بعناية كل جواز سفر يقدم لهم، ويغوصون في تأملات اكتئابية ودرامية لتأشيرة الدخول قبل أن يقرروا غير آبهين إصدار ضربة الختم المحررة. في غضون ساعة، عندما وصلت إلى حزام تسلّم الحقائب، وجدت جميع الحقائب قد نثرت وبعثرت في الصالة، على أرضية مغطاة بأعقاب السجائر، وخشيت أن لا تجد حقيبتها. كان عليها أن تُظهر ثانية جواز سفرها المختوم، وتوزع ابتسامات على رجال الجمارك هادئي الأعصاب وغير المبالين، وتمرّ من تحت الأبواب الإلكترونية قبل أن تصل إلى قاعة وصول المسافرين. خلف السور يتزاحم حشد من الناس، وهي تلحظ الباب. كانت دقات قلب أوريللي تتسارع من القلق، لم تشعر أبداً من قبل بالضياع والوحدة، كانت ترغب في العودة حالاً، وعندما رأت اسمها مكتوباً بحروف كبيرة على ورقة، تلوّح بها يد مجهولة، شعرت بارتياح عنيف لدرجة أنها لم تَعُدْ قادرة على حبس بكائها.

* * *

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لم تكن لدى ليبيرو أي نيّة في اقتراف الأخطاء ذاتها التي اقترفها هؤلاء التعساء الذين سبقوه. وأدرك أنه على غرار ماتيو، غير ماهر في إدارة الحسابات المالية للحانة ولكن لم يكن يشك أن معرفته بالبلد تعينه كثيراً في تفادي فشل جديد. تكلم عن المستقبل بوضوح حالم، وماتيو يستمع إليه كما لو كان نبياً، وعليهما أن يخففا من طموحاتهما من دون التخلي عنها بشكل نهائي، إذ من المستبعد أن يقدما خدمات مطعم متكامل، لأن هذا النوع من الخدمات يعتبر هوة تبتلع الأموال، لكن عليهما أن يقترحا وجبات لزبائنهما، خاصة في فصل الصيف: وجبات خفيفة، شرائح لحم قديد، أجبان، وربما صحون سلطات، من دون أن يبخل على النوعية ويقصّر فيها، وليبيرو واثق من أن الناس مستعدون لدفع المال من أجل نوعية جيدة، لكن لابد من التكيّف مع العيش على إيقاع السياحة الجماعية، واستقبال زمر من المفلسين، ومن المستحيل بمكان تقديم نوعيات فاخرة، لذا لم يترددا في تقديم أشياء تافهة بأبخس الأسعار. عرف ليبيرو كيف يحل هذه المعادلة المستعصية، شقيقه سوفيير وفيرجيل أوردوني

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كانا يزودانهما بشرائح اللحم المقدد الممتاز، شرائح عمرها ثلاث سنوات، وأجبان استثنائية، لدرجة أن كل من ذاقها سارع إلى مدّ يده إلى جيبه لشرائها، وهو يبكي من كثرة الامتنان، وما تبقى من الحاجيات الأخرى لم يكن ضرورياً بذل جهد كبير لأجلها، إذ يكفي اقتناء تلك المنتجات الرخيصة التي يتم تقديمها من مخازن القرية والتي يطلق عليها منتجات محلية من المنطقة، والتي يتم لفّها بطريقة على أساس أنها منتجات قروية، مدموغة بعلامة محلية، يتم رشها ببخاخات من طحين الكستناء في المصنع، إذا اقتضى الحال، يتم الإعلان عنها بكل صراحة، وبدون خداع: خنازير صينية، تم قطعها في سلوفاكيا، وشحنها بأبخس الأسعار، لكن يجب الانتباه إلى عدم خداع الناس، وينبغي توضيح الفارق في مستوى المنتجات، وشرح فارق الأسعار التي تظهر عن اختلاف تلك المنتجات، ويجب أن يفهم الآخرون أن اختلاف الأسعار لابد منه لتجنب عملية الغش بأقل صلافة واحتيال، ويقدم المكر والدهاء كهدية، أما النوعية فيجب دفع ثمنها غالياً، النزاهة شيء مهم وأساسي، لا لأنها فضيلة مطلوبة بحد ذاتها، بل لأنها قبل كل شيء تشبه دور كريمة الفازلين نوعاً ما. لا بد من تحضير أطباق للتذوّق حتى يتمكن الزبائن من التعرف على المنتجات أولاً، وطلبها ثانياً: كلا، أرجوك خذ قطعة أخرى لتتذوقها كي تتأكد أولاً. وهذه النزاهة الحريصة ستُعطي أكلها، فمهما كان الاختيار النهائي، يكون هامش الربح هو نفسه تقريباً، إنهما ينويان استنزاف شلة البلهاء، فقراء كانوا أو أغنياء، من دون فرق في العمر أو

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في الجنسية، يجب استنزافهم بأمانة وضمير، حتى إذا اقتضى الحال تدليلهم ومجاملتهم، لأنه يجب على صاحب الحانة الاهتمام بزبائنه، ولا يمكن له أن يقضي كل وقته مسّمراً خلف صندوق الحسابات، مثل ذلك البليد غراتاس، عليه أن يكون متفرغاً، وظريفاً، ومهتماً بإدخال السعادة إلى قلوب الآخرين، والمشكلة المستعصية تكمن في النادلات، اصطحبهما فنسان ليندري ذات مساء إلى أحد أصدقائه، سبق أن أدار مجموعة من الأعمال في القارة، ويدير حالياً مرقصاً ليلياً راقياً وغير مفضوح على شاطئ البحر، والمفترض أن يعرضه لتهمة الاتجار في الدعارة الخطيرة، ولكن سرعان ما عرف أن ماتيو وليبيرو فهما الموضوع وخباياه، استقبله بالأحضان وأغدق عليه قناني الشمبانيا بكل كرم.

- أنتم بحاجة إلى شخص موثوق به، ويعرف الموسيقى.

اتصل هاتفياً ليعلن أن آني، وهي نادلة محترفة عملت لحسابه أيام زمان، قد تكون مستعدة للعمل. وصلت بعد ربع ساعة، وأكّدت أن ماتيو وليبيرو لطيفان، احتست نصف ليتر من الشامبانيا، وأكدت أنها ستكون سعيدة بمساعدتهما، ستمسك صندوق الحسابات وإدارة خزين الأكل. أما بالنسبة لخدمات الصالة، فيجب توظيف نادلة أخرى.

هزّ صديق فنسان رأسه.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ـ ليست واحدة فقط، لا تكفي نادلة واحدة يجب توظيف ثلاث أو أربع.

شرح ليبيرو أن الحانة ليست كبيرة بهذا القدر، ولا تحتاج إلى هذا العدد الكبير من الفتيات، وأنه لا يرى كيف سيتم دفع أجورهن. لكن صديق فنسان أصرّ على ذلك.

ـ إنه الصيف، إن لم تكونا كسولين سيأتيكما زبائن كثيرون. إذا أنتما تريدان أن تفتحا الحانة ليل نهار، يجب عليكما توفير اليد العاملة، ولاستمرارية العمل لا يمكن أن تشغلا الفتاة نفسها ثماني عشرة ساعة في اليوم، أليس كذلك؟ وإذا كلفكما الأمر أموالاً كثيرة، يمكنكما طرد اثنتين لكن أنتما من عليه الاستيقاظ باكراً. في الليل تحتاج الحانة إلى نادلات. رجلان لا يصلحان لمثل هذه التجارة. أعرف أن في هذه الأيام، هناك شواذٌ كثيرون، ولكن ليس في نيتكما فتح حانة للشواذ فقط، أليس كذلك؟

ـ ضحك بملء فمه. كان ليبيرو يرغب في إجابته أن لا نية لديه فتح ناد للشواذ كما لا نية لديه لفتح حانة للعاهرات ولكنه خشي أن يجرح مشاعره.

ـ هل فهمت ما أقصده؟

ليبيرو أذعن للأمر:

ـ وخصوصاً لا يجب مضاجعة النادلات طبعاً؟ فالناس لا يأتون

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

إلى حانتكما ينفقون الأموال ليشاهدوكما تضاجعان النادلات! أنتما يمكنكما مضاجعة الزبونات، ولكن ليس النادلات.

أبدت آني موافقتها، يمكن طبعاً أن نقوم بعمل أشياء كثيرة في الحياة، ولكن عندما ندير حانة، فلا يصح مطلقاً مضاجعة النادلات. قال ماتيو وليبيرو أن مثل هذه السخافة لم تخطر أبداً على بالهما.

جاءت المفاجأة ابتداء من اليوم التالي حيث لاحظا أن آني والتي كانت تتمتع بحيوية لا نقاش فيها، كانت على ما يبدو قد احتفظت من وظائفها القديمة بعادة غريبة تتمثل في استقبال أي جنس رجولي يفتح باب الحانة، بلمسة سريعة وملحة في منطقة الخصيتين. لا أحد سلم من تلك الحركة. كانت تقترب من القادم الجديد، بابتسامة، وتبادله قبلتين كبيرتين على الخدين في حين تتحرى بيدها اليسرى، وكأن شيئاً لم يكن، عن منطقة ما بين الفخذين مع ثنيّ أصابعها قليلاً. أول من جربت عليه هذه الطريقة كان فيرجيل أوردوني، والذي وصل إلى الحانة، بذراعين محملتين بشرائح اللحم. احمّر وجهه، انفجر بضحكة قصيرة وبقي واقفاً وسط الصالة لا يدري ماذا يفعل. فكر ماتيو وليبيرو في البداية أن يطلبا من آني أن تتماسك قليلا ولا تعقد صداقات سريعة مع الزبائن لكن لا أحد منهم اشتكى من الأمر، بل على عكس ذلك، بدأ رجال القرية يكثرون التردد على الحانة في اليوم، حتى أنهم أصبحوا يأتون في ساعات غير معتادة، تعد ساعات ميتة في اليوم. الصيادون يقطّعون الطرائد، وحرص فيرجيل على

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

النزول يومياً من الجبل لحانة القرية، ولو لاحتساء فنجان قهوة، كل ذلك جعل ماتيو وليبيرو يلتزمان الصمت، دون أن يكنّا في أعماقهما امتناناً كبيراً لحنكة آني، وقدرتها على اختراق وكشف بساطة الروح الرجولية.

في كل ليلة، بعد إغلاق الحانة، يقومان بما يشبه حملات توظيفية بجولات ليلية في أماكن التخييم، وعلى الشواطئ، يبحثان عن طالبات مفلسات، تقضين معظم أوقات فراغهن في حالات سعادة رتيبة، تقتصر على السباحة فقط، يغريانهن بعمل موسمي، وبالفعل عثرا على عدد كبير منهن. قبل نهاية شهر يوليو، اختارا أربع نادلات، كما تم أيضاً تعيين بيير ـ إيمانويل كولونا، الذي حصل لتوه على الشهادة الثانوية ـ البكالوريا ـ والذي كان يقضي عطلته الصيفية في العزف على غيتاره أمام جمهور مألوف ومحب لكنه ضيّق. لم يكن بحاجة إلى تغيير مهارته في العزف لأنه لم يحقق نجاحاً عند زبائن الحانة فقط، ولم يكن من الصعب تلبية متطلبات الجمهور لأن الجمالية منها، كانت بسيطة، حتى الأغاني المليئة بالنشاز والصراخ، تصدر عن شخص سكران حتى الموت مثل فيرجيل أورديوني، تُستقبل بالهتاف والحماس، لم يحقق بيير ـ إيمانويل كولونا هذا النجاح فقط بل تمَّتْ مكافأة موهبته منذ الليلة الأولى، من طرف آني التي حشرته على البلياردو بعد إغلاق الحانة، وقبلّته على فمه، وهي تتحسس جسده بقوة قبل أن تهديه ليلة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ليلاء حيث الشبق اجتاز فيها كل خيالات مراهقته الأكثر جرأة. في صباح اليوم التالي، أيقظته، وهي تغرقه بالإطراء والقبلات وقدمت له على السرير نفسه حيث مارسا الجنس باحترافية، الفطور المتنوع الذي أعدّته بنفسها خصيصاً، وأخذت تنظر إليه وهو يلتهم وجبته وعيناها تتلألآن بدموع صافية لدرجة قريبة من نظرات الأمومة. كانت حياة بيير ـ إيمانويل كولونا إلى حد اللحظة هادئة ورتيبة، اجتاحها سيل من اللذة والسخاء، وعندما كان ليبيرو يمنحه راتبه، يردد عليه ضاحكاً:

ـ إذا ما رأينا كيف تستمتع بعطلتك الصيفية، فأنت يجب أن تدفع لي!

في نهاية موسم الصيف، ذهب الجميع سوياً برفقة آني والنادلات، بيير ـ إيمانويل وحتى غراتاس، لتناول العشاء في أحد المطاعم الراقية في سهرة يمكن اعتبارها وجبة مكافأة وتحية وداع، تتبعها سهرة شراب في مرقص. في حين سترحل الفتيات، باستثناء آني، الأسبوع التالي إلى مناطق مال هاوس، وسانت تيين، وساراغوس، فاقترح ليبيرو عليهن البقاء. لم يكن يعرف بإمكانية إبقائهن طوال فصل الشتاء بكامله، لكن الموسم كان مربحاً جداً لدرجة تسمح له بالمحاولة. لم يعترف لهن في تلك الأثناء أن عرضه السّخي يأتي قبل كل شيء من تحليل تجاري منحط: كان يعتمد على قوة الإغراء الذي يمارسه حضور أربع نساء شابات عازبات في منطقة قاحلة بسبب

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

البرد والبؤس الجنسي من أجل ملء الحانة، حتى في قلب الشتاء. لم ترفض أي واحدة منهن، كن يتابعن دراسة لا يحببنها، ويعرفن أن تلك الدراسة لا أمل منها ولا آفاق لها، كن قد تخلين عنها في أعماقهن منذ زمن، لم تكن قادرات على القيام بمشاريع، كن يعشن في مدن بلا سعادة، وبشعة جعلتهن كئيبات، مدن حيث لا أحد ينتظرهن في حقيقة الأمر، كن يعلمن أن في نهاية المطاف ستتمكن تلك البشاعة قريباً من الاستقرار في أرواحهن للاستحواذ عليهن، كن مستسلمات لهذا الأمر، ولربما أن براءة أرواحهن المهزومة، وذاك القطب المغناطيسي لضعفهن هو الذي اقتاد بدون خطأ وشك ليبيرو وماتيو نحو كل واحدة منهن، أنيس، جالسة على الشاطئ تدخن لفافة السجائر، على مبعدة من الراقصين والبار، وريم وسارة، تتشاركان في تناول شرب الصودا أثناء انتخاب ملكة جمال المخيم، وايزاسكون، التي تخلى عنها صديقها للتو، والذي تركها هناك أثناء عطلتهما، كانت لا تكادُ تتكلم الفرنسية، وتنتظر حاملة حقيبتها على ظهرها، في مرقص ليلي حقير، تنتظر أن يبزغ النهار. خمس فتيات لا يبالين من مشاركتهن في سكن الشقة الكائنة فوق الحانة، ولا يبالين من مراتب السرير التي سيفترشنها على الأرض للنوم عليها، ولا لقلة الخصوبة التي سيجبرن للعيش فيها لأنهن كن قد أمضين في القرية الأسابيع الأكثر سعادة بالنسبة إليهن، حيث نسجن في القرية علاقة لا يردن كسرها الآن، علاقة حقيقية وقوية، شعر بها ماتيو أيضاً، في تلك الليلة أثناء العشاء. لأول مرة منذ زمن طويل، فكر بالفيلسوف ليبنيز

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وابتهج بالمكان الذي يوجد فيه الآن في أفضل بقاع العالم وشعر أنه يرغب بالانحناء أمام طيبة الإله، سيد العوالم، الذي يضع كل مخلوق في مكانه الصحيح. لكن الإله لا يستحق أي ثناء أو إطراء لأن ماتيو وليبيرو هما من صنع هذا العالم الصغير، وهما من أبطاله. فالبطل الصانع ليس هو الرّب الخالق، حتى أنه لا يعرف أنه يشيد عالماً، إنه يخلق عملاً اسمه الإنسان، ولبنة بعد لبنة، يهرب منه المخلوق، ويتجاوزه وإذا لم يقم بتدمير ما صنعه، فإن المخلوق هو الذي يدمّره.

* * *

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ابتهج ماتيو لمشاهدة تباشير قدوم الشتاء، وهو يستقر ببطء في القرية، وليس بشكل فجائي، أثناء هبوطه من الطائرة. لكن الشتاء لم يأتِ ببطء، بل اقتحم القرية فجأة. لا تزال الشمس دافئة في كبد السماء في ذلك الصيف المضطرب. بدأت نوافذ آخر البيوت تغلق الواحدة تلو الأخرى، لا أحد يمّر في طرقات القرية، طيلة يومين أو ثلاثة، عند الغسق، ثمة رياح دافئة تهّب من البحر تماماً قبل الوقت الذي أخذ الضباب والبرد يغطيان آخر ما تبقى من الأحياء. في الليل، كان الجليد يلمع على الطرقات كما لو أنها لآليء نفيسة زرعت على جوانبها. كان الشتاء يشبه الموت تماماً هذا العام ولأول مرة. رحل السّياح لكن الحانة لم تفرغ كلياً من الزبائن. كانوا يأتون من جميع المناطق لتناول المشروبات وقت الغروب، ويسهرون ليالي الجمعة، عندما كان بيير - إيمانويل كولونا يأتي من الجامعة حيث يتابع دراسته الأسبوعية، ويستمعون إليه وهو يغني وينظر إلى الفتيات الجالسات بالقرب من الموقد، وغراتاس منهمك بشواء قطع اللحم، فيما ماتيو لا يقوم بشيء إلا التلذذ باحتساء المشروبات الكحولية

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

التي تحرق شرايينه. من حين لآخر، عندما تقرر أن دوره قد حان، كان يقوم بمضاجعة فيرجيني سوسيني، لم تقل شيئاً قط. ولم تفعل سوى المجيء إلى الحانة والجلوس إلى طاولة معزولة حيث تقضي ليلتها في إغراء الزبائن والإيقاع بهم. عندما تغلق الحانة بابها، في الوقت الذي تقوم فيه آني بجرد الحسابات، تكون هي لا تزال حاضرة ترقب ماتيو من دون أن تنطق بكلمة واحدة، وتتبعه عندما يأوي إلى بيته حيث يقودها بهدوء إلى غرفته من دون إحداث أيّ ضجة، كي لا يوقظ جده، هناك تعود أن يقودها كل مرة. لكنه لم يكن من السهل مضاجعة فيرجيني بل كان أمراً صعباً ومتعباً، إذ يجب عليه تحمّل صمتها، ونظرتها الثاقبة التي لا تتحرك، مضطراً أن يتقبل أن كل هذا لا معنى مفهوماً له، ولا شيء يبّرر إحساسه بأنه قد تمت إهانته وإذلاله من خلال تلك العلاقة، لكن ذلك يبقى أفضل من الرجوع إلى غرفته وحيداً. لأن البيت أصبح الآن مخيفاً بالنسبة لماتيو، كما لو تم إخلاؤه في آن واحد من حرارة الصيف ومن آثار إنسانية أليفة ومأنوسة. صور أسلافه التي كان يراهم كآلهة تشرف وتسهر على شبابه، ها هم يتقمصون الآن مظهراً مهدداً حيث يتهيأ له الآن أحياناً أنها ليست صوراً معلقة على الجدران، بل هي جثث حافظ عليها البرد من التفسخ، ولا شيء جميلاً أو مطمئناً ينبعث منها. في الليل، كان يسمع قرقعات يأمل أن تكون محض خيال، طويلة وحزينة كأنها تنهدات، والضجة الحقيقية التي يقوم بها جده، وهو يهيم في الظلام الحالك عابراً من غرفة لأخرى مصطدماً بالأثاث، ها هو ماتيو يغلق

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أذنيه وهو يدفن رأسه تحت وسادته. إذا قرر أن يستيقظ، فالأمور تجعل أوضاعه أسوأ. يشعل الضوء ويعثر على جده في الصالون، يسند جبهته على زجاج النافذة المتجمّدة، ممسكاً بيده صورة لا ينظر حتى إليها أو واقفاً في المطبخ وعيناه مفتوحتان وكأنه يرمق شيئاً غير مرئي، شيئاً جلب نظره لكن يسكنه رعباً، وعندما يسأله ماتيو:

- هل أنت بخير؟ ألا تريد الذهاب للنوم؟

كان لا يجيب أبداً، بل يواصل النظر أمامه، وثقل شيخوخة ألف سنة تنهك كتفيه الضعيفين، فكاه يرتجفان، مشغول كلياً بتلك الرؤية التي تجعله في ملجأ عن كل ضرر، في مأمن من عناقه الذي ينم عن غيرة ورعب في الوقت نفسه. يذهب ماتيو إلى الفراش لكنه يعجز عن النوم، تراوده فكرة الانطلاق بسيارته مرات، ولكن أين يذهب، في الرابعة فجراً، في عز الشتاء؟ لم يكن هناك خيار سوى انتظار انبلاج ضوء الفجر الذي يتسرب من جناح النافذة ليحطم تلك التعاويذ المؤذية. حينها يصبح البيت مألوفاً وحميماً رويداً رويداً. فينام ماتيو. يحاول تأخير رجوعه للبيت كل يوم، ويبقى في الحانة إلى أقصى وقت ممكن، ويحاول أن يعود إلى بيته ثملاً بما فيه الكفاية حتى يتمكن من الخلود إلى النوم بسهولة. في ليلة ما، تجرأ وسأل الفتيات:

ـ هل استطيع النوم عندكن هذه الليلة؟ هل يمكن أن تتدبّرن مكاناً لي؟

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وأضاف بغباء:

- لا أرغب النوم وحيداً.

انطلقت الفتيات في الضحك، حتى أن ايزاسكون التي قطعت شوطاً جيداً في تعلمها الفرنسية لدرجة أصبح فيها من الممكن التعرف على غباوة في الكلام حين تسمعها، وبدأن جميعاً يسخرن من ماتيو ويقلن له إنه أتى حقاً بطريقة جديدة ومنفردة، ومؤثرة جداً، وذات مصداقية، فاحتج مبيناً حسن نيّته بالانضمام إليهن في الضحك إلى أن قلن له:

ـ بالتأكيد! بالتأكيد تستطيع ذلك متى ما تشاء! سنهيئ لك مكاناً.

تبعهن إلى الشقة حيث تتكدس حقائب وصفوف من الملابس مرتبة ومرصوصة بعناية على الجدار. وأعواد بخور تحترق. آني تستقل غرفتها الخاصة، ريم وسارة تنامان في الغرفة الأخرى، لذا ذهب ماتيو ليتمدد على مرتبة الفراش التي تتشاركها كل من أنيس وايزاسكون في الصالة والتي أخفياها خلف ستائر يابانية. لحقتا به وأخذتا تمازحانه قليلاً، فجثمتا والتصقتا به. تمتمت ايزاسكون بالإسبانية ببعض الكلمات. قبّلهما على الجبين، الواحدة تلو الأخرى، كما يقبّل أختين، وخلدوا للنوم جميعاً. لم يكن هناك أي تهديد ولا حتى ظلال شكوك في نوم ماتيو في الشقة نفسها، لم تكن هناك أي فكرة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مرضية في ذلك الفعل. عندما استيقظ من نومه، كان رأسه يستند إلى صدر ايزاسكون وإحدى يديه ترسو على ورك أنيس. تناول فنجان قهوة ثم رجع إلى بيته للاستحمام. لكن لم يعد ينام في بيته أبداً. في اليوم التالي، نام بجانب ريم وسارة وقسّم لياليه اللاحقة في النوم متنقلاً بين مرتبات الصالة والغرف، وكان ينام دائماً بذات الطريقة العفيفة والوديعة، كما لو أن السيف المقدس للفارس كان موضوعاً هناك على الشراشف، بين جسده وبين أجساد الفتيات الدافئة، إذ كان يوصلهم بشيء من طهارته الخالدة. هذا الانسجام العفيف لم يتم خرقه إلا في عطلة نهاية الأسبوع، عندما لحق بيير ـ إيمانويل كولونا بآني وكان عليهم تحمّل مرحها الشيطاني. فقد كانوا يبلون بلاء يفوق الخيال، يثيرون صخباً فظيعاً، أجهد نفسه وزفر من كثرة بذله للجهد، ومرات ينفجر بضحكة غير لائقة لا مبرر لها، أما آني فكانت تطلق صرخات وإضافة إلى ذلك، كانت ثرثارة رهيبة، تقول بصوت عالٍ ما كانت ترغب في فعله. وماذا يفعل بالضبط بها، وهي تعبر عن إعجابها لما فعل لها للتو. كانت الأصوات دقيقة جداً إلى درجة أن ثمة انطباعاً سائداً أنّنا نشهد نقلاً إذاعياً لمباراة، مخلة بالحياء لا نهاية لها، والتي يقوم بالتعليق عليها صحافي مصاب بالهستيريا. لم يتمكن ماتيو والفتيات من الخلود إلى النوم، قالت ريم:

ـ أقسم لكم إن هذا الرجل عجيب، يجب أن نقيس الوقت عن جد.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وبالفعل بدأ يتصرف بغطرسة رياضي ذي مستوى عال، في الحانة، يمّد يده ليمس مؤخرة آني بوقاحة كلما مرّت بجواره، متمتعاً بنظرات الافتتان الذي يبديها عامة الدهماء العاجزون، الذين يشعر بهم يستديرون نحوه، ويغمز بعينيه بكل عجرفة إلى فيرجيل أوردينيو الذي يضحك بعصبية، بالعاً لعابه، فيطبطب على ظهره، مثلما يكافئ صبياً بفتات حلم، والذي يجب عليه الاكتفاء بذلك الفتات لأنه لن يستحق أكثر من ذلك. أما ماتيو والفتيات، فقد أحسوا أنهم أصبحوا شهوداً لعروض قياسية لا تسعى في النهاية إلا لإشباع توقعات جمهور متطلب، فأصبحوا يصفقون ويطلقون الهتافات، ما كان يدفع بيير ـ إيمانويل للخروج من الغرفة لفترات وجيزة، وهو يتصبّب عرقاً وغضباً، ليرمقهم بنظرات حادة، ثم يعود للغرفة. وبعد ذلك كانوا يسترسلون في نوبات ضحك مريعة، وعندما ينهك الفاسقان من شدة التعب ليسمحا بالصمت أن يسود من جديد، يخلدون بدورهم إلى النوم، وشفرة السيف العارية تحرس براءة نومهم. لكن بالطبع، كان على السيف، أن يُسحب من بينهم ذات يوم، وهذا ما حدث بالفعل ذات ليلة. كان ماتيو ممدّداً على جنبه، مستديراً نحو ايزاسكون، وكانت هي كعادتها تتمتم ببعض الكلمات الإسبانية، وهو يسمعها تتنفس بتثاقل، رأى عيوناً سوداء تلمع في الظلام وابتسامة ذكرته بجوديت هالر، فهو الآن في العالم الذي اختاره، العالم الذي شيده لبنة لبنة، لا شيء يمكن أن يشعره بالذنب، مّد يده ببطء وتحسس فخذ ايزاسكون التي قبّلت رسغه، ثم فمه، وألصقت بطنها به، ومرّر

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ساقها فوق ساقيه كي يقترب منها، ثم قبّلته بكل قواها، شعر ماتيو بأنه مغمور بالامتنان والجمال، غائص في أعماق مياه تعميد مباركة، ذات نقاء أبدي وعندما انتهى كل شيء، تمدد على ظهره وعيناه مفتوحتان، وبينما كانت ايزاسكون ملتصقة به، لمح أنيس، مستندة على مرفقها، تنظر إليهما. استدار نحوها لكي يبتسم لها، فانحنت وقبلته طويلاً، وقبضت بطرف لسانها قليلاً من اللعاب في ملتقى شفتيه، ثم داعبت أجفانه بأناملها، كما تُغلق عيون رجل ميت بإجلال وحب، إلى أن خلد للنوم تحت مداعباتها اللطيفة.

* * *

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ـ سأترك لك أمر الحانة، يا آني. هل جردت حسابات الصندوق؟

سلمت آني حسابات اليوم إلى ماتيو الذي وضعها في علبة حديدية صغيرة. فتح دُرجاً وأخرج منه مسدساً أوتوماتيكياً ضخماً ودسّه تحت حزامه في حركة متقنة بحيث بدت طبيعية الآن.

ـ يمكننا أن نغادر الآن.

نظرت أوريللي إليه بذهول.

ـ أصبح لديك مسدس الآن؟ أصبحت مجنوناً حقيقياً؟ مما تشكو؟ هل لديك مشاكل مع رجولتك وفحولتك؟ إنه لأمر سخيف. هل تدرك ذلك؟

لم يجد ماتيو نفسه سخيفاً على الإطلاق، بل على العكس، لم يقل شيئاً لكنه اكتفى بتقديم شرح بعض التفسيرات التي طلبتها أخته والتي كان عليه تقبلها بدون جدال. الحانة تعمل جيداً وتستقطب جميع زبائن القرى المجاورة، الآتين مسافة ثلاثين أو أربعين

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كيلومتراً، إنه شيء لا يُصدق، وفكرة ليبيرو عبقرية حين طلب من الفتيات البقاء لأنهن جذبن الزبائن، وبدونهن، لا أحد كان يستطيع تحدي المطر والجليد من أجل تكبّد المتاعب والمجيء إلى الحانة وتناول المشروبات، في هذه القرية التي لا شيء يميّزها عن غيرها من القرى الأخرى، مشروب الباستيس له الطعم ذاته في كل مكان، إنه أمر بديهي لا يحتاج للتوضيح، بحيث قال فنسان ليناردي في ملاحظة إن الأعمال الناجحة قد تتعرض للنهب، خاصة في أيامنا هذه، فالناس كانوا لصوصاً منذ القدم، لكن يمكن للمرء أن يكون لصّاً من دون أن يكون حقيراً، في أيامنا هذه، وبكل تأكيد، فالناس لا يكتفون أن يصبحوا لصوصاً فقط بل يصيرون حقراء وصلفين أيضاً. هم قادرون على قضاء أمسية في احتساء المشروبات يعبثون ويمزحون، يرمونك بالقبل أثناء الذهاب ثم يعودون بعد عشر دقائق متنكرين تحت قناع ليهددوك بمسدس ويستولوا على صندوق المال قبل أن يخلدوا آمنين إلى النوم في بيوتهم، حتى إنهم يعودون ثانية لتناول المشروبات، مع أنهم لقنوك البارحة ضربتين في الفك بعقب مسدساتهم، وصفعتين على وجه آني، هكذا لمجرد الصلافة، لم يتكلم فنسان عن خطر محتمل بل عن شيء حقيقي لا مفر منه، لم يكن هناك أي تشويق في السيناريو، سيحدث ذلك، آجلاً أم عاجلاً، ذلك منحوت على الرخام، لذلك نصح بشراء مسدس في أسرع وقت. رفعت أوريللي عينيها إلى السماء.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ـ لو صّح فهمي، أنتم الآن لستم مهددين بالسرقة فحسب بل أنتم مهددون بالقتل، يمكن أن تقتلوا كما يمكن أن تقتلوا أحدهم. هذا تفكير منطقي في غاية الذكاء، أحسنت! أذكرك أن فنسان ليندري مجرد سكير!

لكنها لم تفهم، لم يكن لدى ماتيو أي نيّة لقتل أحد، ولا حتى ليبيرو، ويجب النظر إلى هذه الاحتياطات من زاوية الردع ليس إلا، فهو شخصياً استغرق وقتاً طويلاً كي يدرك دقة أساليب الردع، في المرة الأولى التي كان يجب عليه نقل صندوق الحسابات وسط موكب، كان قد وصل إلى الحانة في الساعة السابعة مساءً، وقد دسّ المسدس في سرواله، اكتظ المكان بالازدحام، وانتقل إلى خلف البار بروية، ووضع المسدس في الدُرج من دون أن يلفت إليه الأنظار، ولم يكن بالشيء الهين نظراً إلى عددِ الزبائن حول البار ونظراً إلى حجم المسدس، نظر ليبيرو إليه وسأله:

ـ هل بإمكاني فهم ما تقوم به؟

وأجابه ماتيو هامساً.

ـ إنني أضع المسدس في الدُرج.

وانفجر ليبيرو ضحكاً، وكذلك فعل فنسان ليندري، على حق أن يسخرا منه لأنه في الحقيقة، ماذا ينفع أن يكون لديك مسدس إذا لم يعرف أحد به؟ فالمبدأ على عكس ذلك، يجب أن يعرف

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الناس بوجود المسدس، هكذا فاللصوص، وأي كان ما سيقولونه في دواخلهم، فإنه من الأفضل أن يذهبوا لسرقة مكان آخر، أناس آخرين لا مسدس لهم، في المساء، عندما يأتي دور ماتيو، يُخرج مسدسه بشكل علني من حزامه ويضعه لفترة أمامه على طاولة البار، ثم يضعه برفق في الدُرج ليخرجه منه عند الإغلاق، هذا هو الردع، واللصوص هم بمثابة الكوبيين، وليبيرو وماتيو كأنهما الأخوان كينيدي، أثبتت الطريقة نجاحها، لكن أوريللي واصلت تنهداتها، وكانت سوف تزيد من تنهداتها أكثر لو علمت أن ماتيو، سواء كان ما يفعله من أجل الردع أم لا، فقد قرر أن يطلق النار على كل دنيء تسول له نفسه الاقتراب وسرقة صندوقه.

ـ هل ستأتي إلى البيت بمسدسك؟

هزّ ماتيو كتفيه.

ـ بالتأكيد لا. سأضعه عند ليبيرو.

لم تكن لديه أدنى رغبة في تناول العشاء مع عائلته. لا يأتي والداه عادة في عيد الميلاد. وهذه تعتبر أول مرة. وقد أصرّا أن تلتحق بهم أوريللي، الشيء الذي لم يتقبله إلا بصعوبة الرجل الذي يشاركها حياتها أو بالأحرى الذي يشاركها حياتها شيئاً فشيئاً. منذ الصيف، لم يقض معها سوى بضعة أيام في شهر أكتوبر. وبدلاً من القدوم إلى فرنسا عندما سنحت لها الفرصة، فضلت البقاء في الجزائر

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وقبول دعوة زملائها الجزائريين والذين عرفوها على مواقع مثل جميلة وتيبازا، وبررت قرارها هذا أنها لم تكن ترغب في إهانتهم، وفهم من ذلك أنها تكن الوّد والاهتمام لأناس تتعرف عليهم من جديد وليس له هو شريكها في الحياة منذ سنوات والذي يتعين عليه الآن الاكتفاء بالوقت الذي تقرر تخصيصه له بوقاحة جارحة، ها هي تحتم عليه فوق كل ذلك أن بتر حياتهما المشتركة من خلال هذه الأيام الإضافية التي ستمضيها في القرية، مع عائلتها، من دون أن تقترح عليه مرافقتها وكأنه أمر طبيعي، إنه لا يشكل جزءاً من عائلتها. في هذه الليلة، وهم حول مائدة الطعام، لم تفكر به وهي تسرد ما وجدته هناك من مواقع زاخرة ومهجورة منذ زمن، وتستذكر النصب التذكارية للانتصارات والدرع الملفوفة على شكل معاطف برونزية، رأس غورغون[1] حيث اختفت من على حائط النافورات الرخامية، سلسلة الأعمدة البازيليكية[2]، كما كانت تتحدث عن لطافة زملائها الجزائريين الذين حرصت على ألا تنطق أسماءهم خطأً: ميزيان كارادجا، ليديا دهماني، سعاد بوزيان، ماسينيسا غورمات، حكت عن إخلاصهم في العمل ومهارتهم وإيمانهم بما يقومون به، والذي

(١) Gorgon غورغون: تحدث هوميروس في الأوديسا عن غورغون كوحش له رأس وقناع وأجنحة ومخالب، يخرج من الجحيم، وتم تصويره بنصف آدمي ونصف مسخ، وكان لديه القدرة إذا نظر إلى أي آدمي وخاصة الرجال فيحوله إلى حجر.

(٢) Basilik بازيليك: مَبْنى رومانيّ مستطيل في أحد طرفيه جزء ناتئ نصف دائريّ. كنيسة قديمة إيوانيّة الشّكل. كاتدرائيّة كاثوليكيّة ذات امتيازات.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

جعلهم قادرين على إخراج مدن مفعمة بالحياة من ركام حجر أصم، لأطفال المدارس الابتدائية، هكذا وتحت أعين الأطفال، يصبح العشب الأصفر مكسواً ببلاط من رخام وموزاييك، وملك نوميديا يمرُّ على فرسه حزيناً، وهو يحلم بقبلة سوفونيسبا الضائعة، وبعده بقرون، وفي أعماق ليلة طويلة من العهد الوثني، يبعث أتباعه من جديد للحياة ليتزاحموا الواحد مع الآخر حول مذبح الكنيسة قبل أن يتعالى وسط الباحة المضيئة، ومن بينهم، صوت المطران الذي يحبهم.

ـ أنصتوا إليّ أنتم يا من أحب.

لكن ماتيو لم يكن يسمع أي صوت، وهو ينظر إلى ساعته ويفكر بذراعي ايزاسكون اللذين ينعمان بالحياة، وكذلك بذراعي أنيس، ويفكر في كل تلك الأشياء التي لا يرغب بمشاركتها مع أحد، وعندما حان وقت تقديم الحلوى على المائدة، قال إنه لم يعد يشعر بالجوع، وسيرحل. لكن والده قال له:

ـ لا تذهب من فضلك، ابقَ قليلاً، لن تستمر الجلسة طويلاً.

ظل ماتيو جالساً، شرب فنجان قهوة، وساعد في تنظيف المائدة وعندما قام كل من جده وجدته للذهاب للنوم، قام بدوره، لكن والده أضاف:

ـ لا تذهب من فضلك، يجب أن أتحدث معك، أنت وأختك، اجلسا.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وبدأ يحدثهما بكثير من الهدوء والجدية، لكن دون النظر في وجهيهما، لقد شعر بالتعب والإنهاك مؤخراً منذ بعض الوقت، وقام ببعض الفحوصات الطبية واكتشف انه مريض، مريض جداً، كما قال، استمع ماتيو إليه جيداً لكنه لم يفهم لماذا كان وجه أوريللي يتغير متأثراً وهي تسمع والدها يتحدث عن تفاصيل المراسيم التي يجب عليه تتبعها والتي تبدو فعّالة بلا شك، مراسيم قاسية، شبه عادية، ومع ذلك أخفت أوريللي رأسها بين يديها وكررت.

- أبي، يا إلهي، أبي.

لكنه لم يكن مريضاً إلى هذه الدرجة، هذا ما كان يقوله بنفسه، ونهض ماتيو ليحضر كأس ويسكي، محاولاً التركيز بلا جدوى، على كلام أبيه، لكن ايزاسكون كانت تضع يديها على أذنيه لتمنعه من الاستماع، ويدا أنيس تداعب أجفانه بأناملها، كما تغلق عيون رجل ميت كي تمنعه من النظر، ورغم كل هذه الجهود لم يكن يستطيع النظر إليه، ولا الاستماع إلى أبيه، جاك أنطونيتي، وهو يشرح لأولاده بطريقته أنه ربما سيموت قريباً لكنه لم يكن يستمع له لأن خطاب والده لم يكن له مكان في عالمه الذي يعتبر أفضل العوالم الممكنة، عالم الانتصار واللامبالاة، حيث لا يمكن فيه الحصول على أقل معنى ملموس يمكن إدراكه بالحواس، لم تكن تلك إلا إشاعة مزعجة، دوامة مقلقة لنهر جوفي يجري تحت الأرض حيث قوته البعيدة لا تستطيع تهديد نظام هذا العالم الكامل العظيم والذي

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لا يوجد فيه سوى الحانة، رأس سنة جديدة تقترب، وصديق بمثابة الأخ، وأخوات بقبلاتهن المحرمة يفوح منها عطر الافتداء العذب، هناك في عالمه طمأنينة وجمال خالدون لا يستطيع أي شيء إزعاجه، لدرجة أنه عندما احتضنه جاك بين ذراعيه وقبّله بحنان، قال له:

ـ من فضلك، لا تقلق، كل شيء سيمر على خير.

لم يستطع إلا إجابته بصراحة أنه ليس قلقاً، لأنه يعرف أن كل شيء سيمرّ على ما يرام، فأجابه أبوه قائلا :

- أجل.

ربما كان فخوراً بهذا الابن، الذي يمتلك حساً رفيعاً كي يجنبه العذاب، ومهابة مصابه الجلل، ثم قبّل أوريللي وذهب للنوم. ظل ماتيو هناك، وسط الصالة، كما لو أن شيئاً يربكه، وأحضر كأساً آخر من مشروب الويسكي، بجوار أوريللي التي كانت تحبس دموعها، لكنه تذكّر فجأة أن بإمكانه الآن الانصراف، وضع كأسه. رفعت أوريللي عينيها نحوه وقالت:

- هل تدرك الأمر؟

- أدرك ماذا؟

- قد يموت والدنا.

- ليس هذا ما فهمت. لا ليس هذا إطلاقاً.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وصل إلى الحانة في منتصف الليل. كان هناك شخصان من منطقة سارتين يشربان قنينة فودكا على البار، لا يكادانِ يقويان على الوقوف لكنهما يغازلان آني بصلافة والتي كانت تنعتهم بالخنازير، وتعاقبهما من وقت لآخر بمداعبة استنكارية صغيرة في منطقة الخصية وتتغنج، وهي تجمع البقشيش الوفير. كان غراتاس يمرر المكنسة في إحدى الزوايا. وفيرجيني سوسيني جالسة وحدَها على طاولة، تجتذب الرجال بنجاح. ذهب ماتيو ليجلس أمامها. لم تنقطع عن مهمتها ولو لثانية واحدة ولم تنظر إليه. قبل لحظة من ذلك، لم يكن ماتيو بحاجة إلى أن يكشف عن مكنون قلبه لأي أحد لكنها هنا، ولربما هي الشخص الوحيد في العالم الذي لا يأسف على البوح لها بالأسرار لأنه يبدو غير مكترث بها ولا حتى يستمع لها. انحنى عليها وقال لها بدون مقدمات:

- يبدو أن أبي سيموت.

هزّت فيرجيني رأسها ووضعت ورقة اللعب تحمل سيدة المربعات تحت أخرى تحمل ملك الزهرة المثلثة، ثم تمتمت:

- أعرف جيداً الموت. فقد ولدت أرملة.

انزعج ماتيو. فاقدو العقل أصبحوا ينهكونه. كان يرغب في رؤية ايزاسكون. ورمق فيرجيني بنظرة غاضبة، ماطاً شفتيه بغطرسة.

- على الأقل ألست أنا من تنتظرين هذا المساء؟

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

سحبت فيرجيني ورقة أخرى من لعبة الورق.

- كلا، لست أنت. إنه هو الذي أنتظره، لكنه لا يزال يجهل ذلك.

فأشارت بإصبعها نحو بيرنارد غراتاس الذي تجمّد في مكانه، والمكنسة في يده.

* * *

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ها هي الآن، ترصد من نافذة السفينة ظهور سكان جزر البليار الذين يواسونها بوعد لقاء قريب، ألا وهي العودة إلى عذوبة البلد الأصلي، والذي لم يكن البلد الذي يشهد ولادتها، وبدأت دقات قلبها تزداد بقوة إلى أن رمقت الخط الرمادي الذي يوحي بالشواطئ الأفريقية، علمت حينذاك بأنها عائدة إلى وطنها. شعرت الآن أنها منفية في فرنسا، كما لو أنها حين توقفت عن استنشاق الهواء نفسه الذي يتنفسه يومياً مواطنوها، جعل اهتماماتهم مبهمة في نظرها، وجعل من خطابهم مجرد عبث، هناك حدود غريبة وغير مرئية تحيط بجسدها، حدود من زجاج شفاف والتي لم تكن عندها الرغبة أو القدرة في اجتيازها. أصبح عليه بذل جهود مضنية كي تتمكن من متابعة أبسط المحادثات، ورغم جهودها، لم تفلح في ذلك، كان عليها دائماً أن تطلب من محادثيها أن يعيدوا ما قالوه للتوّ، أو تقرر التخلي عن الإجابة من أجل أن تنسحب في صمت حدودها اللامرئية، والرجل الذي سيتوقف قريباً عن مشاركة حياتها كان دائماً يشعر بالإهانة جراء ذلك، ويصبّ عليها وابلاً من العتاب واللوم،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وهي لا تبالي حتى بالدفاع عن نفسها لأنها قررت أن لا تقاوم حتى ضد برودتها، ضد عدم لامبالاتها، ضد الظلم الذي استقر داخل قلبها الأسود، لم تتمكن من استعادة صلتها بعالم الطيبة إلا عند وصولها إلى مطار الجزائر، إلى أروقة الجامعة، وتحديداً إلى عنابة. تحمّلت بكل سعادة الانتظار الطويل على شبابيك شرطة الحدود، وازدحام الطرقات والأوساخ الملقاة في الشارع وانقطاع الماء، وتدقيق الهويات عند الحواجز، وقبح مبنى الفندق الستاليني الكبير. أين كان يقطن كل الفريق في عنابة، وغرفه المتهالكة، والتي تفضي إلى ممرات قاحلة، بدا لها كل ذلك القبح مؤثراً. لم تكن تشكو من شيء، وقبلت الواقع بشكل كلي لأن كل عالم هو مثل الإنسان، يشكل جملة متكاملة لا يمكن انتقاء الأشياء منفردة على حسب الهوى، هو جزء لا يتجزأ يجب تقبله أو رفضه، كما أوراق الشجرة وثمراتها، كما القش وحبة القمح، كما الدناءة والامتنان. في علبة من الغبار والدرن ترتاح سماء الخور الواسعة وكنيسة أوغسطين ومناظر طبيعة لا ينضب جمالها وكأنها جوهرة تلمع بروعة وسط الغبار والقذارة. في كل أسبوعين، كانت تعود إلى باريس لتمضي عطلة نهاية الأسبوع بجوار والدها. وعندما أخبرت أوريللي زملاءها أن والدها مريض، أحاطوها جميعهم برعايتهم. قدموا لها أطباقاً من الحلوى من أجل والدها دعوا له بالشفاء. أصّر ماسينيسا غورما على مرافقتها إلى المطار، وكان في انتظارها عند العودة. في بداية شهر أبريل، جلست برفقة أمها بجوار سرير المستشفى حيث حاول أبوها أن يلملم قواه بعد العلاج. كان قد

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

حلق رأسه كي لا يرى شعره يتساقط. طلب كأس ماء فناولته أوريللي. سقط منه الكأس بينما كان يحمله إلى شفتيه، انقلبت عيناه ثم أغمي عليه. ارتمت كلودي عليه وهي تصرخ:

- جاك!

ثم بدا وكأنه عاد إلى وعيه، نظر إلى زوجته وابنته وهو ينطق بكلمات غير مفهومة، ثم أمسك بمعصم أوريللي وسحبها نحوه، كانت عيناه تشبه عيني حيوان يحتضر، مليئة بالخوف والظلام، حاول الحديث لكنه لم يفلح، استجمع كل قواه لكنِ من دون جدوى، إذ كانت تفلت منه مقاطع الكلمات ومرات كلمات كاملة، وكأنها اقتلعت من جمل احتجزها بقساوة جسده العليل، كلمات تقلد اللغة ولا تبعث إلا على أسى صمت موحش، أقدم من الكون، فسقط على وسادته، بينما يده لا تزال متشنّجة حول معصم ابنته. دخل طبيب وممرضات وطلبوا من كلودي وأوريللي الخروج. انتظرا في الممر، ثم جاء الطبيب لرؤيتهما، تحدث لهما عن فشل كلوي وتسمّم الدم بالبول، وعندما سألتاه عما سيحصل له، أجابهم بأنه لا يعرف وانه يجب الانتظار ثم تركهما، أغمضت كلودي عينيها.

- أعتقد بأنه يجب أن تخبري أخاك. أنا لا أستطيع ذلك.

خرجت أوريللي، وعندما أجاب ماتيو على الهاتف، سمعت ضحكات وموسيقى. يبدو أنه لم يفهم ما كانت تقول له في بداية الأمر. كان العلاج يصلح له بشكل جيد، هذا ما كانت تقوله له أمه

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كل مرة تتصل به هاتفياً، لم يكن هناك أي داع للقلق. أغمضت عينيها وقالت:

- ماتيو، اسمعني: لقد تغير كثيراً، لم يعد نفس الشخص. هل تستوعب ما أقوله؟

ظل ماتيو صامتاً. وهي تسمع الموسيقى، والأصوات المتبادلة، وضحكاً لا ينتهي. وأخيراً نطق متمتماً:

- سأستعد للمجيء.

في اليوم التالي وعلى عكس كل التوقعات، تحسن وضع جاك أنطونيتي. لم يحتفظ بأيّ ذكرى مما جرى له في اليوم الماضي. حاول المزاح. واعتذر من أوريللي وكلودي عن الذعر الذي سببّه لهما. لكن الطبيب قال إنه يجب إبقاؤه في المستشفى احتراساً. ففي المستشفى يمكننا أن نتصرف بكل سرعة في حال حدوث طارئ جديد، إذا ما رغبت كلودي، أن تبقى بجوار زوجها، يمكن تخصيص سرير مؤقت لها في الغرفة نفسها، وأجابت إنها فكرة جيدة. عاودت أوريللي الاتصال بماتيو الذي ارتاح من الخبر وكان في صوته شيء من العتاب لأنها أعطته صورة رهيبة عن وضع تبدو السيطرة عليه سهلة. فلم تأبه بالرد عليه:

- متى ستصل إذا؟

أشار لها ماتيو إلى أنه لا يوجد الآن أي طارئ كي يستعجل العودة، وأنه منشغل حالياً بتحضيرات الموسم، وقد يقلق والده فيما

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لو جاء بصورة فجائية، قد يفكر والده أن زيارته هي زيارة وداع، إذ ينبغي مراعاة مشاعره ومعنوياته، في تلك الأثناء، لم تستطع أوريللي السيطرة على نفسها لمدة أطول، وقالت له: إنه مجرد حقير، مقيت وأناني، وأعمى يأمل في أعماقه أن تشفع له تلك الصفات، لكنها لن تغفر له، وإن يكن، لأنها تختلف عن أمهما التي ما زالت ترى فيه الملاك الذي يجب الحفاظ عليه مهما كلف الثمن والذي يجب عدم مواجهته بفظاعة الوجود وكأنه هو من يجب الخوف عليه، كما لو أن مشاعره الحساسة الرقيقة، والتي تشكل على ما يبدو امتيازاً حصرياً له، قد تخلى عنها. مسؤولية تحمل أبسط الواجبات، وأقدسها، ولا تريد حتى التحدث عن الحب والرأفة، فهذه كلمات يعجز عن فهمها، هل كان يفهم على الأقل ما هي واجباته، هل كان يفهم أنه بإصراره على التخلي عن واجباته سيظل على الدوام كتلك الحثالة التي تحول لها في وقت قياسي وبمهارة مثالية تجبر على الإعجاب؟ كانت على أتم الاستعداد للاعتراف بذلك، ولا أحد سيقبل مساعدته لأن الوقت سيكون قد تأخر ولن ينفعه النحيب ولا رفاهية الندم، ستبقى ساهرة، شرط ألا يكون، قد أصبح متعفناً عن قصد ووعي لدرجة لا يشعر حتى في غواية رفاهية الندم، لكن إذا ما بقي في دواخله شيء من الأخ الذي أحبته، فسيجبر نفسه على فتح عينيه، الرؤية بوضوح، ولم تكن ترغب سماع الحديث عن اللاوعي، ولا العمى، ولا الحساسية، حتى وإن كانت تلك الأحاسيس رقيقة وجياشة، هناك أشياء مرعبة يجب مواجهتها، لأن هذا ما يفعله الرجال، ففي مثل هذه المواجهة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يتمكنون من إثبات إنسانيتهم، وكرامتهم، وسيدرك بأنه من المستحيل جذرياً وكلياً، ترك أبيه يموت من دون أن يتصدق عليه بزيارة واحدة، وإن تكن هذه الزيارة أقلّ لطافة ومثل كثير من الأعمال التي يقوم بها يومياً، والتي تشكل حياته الحقيرة، حياة لهو وجنس ورذيلة حيث يتمرغ على الأرض كما يتمرغ خنزير في نجاسته، عندما سيدرك ذلك، سيستقل الطائرة من دون أن ينتظر دقيقة واحدة، وهي خائفة جداً لاضطرارها إلى إقصائه من حياتها إذا ما سمعت الإجابة التي كان سيرد بها الآن، لأنها خائفة جداً أن تفقده إلى الأبد، إنها غبية، غبية لا يمكن تقويتها، فضّلت ألا تسمع إجابته، وها هي تغلق الهاتف في وجهه. ذهبت لتلتحق بكلودي. وهي لا تزال ترتجف من غيظها.

- تكلمت مع ابنك على الهاتف. كان عليك أن....

نظرت إليها كلودي، ضائعة تماماً ومستسلمة، وفكرت أوريللي أنها محقة عندما لم تدعه يكمل جملته التي أملتها عليها تلك الجهة السوداء من قلبها، والتي توقفت عن مقاومتها حينما ذهبت لتختلي بالرجل الذي شارك وسيشارك حياتها للمرة الأخيرة. اختبأت وراء أسوارها الزجاجية، رافضة أن تشاركه في هذه الليلة الأخيرة، جسدها وغضبها وحتى ألمها. سألها ماسينيسا غورما عن رحلتها في عنابة، وفيما لو تحسّنت أحوال والدها، فأجابته بأن كل شيء على ما يرام، لكن حينما اصطحبها إلى صحراء الفندق الحكومي الشاسع والصامت، استدركت أمام موجة الحزن التي غمرتها، ثم هزّت رأسها،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كلا، لم تمر الأشياء على خير، لقد اعتقدت أن أباها كان يحتضر أمام عينيها، وأنه لم يعد يقوى على الكلام وأنه تمسك بمعصمها بكل قواه كي لا تبتلعه الرمال المتحركة التي كانت قد ملأت فمه، والتي كانت تخنقه، وهي غير قادرة على فعل أي شيء، لأن المرء يواجه موته وحدَه، كم نحن ضعفاء أمام الموت! وأمام هذا الضعف لم تكن لديها إلا رغبة الهروب، لاشيء سوى الهروب،، استبدت بها رغبة أن يترك والدها معصمها لتهرب ويتوقف عن إجبارها على مواجهة هذه الوحدة التي لا يفهمها الأحياء، وخلال فترة طويلة، لم تعد تشعر لا بالشفقة ولا بالألم، بل فقط بالهلع والذعر والذي ترتعب من انتظاره الآن، وقال لها ماسينيسا:

- لا أستطيع أن أتركك بهذه الحالة.

واستدارت نحوه، وحلقها جاف، أصبح فجأة دافئاً وحيّاً، قالت له بصوت متسلط، من دون أن تخفض عينيها:

ـ لا تتركني إذاً. لا تتركني.

وارتمت على عنقه، من دون تفكير، وشعرت بارتياح كبير بذراعي ماسينيسا تحتضنانها. استيقظ قبل الفجر لكي لا يراه أي عضو من الفريق، ولا عامل الفندق وهو يعود إلى غرفته. انتظرت أوريللي بزوغ النهار. استحمت، وبقيت ممدّدة في الماء المصفرّ طويلاً، من دون أن تفكر بشيء، وقامت مسرعة للاتصال بالرجل الذي ستتركه. لم يكن يرغب في تصديقها، طالباً منها شرحاً، وبإلحاح لأنه

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كان يريد شرحاً. فأعلنت له أوريللي ببرودة أعصاب أنها قابلت رجلاً آخر، لكن هذا الإعلان أثار أسئلة أخرى، أين؟ من؟ منذ متى؟ فقالت أوريللي لا جدوى من تلك الأسئلة لأنه في حقيقة الأمر هذه العلاقة الجديدة لا صلة لها بقراراتها في ذلك الحين، إذ يجب عليه أن يفهم ذلك، لكنه أصرّ وفي نهاية الأمر، قالت له:

ـ مساء أمس. منذ مساء أمس.

لم يسكت، ها قد امتزج صوته بالبكاء، لماذا قالت له ذلك بهذه السرعة؟ لماذا لم تنتظر؟ كان بإمكانها أن تكون تلك علاقة عابرة، ويمكن أن لا يكتشفها، ولا يدري عنها شيئاً، ليس بإمكانها التأكد تماماً مما تقوم به، والآن لم يعد الأمر قابلاً للإصلاح، لماذا اعترفت بشيء قد يكون لا قيمة له، لماذا كانت قاسية لهذا الحد؟ فكرت أوريللي بأن عليها أن تقول له الحقيقة.

ـ لأن ذلك ما أريده: أريد أن تكون علاقتنا غير قابلة للإصلاح.

* * *

كانوا قد رافقوا جافينا بينتوس، قبل ساعتين من الفجر، إلى قداس جنائزي في يوم الخميس المقدس. ظلوا واقفين طوال الليل في الحانة، حتى لا يضطرّوا للاستيقاظ، كانوا قد غسلوا أسنانهم في حوض الطبخ في البار، وها هم يمضغون الآن علكة بطعم النعناع الطازج كي لا تربك أنفاسهم الطافحة بالكحول قدسية ليلة الحداد

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تلك. بالنسبة لعيد الفصح يوم الاثنين، كانوا قد خططوا لتنظيم وجبة في الهواء الطلق أمام الحانة، مع عزف الموسيقى، وخططوا أن يرحلوا في اليوم التالي. سيرافق ليبيرو ماتيو إلى باريس، لزيارة أبيه وسينتهزان الفرصة لقضاء العطلة لبضعة أيام في برشلونة، كانا قد حجزا فندقاً، من دون أن يبخلا على نفسيهما في الصرف، فالإمكانية المالية متوفرة الآن لذلك، سيقومان بتأدية الواجب وفي الوقت نفسه، سيتمتعان بعطلتهما، ولن يشعر جام أنطونيتي أنهما سيأخذان إذناً من ميت من أجل قضاء عطلتهما. في ليلة قداس الخميس المقدس، تقدما وهما يمسكان بذراع جافينا بينتوس، ويحاولان الوقوف باعتدال، والرياح الرطبة تجمدهما، وتأثير الكحول أصبح أقل وضوحاً، وخلفهما كان بيير ـ إيمانويل كولونا يسير، مع أصدقاء منطقة كورت والذين رافقوه من أجل تأدية القداس قبل أن يحيوا معه وبصخب حفل الاثنين، وحاولا أيضاً أن يستفيقا من السكر بسرعة. الكنيسة مليئة بالمصلين الغافين أثناء انقطاع التيار الكهربائي. والضوء الوحيد يشع آتياً من الشموع المضاءة أمام المذبح. رائحة البخور ذكّرت ماتيو بايزاسكون. وعمل إشارة الصليب وهو يحبس رغبته في الفواق. استقر بيير إيمانويل وأصدقاؤه في ركن من صدر الكنيسة، ونص المزمور في أيديهم. كانوا ينشدون بصوت عال ويتكلمون بينهم بهمس في الآذان، وهم يترنحون. أعلن القس بأنه من أجل خلاص العالم، ستعّم الظلمات العالم قريباً، وهو يستعد

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لطلب الرحمة والمغفرة باكيا من مخلصه، في حديقة جيثسيماني[1]. واصلوا إنشاد المزمور الأول.

«خيمته في ساليم ومنزله في صهيون».

أصواتهم الجلية ملأت الكنيسة بشكل رائع. ظهر على وجه بيير ـ إيمانويل ارتياح واضح، أغلق عينيه ليركّز على نشيده، ثم تقدم وأطفأ القس شمعة. سمع قرع النواقيس ودبيب الأقدام التي تضرب على خشبة المذبح[2]، كشهادة عن نهاية العالم، الذي يغرق في الظلمات.

«اهتّزت الأرض مع كل ساكنيها»

وها هي جافينا بنتيوس ترفع الآن الصليب نحو عيونها التي تشبه عيون فتاة صغيرة خائفة، وفي الصف الأول، يبرم فيرجيل أورديني بعصبية قبعته بين يديه، كما لو أن القرية بكاملها سيتم ابتلاعها بشكل حقيقي، دقّات النواقيس اختلطت الآن مع صرير أساسات الكنيسة المترنحة، واهتّز حجر الكنيسة إلى أن توقفت الأصوات المتنافرة والصخب وارتفع النشيد من جديد.

---

(١) Gethsemani جيثسيماني: في العهد الجديد، حديقة شرقية بالقرب من القدس بجوار جبل الزيتون، وهو المشهد الذي كان يظهر فيه معاناة المسيح وخيانته. وفي إنجيل مرقس (١٤: ٣٢-٤٣) وكذلك أنجيل لوقا (٢٢: ٢٩ ـ ٤٧) أن المسيح ألقي القبض عليه في ضيعة اسمها (جيثسيماني).

(٢) مَرْكَع وهو كرْسيّ خَفيض ذو مَسنَد للذّراعين يُستعمل للصّلاة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

«لتبتهج العظام التي سحقتها»

وأطفأ القس الشموع الواحدة بعد الأخرى. ولم يتبق أخيراً سوى شعلة واحدة ترتعش، جافينا بنتيوس أمسك بيد ابنه الذي حبس تفوهه خشية تدنيس قداسة الاحتفال. وتمنى ماتيو ألا تكون نهاية العالم مرهقة لهذا الحد، شعر بالبرد والنعاس، في شراشف مجاورة، جسد ايزاسكون يشّع حرارة بدون فائدة، رفع القس جيباً نحاسياً طويلاً وساد الظلام كلياً.

«ستعلو قوى الحق».

واصل القس كلامه في الظلمة، وقال إن المسيحي لا يخشى الظلمات التي يتكلم عنها في هذه اللحظة لأنه يعرف أنها لا تعني انتصار العدم، والضوء الذي انطفأ لم يكن سوى ضوء البشر، وساد الظلام من أجل أن يتمكن النور الإلهي من الظهور لأن الظلمات هي مهدها، مثل أضحية الخروف التي أعلنت عودة الابن إلى الحياة في مجد الأب، كلمة الرب الخالدة، أصل كل شيء، فالظلام ليس هو الموت، لأنه لا يحمل فقط شهادة على النهاية بل أيضاً على بداية النور لأنه في الحقيقة هي الشهادة الوحيدة ذاتها. وتسرب ضوء الفجر الأبيض من تحت الأبواب الموصدة. بعد أن باركهم، حرّر القس رعاياه حيث إن جزءاً كبيراً منهم تسارع إلى الحانة من أجل تفريغ انفعالاتهم واستئناف حياتهم. جهّز ليبيرو القهوة ووضع

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

قنينة ويسكي على البار للذين شعروا منهم بانفعالات قوية جداً. أبدى بيير ـ إيمانويل قلقه نحو نوعية عرض الليلة، بينما أكد ليبيرو أن العرض كان جيداً، رغم أنه وجب الاعتراف به، كانت الأناشيد وتعدد الأصوات والنغمات تثير إزعاجاً بشكل عام، من الصعب تحمّله بجرعة عالية. فيرجيل اورديوني، والذي مدّ يداً خجولة نحو قنينة الويسكي بعد أن تناول القهوة، قال منتقداً:

ـ كانت الأناشيد جميلة! رائعة! إن ليبيرو لا يفقه شيئاً.

ربّت بيير ـ إيمانويل على كتفه ضاحكاً.

ـ وأنت؟ ماذا تفقه في الموضوع ؟

لم ينزعج فيرجيل، بدا وكأنه يفكر لحظة وقال:

ـ من المؤكد أنني لم أفهم شيئاً لكن الإنشاد كان جميلاً.

وتابعوا نقاشاً حيوياً حول تعدد الأصوات والنغمات والمهارات الموسيقية لكل واحد من العازفين، النواقيس، الشموع، الرهبان، اشتدت حيوية النقاش مع تقديم قنينة ويسكي أخرى، وعندما وصلت ايزاسكون وسارة في ساعة الافتتاح اضطرت أن تُخرج الجميع من الحانة تحت المطر الذي بدأ بالهطول. لكن بزغ يوم الاثنين على ربيع ساطع. وضع بيير ـ إيمانويل وأهالي كورت آلاتهم الموسيقية في الهواء الطلق وبدأوا بدوزنة نغمات آلاتهم. احتسى ماتيو كأساً من النبيذ، وردي اللون تحت الشمس ونظر إلى ايزاسكون، وهي

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ترّتب الطاولات، رفع كأسه باتجاهها ليشرب في نخبها. وأجابته بإيماءة صغيرة بيدها، بإشارة قبلة. وهي بالنسبة إليه، أخت لطيفة زنى بها زنا المحارم، نظر إلى أحد أهالي كورت يهمس بتفاهة في أذنها، وهي تضحك، لكنه لم يشعر بالغيرة، بل سخر مما يمكن أن تفعله مع هذا الشخص. كانت أخته، وليست زوجته، وستعود إليه لا محالة، لا أحد يستطيع أن يأخذ منه شيئاً، شعر بإحساس رهيب بالعلو والأفضلية وكأنه أصبح الآن في درجة عالية حيث لا يستطيع أحد الوصول إليه وإيذاءه. واندهش أن تكون سعادته إلى هذا الحد قوية حيث يصعب تدميرها. تابع شرب نبيذه تحت دفء شمس الربيع. في الغد، انطلق مع ليبيرو في رحلته. عهدا بالمفاتيح إلى بيرنارد غراتاس، قبّلا الفتيات ورحلا إلى أجاكسيو، وهما يلوحان بإشارة الوداع ويصرخان بصوت عالٍ:

ـ انتبهوا وكونوا عقلاء! حافظوا على المحل. إلى اللقاء الأسبوع المقبل.

كانا في طريقهما، يتحدثان، ويعرفان ما سوف يقومان به في برشلونة، فهما بحاجة للاسترخاء والراحة، ويستحقان ذلك، وصلا إلى كامبو ديللا أورو قبل ساعة ونصف من الموعد. جلسا في حانة المطار واحتسيا كؤوس البيرة، الأولى والثانية، ونضبت نقاشاتهما ببطء. وفي النهاية سكتا كلياً. تم استدعاء المسافرين الذاهبين إلى باريس إلى قاعة الانصراف للركوب في الطائرة، بينما بقيت نصف ساعة على الرحلة، فلا شيء يستوجب الاستعجال، فطلبا كأس بيرة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أخيرة. كان ماتيو ينظر إلى مدرج الطيران ويشعر بجفاف في حلقه. وبطنه تقرقر وتصدر أصواتاً مزعجة. أدرك فجأة أنه ومنذ شهور عديدة، لم يبتعد عن القرية أكثر من خمسة عشر كيلومتراً. وأجاكسيو تقع في أقصى العالم. لم يسبق له أن مكث في المكان نفسه لمدة طويلة كهذه. وبدا له الطيران إلى باريس فكرة مخيفة، ولا يريد حتى التفكير في ما سيقوله بشأن السفر إلى برشلونة، البعيدة جداً لدرجة أنها أصبحت غير واقعية، كأنها مكان مصنوع من الضباب والأساطير، أشبه ما يكون بكوكب المريخ في الأرض. أدرك ماتيو أن تخوفه مضحك لكنه لم يستطع مقاومته. نظر إلى ليبيرو الذي رمق كأسه، شاداً على أسنانه، لاحظ أنهما يتشاركان الخوف نفسه، لم يكونا آلهة، بل أنصاف آلهة، والعالم الذي خلقاه هو من أصبح الآن يتحكم بهما ويشدهما تحت سلطته الطاغية، وعلا صوت يعلن بإلحاح أن المسافرين ليبيرو بانتوس وماتيو أنطونيتي مطلوبان للالتحاق بالطائرة قبل إغلاق أبوابها، وتأكدا أن العالم الذي صنعاه لا يمكن أن يتركهما ليرحلا، فبقيا جالسين، وكان ذلك آخر نداء، وعندئذٍ أقلعت الطائرة. نهضا بصمت، وأخذا حقائبهما والتحقا بالعالم الذي ينتميان إليه.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

الفصل الخامس

«أين ستذهب خارج العالم؟»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

كان فجراً بازغاً بنوره المفاجئ يتلألأ ويسحر ذاكرة البشر، فتنحسِرُ ذكرياتهم الأليمة لتعود إلى الظلمات التي تجرفها معها. في أعالي قبّة القديس إسحاق، يمسك المسيح ذو القدرة الكلية[١] بين يديه الطويلتين البيضاوين قوس قذيفة لم تنفجر بعد سابحاً في الهواء مثل ريشة حمام. يجب العيش والتعجل في النسيان، يجب ترك النور يرسم محيط القبور. حول دير مونت ـ كاسان، انبثقت الجدائل الطويلة للمحاربين المغاربة كأزهار غرائبية تنبثق من الأرض تداعب بحنان نسائم الصيف العليلة، على طول شواطئ ليتوانيا، أمواج البلطيك الرمادية صقلت عظام الأطفال المطمورين في الرمال لصياغة حلي غريبة من كهرمان مُتحجر في الغابة المشمسة، من حيث لن تعود سولاميث[٢] نحو الملك الذي يناديها عبثاً، يسرق غبار اللقاح من شعرها المكسو بالرماد، والأرض المزهرة مشبعة

(١) Pantocrator لقب يطلق على الإله زيوس. وعند اليونانيين أحد أسماء الآلهة في القدس.

(٢) Sulamith سولاميث أحد المهرجانات التي يحتفل بها اليهود، وذلك من خلال التركيز على الفتاة التي تمثل الأخلاق والجمال والنقاء والطهارة والروح الصافية والإيمان المضيء في آن واحد كما في أساطيرهم.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بنسيج أجساد ممزقة، إنها مليئة بالجثث وتستلقي بكامل ثقلها على قوس أكتافهم المحطّمة لكن الفجر المتلألئ قد بزغ، وفي لمعان نوره، لم تعد الجثث المنسية سوى تربة خصبة في عالم جديد. كيف سيحتفظ مارسيل بذاكرة الموتى في الوقت الذي فتح فيه هذا العالم ولأول مرة أمامه منظور خطوط دروبه المضيئة؟ بعد مدة حمل طويلة للحرب، تم استدعاء جميع الأحياء إلى أداء المهمة المثيرة لإعادة البناء وكان مارسيل واحداً منهم، وقد أصابه دوار أمام الإمكانات اللانهائية، مبدياً استعداداً للمشي قدماً على الدرب، وكانت عيناه مجروحتين من كثرة الضياء، وكان متوجهاً كله نحو المستقبل الذي أزال أخيراً الموت كلياً. اختار العالم الجديد موظفيه كي يبعث بهم إلى المستعمرات لجلب المواد الضرورية من أجل أن يقف منتصباً بقامته المتلهفة والمغرورة، وكانوا ينقبون ويجلبون من مناجم وأدغال وسهول كل ما تطلبه شراهته ونهمه. قبل أن يرحل إلى بلدان غرب أفريقيا الفرانكفونية، حيث تجري أنهار الجنوب، فكر مارسيل أن كرامته تحتم عليه كمقبل على ممارسة الوظيفة أن يختار زوجة، في القرية فتيات كثيرات جاهزات للزواج لذا طلب مارسيل من أخيه، الذي كان ينتظر بدون عمل، أن يتم استدعاؤه إلى الهند الصينية، أن يقوم بتحرّ بسيط وسري عن عائلاتهن من أجل أن يعرف أي واحدة منهن ستبدي استعداداً للارتباط به. جاء جان - باتيست في اليوم التالي ليشاركه في نجاح مهمته، ملمحاً إلى أن حماسه المفرط قد افسد عليه، للأسف الشديد، فكرة سرّية الموضوع.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بدأ تحرياته في حانة بنقاش مع الأخ الأكبر لفتاة شابة من عائلة عريقة. وقد تبادلا التعاطف الكبير نفسه بسرعة، لدرجة أنهما أفرطا في السكر سوياً وعانقا بعضهما البعض عندما قرر جان ـ باتيست فجأة وبدون مقدمات، طلب يد أخته رسمياً منه نيابة عن مارسيل، كان الأخ في وضع مربك، وفي خضم ابتهاجه، تعجّل برفقة جان ـ باتيست الذي كان في قمة حماسه لإعلان الخبر الطيب لوالديه.

لم يكن وارداً إبداء أي إهانة للناس وتعليل الموضوع برمته بسوء فهم، لأنه من الممكن أن تولد الإهانة عنفاً عند تلك العائلة، فاستسلم مارسيل للأمر ووافق على تقبل العروس الشابة التي قدمها من خلال مصير أخيه وروحه الاجتماعية المفرطة معاً. كانت في السابعة عشرة من عمرها وتتمتع بجمال خجول، الشيء الذي واسى مارسيل في اختياره إلى أن أدرك، بعد تبادل بعض الأحاديث، أن زوجته كانت على درجة كبيرة من الغباء شبه الملائكي لأنها كانت تندهش أمام كل شيء وتلقي على زوجها نظرات إعجاب ولهانة بحيث إن مارسيل كان يترنح بين الغبطة والانزعاج عندما كانت السفينة التي تقلّهما إلى أفريقيا تمر تحت صخرة جبل طارق وتشقّ مياه الأطلسي. بينما كانت تتكئ على حاجز السفينة، وهي تطلق براءتها البريئة إلى الرياح المجهولة وتتذوّق بطرف لسانها ملح الرذاذ البارد، والذي كان يضحكها ويجعلها ترتعش بقوة لدرجة أنها ارتمت فجأة في أحضان مارسيل الذي لم يعرف ما إذا كان عليه توبيخها لكونها تصرفت بهذا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الشكل، وجعلت منهما فرجة أمام الملأ، أو كان عليه أن يشكرها على تصرفها الطفولي، تردد للحظة، شاعراً بالخجل والارتباك، لكنه كان دائماً ما ينتهي به المآل إلى ضمها إليه بين ذراعيه بكل قواه، من دون خوف أو تقزز، لأن جسدها كان دافئاً وشبه شفاف يشبه الملاك قبل السقوط، انبثقت بأعجوبة من عهد لا يزال يجهل إلى الآن عفن الخطيئة والوباء. عبر نافذة السفينة، أصبحت الشواطئ البعيدة متوحشة شيئاً فشيئاً، جذوع أشجار كبيرة ملتوية، تنحني على المياه، وفي مصبّ الأنهار الفسيحة التي ترسم على مياه المحيط الخضراء زخارف طويلة من طين، أصبحت الحرارة خانقة، أمضى مارسيل كل أيامه تقريباً في قمرية السفينة، في السرير مع زوجته، يتركها تستند على ركبتيها كي تقابل وجهه، ويداها مبسوطتان على الحاجز، لاهثة وضاحكة خلف شعرها المبعثر، يتركها تنظر إليه وتمرر يديها عليه بفضول تلميذة، عاقدة الحاجبين تلامس كل جزء من جسده وكأنها تريد أن تتأكد من أنه ليس شبحاً قد يتلاشى في الضياء قريباً، تركها تفعل ما تريد وهي عارية، من دون حياء متربعة على طرف السرير، زاحفاً نحوها ليضع رأسه على فخذيها ويغفو لحظة، متحرراً من عاهرة مرسيليا لأن لمسات زوجته الشابة ومداعباتها استخرجت من عروقه آخر قطرات ذلك السمّ الخبيث الذي أصابه، وها هو أصبح لا يهاب شيئاً. توقف الجسد أن يكون بؤرة قيح وقروح تراقب أعماقها شياطين شريرة، وبإمكان مارسيل أن يصبح سعيداً للغاية لو أنه لا يضطر للظهور برفقة زوجته على مائدة الغداء، خائفاً على الدوام من

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أن يطرح عليه أحدهم سؤالاً بسيطاً، وأن تجيب زوجته بغباء لدرجة أن كل الجالسين على المائدة يظهرون بلا حراك أو أن تختار عدم الإجابة، فاغرة فمها من شدة التعجب لبرهة، ثم تخفض عينيها على الطاولة وتنكب على الأكل بشراهة، كان يشعر بالحرج دائماً عندما تتحدث معه أمام الملأ، يشعر بالخجل عندما تخاطبه بالكورسيكية، هذه اللهجة السخيفة التي لم يتمكن من طرد رناتها البغيضة عن أذنه، لكنه في الوقت نفسه، يبدو مرتاحا لأنه لم يفهم أحد ما كانت تقوله، وهو ينتظر بفارغ الصبر تلك اللحظة حيث يتمكن من غلق الباب على حياة حميمية، وحيدة، تجعله يتحمل كل الضغائن والعذابات. باشر كمحرر في مكاتب الإدارة الرئيسية في مدينة أفريقية كبيرة، تشبه ركاماً من أكواخ القصدير والطين، مدينة بعيدة كل البعد عن تلك التي يمكن أن يحلم بها لأن العالم لا يزال يلحّ على مناوأة أحلامه، ولو أنها أصبحت شيئاً ملموساً في تلك اللحظة.

في الشوارع، الروائح عنيفة وحادة لدرجة أن الثمار الناضجة والزهور بدت تهيج عذوبة العفن السامة، وكثيراً ما حبس الغثيان، وهو يتسكع ببدلته المحترمة المنسوجة من الكتّان وسط الرجال والقطيع، يطفو بينهم أريج أجساد غرائبية وهمجية، تحملها تجاعيد أقمشة ملونة، على مقربة من أهل البلد، تثير اشمئزازه أكثر وأكثر كل يوم، لم يأتِ هنا كي يحمل لهم حضارة لم يعرفها حتى هو إلا عن بعد، وعن طريق ما يصله من أخبار أسياده لكنه أتى لتسديد

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

دين قديم استحق دفعه منذ زمن طويل، جاء ليعيش الحياة التي يستحقها، والتي طالما هربت من أحضانه. لم يضع آماله في الرّب ولكن في قوانين الوظيفة العمومية حيث زف الخبر السّار إلى جميع أبناء الجمهورية، إنه بدون المرور من مقاعد المدرسة الاستعمارية، بإمكانه الترقي اللامحدود وبدون قيود في الهرم الوظيفي، هكذا سيتمكن من الترقي ليستخرج نفسه من تلك الأنصال التي لم يتركها نهائياً عند ولادته. عمل على تحضير امتحانات المباراة وفي الوقت نفسه، عمل على التخلص شخصياً من ندبات ماضيه البشع، وضعية جسده، طريقة مشيته، ولكنته حيث أجبر نفسه على أن يجعل كلامه شفافاً وخفيضاً بدون نبرة، كما لو أنه ترعرع في مكان راق مثل قصر تورين، يتظاهر بلفظ اسم عائلته مشدداً نطق المقطع اللفظي الأخير، حرص على النطق الصحيح لمخارج الحروف، ولكن خيبة أمله أتت من حرف «الراء"، حيث استسلم لمواصلة نطقه بالطريقة نفسها، لأنه عندما يحاول لثغ الراء، لا يتمكن من ذلك، ولا يستطيع إلا إصدار صوت بائس لحشرجة في بلعومه، تشبه مواء هّر سنّور أو أنيناً أجش لشخص يحتضر.

كتبت جين - ماري تخبره عن رحيل أندريه ديغورس إلى الهند الصينية لينضم إلى القوات المظلية، أسرت له عن مخاوفها، عن سعادة ولادة طفلتها الصغيرة، وأعطته تقريراً دقيقاً عن تدهور صحة والديهما، وكل رسالة من رسائلها تعيده إلى الخطيئة التي لا تُغتفر،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

والتي تعود لبدايته، ولو أنه أصبح يشعر الآن براحة في المكاتب كما في حفلات العشاء للعمل، التي كان يحضرها وحدَه خشية أن يفسد حضور زوجته تلك الجمالية الواهية التي لم يكد ينتزعها من نفسه، وهي تنتظره في البيت، مصونة في قلعة براءتها السعيدة، مبتهجة وثابتة. رفضت أن تتعلم أي شيء، تتشبث بعناد الحديث بالكورسيكية ومساعدة الخادمة الأفريقية من الأصول المالنكية[1] في الأعمال المنزلية، رغم توبيخ مارسيل الذي كانت تسكته بوابل من القبلات والمداعبات ثم تقوم بنزع ملابسه، وهو لا يزال واقفاً قبل أن تقوده وتسحبه إلى السرير، يحرك ذراعيه بخفة برمز الصليب في صلاة سريعة بينما تقوم بإسدال ستائر الناموسية عليهما. كان ينظر إليها، ثم ينفث الهواء على نهديها المبلّلين بهدوء، ويقبلّها في ثنية الفخذ، على الفم، على جانب الأنف، على الحواجب، وقد فوجئ ذات يوم باستدارة بطنها المنتفخ الذي يرتاح إليه. قالت له إن وزنها قد زاد في الأيام الأخيرة، وإن فساتينها أصبحت ضيقة عليها شيئاً ما، فهي تعرف أنها تأكل بنهم، فسألها بخجل إلى أي تاريخ يعود آخر دورة من عاداتها الشهرية لكنها لم تكن تعرف ذلك، لم تنتبه للتواريخ، فضمها إليه، وأخذها بين ذراعيه ورفعها كلها بسذاجتها الملائكية، بضحكاتها وصدى لهجتها الهمجية التي لم يعد يرغب

(١) malinke مالنكي ويطلق عليهم أيضاً: ماننكا، ماندينكا، ماندينغو، أو ماندنغ، وهم شعب غرب أفريقيا يسكنون في أجزاء من غينيا وساحل العاج ومالي وسينيغال وغامبيا.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بها، والتي هي لغتها أيضاً، وترك العنان لفرحة بليدة وابتهاج حيواني غير مبال كثيراً، إذا هو فهم تلك الفرحة لأنها فرحته التي لا تستوجب الفهم، ولا تطالب حتى بوجوب إيجاد معنى لها. كانت حاملاً في الشهر السادس عندما اجتاز مارسيل مسابقة داخلية بنجاح، وتمت ترقيته من خلالها إلى مسؤول في إدارة صغيرة في إقليم ناء، تابعة للمستعمرات الفرنسية.

هكذا أصبح إذاً رئيساً لمنطقة شاسعة جداً، مكتظة بالرطوبة والحشرات والعبيد السود والنباتات الضارة والحيوانات المتوحشة. كان العلم الفرنسي يتدلى من سارية مثل أسمالٍ مبلّلة على زخارف واجهة منزله، على مبعدة قصيرة من قرية صفيح بائسة مبنية على ضفاف نهر من الوحل، حيث يقود الأطفال على ضفافه كتائب عجائز عميان، متشبثين بحبل، ويمرون متتابعين تحت سماء بيضاء تشبه بياض عيونهم الميتة. من جيرانه، هناك دركي يميل لشرب الخمر أكثر فأكثر، وطبيب مدمن في الأصل، ومبشر يردد القداس باللغة اللاتينية أمام نسوة عاريات الصدر، طامحاً إلى إغواء جمهور معاند بترديد تاريخ الرّب الذي كان إنساناً قبل أن يموت عبداً من أجل خلاص البشرية جمعاء. بذل مارسيل جهوداً برفقتهم من أجل أن لا تخمد شعلة الحضارة، ويعتبرون بمثابة حراسها الطاهرين الوحيدين، وتقدم لهم وجبات العشاء بواسطة صبيان يرتدون بدل كبار الخدم، يضعون آواني لامعة على شراشف بيضاء مكوية بعناية

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

شديدة. سمح لزوجته، بجسمها المنتفخ وضحكتها أن تجلس معهم حول المائدة لأنه علم أنه في خضم تلك المسرحية الهزلية التي يدري أنها تلعب حوله من خلال هؤلاء الكومبارس المساكين، والنفاق الاجتماعي، والأعمال الخرقاء والسخيفة، كل تلك الكوميديا لا تعني شيئاً له، وهو الآن لا يريد أن يحرم نفسه باسم كل تلك السخافات من مصدر بهجته الوحيد الآن، بدونها ستكون مرارة نجاحه الاجتماعي أمراً غير محتمل له، وسيفضل ألف مرة أن يكون العاشر أو العشرين في الحكم في روما على أن يكون على رأس مملكة همجية على تخوم الإمبراطورية، لكن لا أحد قدم له هذا البديل أبداً لأن روما لم تعد موجودة، لقد تم تدميرها منذ زمن بعيد، ولم تبق منها سوى ممالك همجية وبربرية، ومن المستحيل الهروب منها، لا يوجد خيار أمام من يسعى للهروب من بؤسها إلا أن يمارس سلطته العابثة على بشر أكثر بؤساً منه، كما يفعل الآن مارسيل بإلحاح قاس عديم الشفقة، تماماً كمن عرف البؤس والقهر، ولم يعد يتحمّل مشهدها المقزز، وهم لا يسأمون الانتقام من لحم هؤلاء الذين يشبهونهم كثيراً. ربما أن كل عالم ما هو إلا انعكاس مشوّه لكل عوالم الآخرين، مرآة بعيدة تبدو فيها القاذورات تلمع وكأنها ألماس، ربما لا يوجد هناك إلا عالم واحد، لا يمكن الفرار خارجه أبداً لأن خطوطه الوهمية تتلاقى كلها هنا في هذا المكان، بجوار السرير حيث تحتضر زوجة مارسيل الشابة، مرّ أسبوع بعد أن أنجبت ابنهما جاك. في البداية اشتكت من آلام في البطن ثم الحمى المرتفعة. في

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

غضون أيام، استحال توفير المضاد الحيوي، لذا حاول الطبيب التركيز على معالجة الالتهاب داخل دمّلة الخُراج. رفع الشرشف المبلل، وانحنى على الشابة المريضة، ورفعت قميص نومها من ساقيها، انحنى مارسيل بدوره، فاشتم الرائحة الساخنة لشراب الويسكي في أنفاس الطبيب ورأى يديه المرتعشتين، تغرز إبرة في فخذ زوجته كي يحقنها بدواء «نوتيزين»، حقنة لم تترك سوى نقطة حمراء صغيرة على الجلد، والتي لم يفارقها نظر مارسيل خلال أيام وليال بأكملها، راصداً اللحظة التي ستقوم فيها عروق جسد زوجته بتصريف السّم الذي يقتلها، وهو يترجاها أن تصارع وتقاوم وكأنها تملك بسحر الإرادة فقط، قوة إجبار جسدها المنهك أن ينقذها، لكن جلد فخذها الأبيض بقي سليماً ومرناً بشكل فظيع، لم تتكون فيه أي دمّلة خُراج أبداً، وعرف مارسيل أنها ستموت، وكان يأمل، وهو يقبّل جبهتها الملتهبة، أنّها على الأقل، لن تعرف ذلك أبداً، كان يأمل أن يحميها غباؤها الملائكي إلى النهاية لكنه أخطأ، لأن الغباء لا يحمي، حتى من اليأس، وهي تبكي، محمومة الجسد، وتطالب برضيعها، لتداعبه وتقبله، وتتشبث بعنق مارسيل وتردد: إنها أيضاً لا تريد أن تتركهما، وما زالت تريد أن تعيش، لكنها تغفو لفترة، ثم تستيقظ باكية من جديد، وخائفة من الليل، لا شيء يمكن أن يواسيها، ما زال مارسيل يضمها إليه بين ذراعيه عاجزاً عن اقتلاعها من التيار الذي يحملها بلا مقاومة نحو الليل الذي يخيفها، إنها مرهقة من شدة الارتعاش والدموع، فتترك نفسها للتيار الذي حملها

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ولفظها في نهاية الأمر، ساكنة وباردة في كفن شراشف كدرة ومنكمشة. شوّهت وجهها الآلام الفظيعة لكن مارسيل لا يرى فيه إلا وجه دمية من شمع، ولا يستطيع أن يتعرف فيه على تلك الشابة المرحة التي كان يحب فيها البراءة وعدم الحياء، وظل لفترة مغموراً، بأمل أن يعثر على ملجأ في النور حيث تسود النعومة والسلام شيئاً من زوجته الراحلة، ولو كان نفساً هزيلاً ورهيفاً منها، شبيهاً بروح خفيفة، ويترك هذا الجسد المتصلب، لكنه يعرف أن ذلك ليس حقيقياً، لم يتبق منها سوى شكل جثة، بدأت تنمحي، وفي تلك الأثناء وعند تلك الفكرة، أطلق العنان لدموعه كي تنساب. أثناء الدفن، فكر بعائلته التي لا تعلم شيئاً عن تلك الوفاة وعن حداده، تمنى لو أن أمه بجواره، فهي التي تعلم بأمور الموت، وفضّل أن تكون هي بجانبه أفضل من أن يكون بجواره ذلك الدركي، وذلك الطبيب الذي يترنح تحت المطر الاستوائي بينما صوت المبشّر الحزين يرتل آيات من المزامير فوق الحفرة الغارقة تحت المياه. ثم وضع الحجرة على القبر، بقي لحظة طويلة وحيداً، ثم عاد ليجد ابنه يرضع وعيناه مغلقتان من ثدي الخادمة الأفريقية الملانكية السوداء. إنه يكره هذا الرضيع ويكره هذا البلد، ويكن لهما كراهية لا توصف لأنهما اتحدا ليأخذا منه زوجته، رفض سماع الطبيب يشكو من نقص المضادات الحيوّية لأنه بحاجة إلى مذنبين ولا يكترث للحقيقة، كما لا يكترث للمنطق، وها هو فجأة يجد نفسه خائفاً من أن يقتلع هذا البلد الذي يكرهه ذلك الطفل المقيت، والذي لا يريد أن يفقده بدوره، حتى لو

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كان يلومه على مجيئه إلى الحياة بدلاً من استمراره في السديم، حيث لم يطلبه أحد ولم يرغب أحد في قدومه، وأقل فجوة متروكة بين ستائر الناموسية والمهد تجعل مارسيل في قلق مميت حيث يخاف العثور على ابنه تفترسه الحشرات الفظيعة التي تعيش في أعماق الليالي الأفريقية الخانقة، التي فيها تلتمع كثير من العيون الفسفورية الوامضة، أشياء كثيرة تتزاحم في ضجيج لا شكل له تكمن في جسد جاك، وتريد غرز أنيابها السامة فيه أو كي تضع عليه يرقاتها، وكان مارسيل يحدثه قلبه، بأنه لن يستطيع الدفاع عنه، كتب رسالة طويلة إلى جين - ماري: أختي العزيزة، لن أعرف كيف أدافع ضد أهوال هذه المناخات الفظيعة المفعمة بالحشرات، لا أريده أن يموت مثل أمه، لا أريد أن يكبر بدونها، اسمحي لجاك أن يعثر على أم، وأن يحصل على أخت برفقة صغيرتك كلودي، إنني أعي ما أطلبه منك، أرجوك، من أقصد إذ أنا لم أقصدك أنت، أنت التي لم تبخلي أبداً بحنانك ولم تتاجري قط به، عندما وافقت جين - ماري متأثرة، أخذ ينتظر العطلة كي يعود إلى فرنسا من أجل أن يسلمها إلى جاك. كان يبكي وهو وحيد في طريق العودة إلى أفريقيا، شاعراً بالذنب، وربما بالأسى، لم يكن يعرف، لكنه شعر في أعماق روحه بارتياح كبير وغريب حيث نجح في إنقاذ ابنه والخلاص منه دفعة واحدة. وعند عودته إلى جحيمه، استعاد جولاته الرتيبة في الأدغال، ماراً في القرى حيث ينتظرهم مصطفين حسب أحجامهم، أطفال بلداء يُوزع عليهم تواريخ ميلاد عشوائية من أجل تحديث سجلات نفوسهم،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وهو يدلي بأحكامه بإشارات مضنية مثل إله ساقط، مدوّناً بدقة تفاصيل الصراعات الخرقاء، والتي يسردها المشتكون اليائسون بلهجات أفريقية مختلفة بول، سوسو، ومانينكا، وبجميع لغات البؤس والهمجية التي لم يعد يتحمل سماع نبراتها، ورغم ذلك أجبر نفسه على الاستماع إلى الجمل كاملة من أجل أن يصدر أحكاماً منصفة، عدالة الأحكام وحدها تجعل الصمت الجميل يسود، ذلك الصمت الذي يصبو له، وأثناء جني القطن، كان يؤنب بقسوة المتفاوضين البلجيكيين الجشعين الذين يغشون في الميزان، رافضاً باحتقار اقتراحاتهم للرشوة، ليس لأنه يحرص على حقوق المزارعين السود، بل لأن نزاهته وأمانته أصبحتا تشكلان الجانب النبيل الوحيد في شخصه، وهو يمسك بحسابات تحصيل الضرائب بصرامة كبيرة، وفي آخر النهار، عندما يكون جالساً بجانب الطبيب، كان يتأسف لقرحة معدته التي لا تسمح له أن يسكرا سوياً من أجل الهروب من تهديدات الليل. كتبت له جين - ماري بأن جاك يكبر ويفكر فيه كثيراً، وأن لا أخبار لديها عن أندريه ديغورس بعد سقوط ديان بيان فو، لكنها كانت واثقة أن الرّب لن يكون بتلك القسوة كي يأخذ منها زوجها مرتين، كانت الإمبراطورية تنهار ببطء، كتبت جين - ماري تقول إن فيتنام قد حرّرت أندريه، إنني سعيدة جداً، جاك يفكر بك ويقبّلك، إنه يكبر بسرعة، سيرحل أندريه قريباً إلى الجزائر، ويغبط مارسيل حياة زوج أخته المليئة بالمغامرات، والتي تتناقض تماماً بفراغ حياته المؤلمة، لم يكن يرى أن الإمبراطورية تنهار، لم يسمع

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

حتى أزيز القصف الصامت لأسسها المزعزعة لأنَّ كل تركيزه كان على انهيار جسده الخاص، والتي لوثته أفريقيا رويداً رويداً بعفنها الصلب، ناظراً إلى قبر زوجته التي أورقت عليها نباتات كان يقوم بتقطيع أوصالها بضربات ساطور غاضبة، موقناً أنه سيلتحق بها قريباً لأن شيطان قرحة معدته، الذي تغذى على الرطوبة الملتهبة، أصبح يعذبه بقوة لا مثيل لها كأن حدسه الشيطاني سمح له أن يشعر أنه في الخارج، وسط نداوة الهواء الفاسد، هناك حلفاء كثر لا عدد لهم يرصدونه ليساعدوه على إنجاز هدمه البطيء ومارسيل يحتفظ بعينين مفتوحتين، يراقب الليل، ويسمع صرخات الضحايا، أجساد غافية ضالة تنزلق تحت الرمال بينما التماسيح تسحبهم ببطء نحو مدافنهم المائية، طقطقات فكوكهم المباغتة تهز كتلاً من طين ودم، وفي جسده المرتبك، أحس بأعضائه تهتز بثقل، وتفرك بعضها البعض، كي تشرع في دوران بطيء حول فلك الشيطان الذي يمدّ يده إلى أعماق بطنه، من دون حراك مثل شمس سوداء، زهور تدفع برؤوس براعمها في تجاويف، قصبات رئته وجذورها مثل أسلاك تجري في عروقه إلى أن تصل إلى أقصى أنامله، حروب رهيبة تتوالى في تلك المملكة الهمجية التي أصبح يمثلها جسده، بصيحات انتصاراتهم الوحشية، بصيحات المهزومين المغلوبين، شعب كامل من القتلة، وها هو مارسيل يمعّن في قيئه، في بوله، في غائطه، خائف أن يكتشف فيها عناقيد ذهبية من اليرقانات، والعناكب، والسلطعون، أو الثعابين، ثم ينتظر أن يموت وحيداً، متحولاً إلى عفن قبل حتى أن

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يموت. كان يكتب يوميات مرضه ويدوّن يومياً جميع العلامات، صعوبة التنفس، بقع حمراء غامضة على المرفق وفي ثنية الفخذ، إسهال وإمساك، وإزالة لون مقلقة لعضوه الذكري، حكة، عطش، يفكر بابنه الذي لن يراه أبداً، يفكر بزوجته الشابة، بفخذيها حول وجهه، وأصبح يرغب فيها بكل شغف، يدوّن كل شيء، هذيان، شهوة مؤلمة، ألم القضيب بعد الانتصاب، رغبة في مضاجعة الجثث، حنين إلى اللذة الجنسية قبل أن يقترب في الليل بهدوء من الخادمة الأفريقية الملانكية التي تنفض الغبار عن الأثاث في الصالة، ثم يرفع فستانها ويمسك بها دون أن ينطق بكلمة وذراعاه يضربان مثل جناحي طائر كبير متوحش منكب على جيفة ساكنة، ولم يستطع التوقف إلا بعد شعوره بخجل الانتشاء بعد أن رمته وراءها في آخر لحظة، مستندا إلى الجدار، وسرواله متدل على كعبيه وعيناه مغلقتان من شدة الرعب وقضيبه يهتز برجفات مقززة، فيما حاولت الخادمة توقيفها، وهي تنظفه مثلما تنظف طفلاً، بخرقة غطستها في ماء فاتر، استخدمتها بعد ذلك كي تمسح مستنقع المني الرمادي على البلاط. لكنه بقي حيّاً لأن القوى التي تنهكه هي قوى الحياة نفسها، وليس قوى الموت، حياة بدائية ومحدودة، تولّد على السواء الأزهار والطفيليات والدود، وحياة تنضح بإفرازات عضوية، وحتى الفكر ذاته ينضح من الدماغ الإنساني مثل جُرح يتقيّح، ليس هناك روح بل فقط سوائل تديرها قوانين آلية معقدة، خصبة، خرقاء، تحجرات صفراء تفرزها مرارة متكلّسة، صقيع وردي لدم متجمّد في الشرايين،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

عرق، ندم، نحيب ورغوة لعابه. ذات ليلة، سمع مارسيل ضوضاء على الشرفة، ضجّة كراسٍ تنقلب، طرقاً غير منتظم يقرع الباب، وعندما فتح الباب، وجد الطبيب مستنداً على إطاره، كان يرتجف من الحمّى، ويقول، ساعدني، أرجوك، لم أعد أبصر شيئاً، لقد أصبحت أعمى، ساعدني. وعندما رفع عينيه نحو مارسيل، لمح دوداً يتدفق من بين أجفانه ويسيل على خديه مثل الدموع. أجلسه مارسيل على سريره الخاص طيلة الأيام العشرة التي استمر فيها علاج المرض «لواس»[1]، سمعه ينوح ويتألم كلما لمست الشراشف الكدمات المؤلمة في الفخذين والذراعين المشوهين، ساعده على تحمل تأثيرات دواء النوتزين بآلامه الفظيعة[2] رغم الأهوال التي كان يوحيها إليه هذا الجسد من شدة الإفراط في الحياة، جعلته يتورّم وينتفخ مهدداً بالانفجار في أيّ لحظة، بحكة شديدة، دامِلُهُ المقيحة والتي فجرتها ديدان متفسخة تحت الجلد، وعيناه الحمراوان المنتفختان، والعمياوان، مثل الجنين. عندما تعافى الطبيب، شعر مارسيل بارتياح لمغادرته. طلب من الخادمة أن تطّهّر البيت بكامله لكي يستعيد العالم النقي والمعقم والذي يفرضه عليه قلقه من أجل

---

(١) Loase علاج «لواس»: هو علاج يستخدم في الغابات القارية في أفريقيا الوسطى، النيجر الكاميرون الغابون والكونغو وأنغولا، و«لواس» هو مرض ينتقل من خلال لسعات الحشرات.

(٢) notezine نوتيزين يستخدم هذا الدواء في معالجة لسعات الدود والحشرات، وهو يشبه المخدر ويثير الألم عند العلاج.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أن ينمو ويترعرع، ويغسل يديه بمادة الكحول، ويحكّ أسفل أظفاره حتى يسيل منها الدم، ويسجل العلامات، والأورام الحديثة، تعفن في الدم، مرض عصبي، بالرغم من أن المرض الوحيد الذي كان يعاني منه هو العزلة الفظيعة والتي كان يسعى إلى كسرها بإرسال رسائل يومية إلى صهره في الجزائر، كان يشعر أن عليه إخباره بموته القريب والمحتوم، فاتحاً قلبه بدون تحفظ من أجل إعادة ربط علاقة إنسانية أو على الأقل استهلالها، ولو أن المحاور الوحيد الذي اختاره والذي كرس له إعجاباً متحمّساً ومتعصباً لم يجبه قط لأنه، في أعماق الأقبية الجزائرية، كان الكابتن أندريه ديغورس، معزولاً وبدون صوت، كان يغوص ببطء في هاوية عزلته الخاصة، رفيقه الوحيد هي يداه الملطختان بالدم. رجع مارسيل إلى القرية لدفن والده، ثم والدته، لم يبكهما لأن الموت قدرهما ومصيرهما، بل هو شبه سعيد لأنهما في النهاية لبّيا نداء كانا قد تظاهرا بعدم سماعه منذ زمن طويل. رأى أخاه وأخته الكبيرين اللذين لم يتعرف عليهما: جان - باتيست وجين - ماري، وابنه الذي لم يتجرأ على ضمّه إلى أحضانه، والذي لم يبد أيّ رغبة فيه بالمرة. سأله: هل هو بخير؟ فأجابه جاك: بنعم. وقال له كذلك بأنه يعيش بعيداً عنه لكنه يحبه كثيراً، ومن جديد أجاب جاك، بنعم ثم سكتا سوياً حتى لحظة رحيل مارسيل إلى أفريقيا حيث تنتظره ترقية وظيفية ليصبح حاكم الدائرة. ترخص من الطبيب والمبشّر ومن رجال الدرك، الذين كانوا رفاقاً شفافين لسنوات طويلة عابثة، ثم رحل، برفقة الخادمة، حاملاً معه

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

رفات زوجته التي دفنها بالقرب من منزله الجديد. بعد مرور ستة أشهر، ودون أن ينتبه مارسيل إلى أي شيء، اختفت الإمبراطورية. هل هكذا تموت الإمبراطوريات، حتى دون أن تحدث أدنى ارتعاش؟ لم يحدث شيء، لم تعد هناك إمبراطورية، ومارسيل يعرف، وهو يستقر في مكتبه في وزارة باريسية، أن نفس الشيء يسري على حياته الخاصة حيث لا شيء يحدث على الإطلاق. جميع الدروب المضاءة انطفأ نورها، الواحد تلو الآخر، المقدم أندريه ديغورس، بعد هزيمته الأخيرة، عاد إلى أحضان زوجته باحثاً عن الثواب والغفران اللذين لم يمنحهما لها قط، وها هم الرجال يتساقطون ببطء تحت جاذبية بلدهم المندحر. اختفى الأمل من الزمن، وها هو يمضي فارغاً وبدون أثر، على إيقاع مراسم دفن تنادي مارسيل للالتحاق إلى القرية كما لو أن مهمته الوحيدة والثابتة الآن في هذا العالم هي أن يحمل أفراد عائلته إلى الأرض، الواحد تلو الآخر، زوجته ترقد الآن في كورسيكا، لكنها ماتت منذ وقت طويل وهو يخشى أن يكون قد نقل إلى القبر قطعاً من خشب يابس مكسو بالصلصال، ماتت أخواته الكبريات، الواحدة تلو الأخرى، في التسلسل نفسه الذي حتمته حكمة سجلات النفوس، في باريس، أصبحت العزلة لا طعم لها بالتدريج، الرذاذ القارس طرد الحشرات التي تضع بيوضها تحت جلد الأجفان الرقيقة والشفافة تحت أشعة الشمس البيضاء، وأقفلت فكي التماسيح، لقد انتهت الصراعات الملحمية، يجب الآن الاكتفاء بالأعداء الحقراء، الزكام، والروماتزم، والوهن، تيارات الهواء في الشقة الكبيرة في

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الحي الثامن حيث رفض جاك العيش معه، دون رغبة منه في توضيح السبب لأنه لا يستطيع أن يعترف أنه يمتلئ حباً ملتهباً ودنيئاً إلى التي اعتبرها مثل أخته. جاك في الخامسة عشرة من عمره، وكلودي في السابعة عشرة، وجين - ماري تذرف دموعاً حارّة، وهي تسرد أنها باغتتهما وهما عاريان يحضنان بعضهما في الغرفة التي شهدت على طفولتهما، كانت تلوم نفسها على سذاجتها، وعدم بصيرتها المذنبة. كانت تعرف أنهما يتحابان بوّد، تخيلته ناعماً وأخوياً، وكم كانا يعذبان من فراقهما، دون أن ترى في ذلك أي سوء، بل على العكس، تجده مؤثراً، يالحماقتها وهي ترضع بثدييها حيوانين شبقين، كل ذلك بسبب خطئها، وتفضل أن لا تعرف متى بدأت تلك الكارثة، حتى أنهما ليسا خجولين من عارهما، انتصبت كلودي أمامها، عارية ودبقة وندية، وهو رمقها بنظرة تحدّ لم يتمكن أي شيء من جعلها تحني قامتها، لا التوبيخ، ولا الضرب، فقد تم إرسال جاك إلى أحد الملاجئ الكاثوليكية. وكلودي لم تعد تكلم والديها، قالت إنها تكرههما، لم يستطع الزمن أن يغيّر قرارها في مواصلة عشقها الممنوع، لقد تمت مصادرة رسالة سافلة وسرية لهما، لم ترحم كلودي أحداً منهما، ولسنوات طوال فرضت عليهما يومياً دموعها وصرخاتها الهستيرية وصمتها، وجاك هرب من الملجأ، حيث أعيد قهراً لإجباره عبثاً على إعلان توبته إلى أن لوّح الجنرال المتقاعد أندريه ديغورس، الذي عرف هزائم كثيرة في حياته تعوزه الهزيمة، لوّح مرة أخرى بعلم الاستسلام، وجعل الجميع يتقبلون الحقارة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المحتومة لذلك الزواج، والذي تمكنت ولادة أوريللي من جعله زواجاً طاهراً، أتت ولادتها بعد سنوات كرسها الزوجان الشرهان لنفسيهما، أنانية منهما كي يعيشا على شهوة جسديهما لأن الأنانية الأكثر ضراوة لا يمكن أن تنفلت من الدورة الحميّة للولادة والموت المتواصلين. انحنى مارسيل على مهد أوريللي، وماتيو، وعلى فوهة القبور المعتمة التي طبقت على جان - باتيست، وعلى جين - ماري، حسب ما هو مدوّن في سجل النفوس، بصورة صحيحة وثابتة وعلى أيادي الجنرال أندريه ديغورس، الباردة والمشبّعة بالدم، إذ توقف قلبه عن النبض منذ زمن طويل. ها هو مارسيل وحيداً، وساعة التقاعد أتت لتؤكد له ما كان يعرفه دائماً، أن شيئاً لم يحدث، وأن الخطوط التي تتراءى تصل إلى الأفق، ما هي إلا حلقات سّرية تنغلق بقسوة وتقوده إلى قرية طفولته المكروهة دائماً، وفي حقيبته، موضوعة على بدلاته من الكتّان والصوف، صورة قديمة، التقطت في صيف ١٩١٨، والتي تثبتت على الورق بجوار أمه وأخوته وأخواته، الوجه الغريب للغياب. إن الوقت ثقيل، الآن، وشبه جامد. في الليل، مارسيل يصطحب متنزهاً بشيخوخته من غرفة إلى أخرى في البيت الفارغ، باحثاً عن زوجته الشابة الساذجة والضحوكة، ولم يتمكن من تعزية نفسه لفقدانها لكنه لم يعثر إلا على والده الذي ينتظره، منتصباً في المطبخ. لا نبرة لا صوت تنفلت من شفتيه البيضاوين، كأنه ينظر إلى ابنه عبر أهدابه المحروقة، كما لو أنه يعاتبه على مواعيد كثيرة هدرت مع عوالم كثيرة لم تعد موجودة ومارسيل يجلس منهكاً تحت ثقل

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

التأنيب والندم، يعرف أن لا أحد سيجدد شبابه، ولا يرغب في ذلك دون جدوى. والآن حيث إنه حمل كل عائلته إلى التراب، الواحد بعد الآخر، يجب أن توكل تلك المهمة المنهكة إلى شخص آخر، منتظراً أخيراً انهزام صحته المتهاوية، والصامدة على الدوام. ففي النظام الذي تؤكده سجلات النفوس، ها هو دوره جاء للسير وحيداً إلى القبر.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

الفصل السادس

«لأن الرب لم يخلق لك إلا عالماً معرّضاً للهلاك»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

في هذه القرية، يسير الموتى وحيدين نحو القبر، ليسوا وحيدين في حقيقة الأمر، لكن تسندهم أيادٍ غريبة، والشيء نفسه، ولا فرق في ذلك، فمن هذا يمكن القول إن جاك أنطونيتي سلك الطريق إلى سرداب القبر وحيداً بينما كانت عائلته، بعيداً عنه، مجتمعة عند بوابة الكنيسة تحت أشعة شمس يونيو تستقبل العزاء، لأن الألم واللامبالاة والشفقة ما هي إلا تجلّيات الحياة نفسها، والتي يبقى منظرها المهيمن خافياً على المتوفى. مات جاك أنطونيتي منذ ثلاثة أيام في مستشفى في باريس، والطائرة التي أقلته إلى موطنه، هبطت في الصباح نفسه في أجاكسيو، في الساعة نفسها التي غادر فيها ابنه ماتيو سرير النادلات متوجهاً نحو الحانة لتناول فنجانٍ من القهوة. وقف ليبيرو قبل ذلك وراء البار، مرتدياً بدلته، وهو يطلق تشغيل آلة القهوة بينما أخبره ماتيو أنه استيقظ مبكراً لمرافقته.

ـ هل نمت هنا؟

هزّ ماتيو رأسه، ثم أحناه. أراد لو يستطيع قضاء الليلتين الأخيرتين في بيته، نوى على ذلك، عشية البارحة، حتى حاول ذلك، لكن جده

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ظل جالساً دون أن ينطق بكلمة لدرجة، أنه لم يشعر بوجوده وجعلت ماتيو يجلس بدوره على الأريكة أيضاً، يحملق في الشباك المغلق، وعندما بدأ الليل يخيّم، نهض ليشعل المصباح لكن جده قال:

ـ لا.

دون أن يتحرّك، دون أن يرفع صوته، قال ببساطة:

ـ لا.

ثم أضاف:

ـ ليس هذا هو النظام الذي تسير عليه الأشياء.

ثم لوّح بيده تلويحة، فسّرها ماتيو بعجالة أن بإمكانه الذهاب أو فهم منها شيئاً أكثر تحديداً وعنفاً، دعوة ملحة للابتعاد، على الفور، من عزلة تقتضي صمت الليل فقط، فأطاع ماتيو ذلك، حيث قام بتحرير جده من حضوره المزعج، كما حرّر ذاته في الوقت نفسه، ولم يستدر ليراه. قدم ليبيرو فنجان قهوة لماتيو وجلس بالقرب منه وهو يمعّن في النظر إليه من الرأس إلى أخمص قدمه:

ـ هل ستذهب هكذا؟ ستذهب هكذا لدفن والدك؟

كان ماتيو قد ارتدى بنطلون جينز وقميصاً أسود اللون لم يقم بكيّه كما يجب. فقام بدوره يفحص ملابسه بارتباك.

ـ أليس هذا مناسباً؟

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

اقترب منه ليبيرو ومسكه من رقبته.

ـ كلا. ليس مناسباً. أنت تنضح برائحة العرق. وبرائحة العطر. أنت نتن. وهيئتك غير لائقة أبداً. سوف نذهب إلى بيت أمي، هناك ستستحم، ثم تقص لحيتك، وسنجد لك بذلة، وربطة عنق، سنختار لك شيئاً يليق بك، وكل شيء سيكون على ما يرام، ستقوم بكل ما يجب عليك القيام به، وكل شيء سيكون على ما يرام. سأكون معك. كل شيء سيكون على ما يرام، سترى ذلك، أعدك بذلك.

أحسّ ماتيو بالدموع تصل إلى عينيه ولكنها تتوقف عند حافتي جفنيه الجافتين وتردد لحظة قبل أن يسحب مخاطه فجأة. واستعاد تنفسه ثم ضمّ بإيجاز ليبيرو إلى حضنه ثم تبعه، وبعد ساعتين من ذلك، بينما دخلت عربة الموتى القرية على إيقاع النواقيس الحزينة، متبوعة بصف طويل من السيارات، وقف ماتيو بجوار جده، ينتظر أمام الكنيسة، تائهاً في بذلة تبدو كبيرة جداً عليه حيث أعطيت له تعليمات بألا يفتح أزرار السترة تحت أي ذريعة، حتى يخفي الثنيات المعيبة للبنطلون الذي يشّده حزام وضع فوق مستوى صرته. أشار له ليبيرو رافعاً إبهامه، كل شيء يبدو على ما يرام، فجأة، في اللحظة التي أخرج فيها التابوت من العربة، انطلق جمع غفير من الناس من السيارات يتسارعون عليه كي يقبلوه في تجمهّر مخيف، رجال ونساء لا يعرفهم يحتضنونه ويضمونه إلى بذلاتهم ودانتيل فساتين حدادهن الأسود، كان خداه ملطخين بدموع غريبة، يفوحان بعطر

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الكولونيا الفظ العنيف، وطلاء الكريمات، ورائحة العطور الرخيصة، ويلمح بطرف عينيه مجهولين آخرين يتزاحمون من أجل الارتماء على مارسيل، صرخ أحد عمال الدفن:

ـ أرجئوا تقديم العزاء إلى ما بعد! سيقام الاحتفال لاحقاً!

لكن لا أحد أصغى إليه، كان الحشد قد حصر ماتيو بجوار جدار الكنيسة وسحقه بعناقه الندي، أصيب بالدوار، ولمح والدته تبسط يديها نحوه، وتناديه، لكن تلقفتها حفنة من أيادٍ عديمة الشفقة تريد لمس الجسد الذي كدمته آلام الحداد، بكت أوريللي بجوار عربة الموتى، وغُمرت هي الأخرى بموجة كثيفة من التعاطف الشره، شفاه رطبة ممتدة قبل لمسة القبل، أسنان من ذهب تبرق باللعاب تحت شفاه مطوية، ولدى ماتيو انطباع بالذوبان وسط هياج من الحرارة الإنسانية، قميصه مبلل من العرق، ضغط الحزام على بطنه بشكل مؤلم، وكل شيء هدأ فجأة، تفرّق الجمع الغفير ليفسح الطريق لمرور الميت الذي كان يحمله فيرجيل أورديوني وفنسان لياندري وأربعة من أخوة ليبيرو وتبعه ماتيو، بين أذرع أمه التي وجدته أخيراً يسير بجوار جده وأوريللي، وعندما دخلوا إلى الكنيسة، أغلق عيونه تحت مداعبة الهواء البارد اللطيف بينما، وراء المذبح، كان بيير ـ إيمانويل كولونا والموكب الجنائزي ينشدون صلاة الميت.

طوال كل المراسيم، راح ماتيو يبحث عن حزنه الخاص لكنه لم يجده في أي مكان، ألقى نظرة على الخشب المصنوع منه

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

التابوت، ونظر إلى وجه جده المحنط، مستمعاً إلى نحيب أمه وأخته وشهيقيهما الممزوجين، لكن لا شيء يحدث، أغلق عينيه، وأرغم نفسه على التفكير بشيء حزين، ورغم ذلك لم يكن حزنه يستجيب لأي من نداءاته، شعر به يمر بجواره، شفتاه ترتجفان قليلاً، وفي اللحظة التي يفكر فيها أن دموعه ستنهمر أخيراً، كل ينابيع جسده الرطبة أخذت بالجفاف، وأصبح فجأة ممتنعاً على الألم وجافاً، واقفاً أمام تابوت النعش مثل شجرة ميتة. حرّك القس المبخرة حول النعش للمرة الأخيرة، وارتفعت أصوات متضرّعة في الكنيسة:

ـ ربي حررني من الموت الأبدي.

ثم هز التابوت ببطء إلى البوابة، تبعه ماتيو وهو يعرف أنه يتبع أباه لآخر مرة لكنه لم يبك، وضع قبلة على الصليب بتقوى، وأراد أن لا يتقمصها، لا يتظاهر بها، لكن لا أحد كان ينتظره في الصليب لا والده ولا الرّب، ولم يشعر بشيء سوى بملمس الحديد البارد على شفتيه. أغلقت أبواب عربة الموتى. همست كلودي وهي تبكي اسم زوجها، والذي كان الاسم ذاته لأخ طفولتها، وشرع جاك أنطونيتي في مسيرته نحو القبر وحيداً، كما تريده قوانين هذه القرية، لأن الأجانب الذين كانوا يمشون بجواره على إيقاع صمته لم يكونوا يعنون شيئاً. كان العزاء طويلاً جداً، أجاب ماتيو بدون تفكير:

ـ شكراً.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وأخذ يرسم ابتسامة عندما اقترب من الوجوه المألوفة. تألقت فرجيني سوسيني واحتضنته بحميمية إلى درجة أحس فيها بالنبضات البطيئة لقلبها المشبع بالموت. كانت النادلات، جالسات على جدار، ينتظرن أن ينجلي الجمع، ليقتربن بدورهن وبذل ماتيو جهوداً كبيرة ليمنع نفسه من تقبيل ايزاسكون على الفم. وفي غضون نصف ساعة، بقي نحو ثلاثين شخصاً ممن ذهبوا إلى عائلة انطونيتي حيث أخوات ليبيرو يقدمن لهم فناجين القهوة، وشراب ماء الحياة والحلوى.

بدأت الأحاديث بصوت منخفض، ثم ارتفعت الأصوات قليلاً قليلاً، سمعت ضحكة صغيرة، وبعدها عادت الحياة، بلا شفقة وفرحة، كما يحصل عادة، حتى لو أن الموتى يجب أن لا يعلموا بذلك. خرج ماتيو إلى الحديقة حاملاً كأساً صغيراً من شراب ماء الحياة. في ركن من الحديقة، تبوّل فيرجيل أورديوني على كومة من الحطب. من فوق كتفه، استدار إلى ماتيو بعينيه الواسعتين المحمرتين، مرتبكاً من الخجل.

ـ لم أكن أريد أن اسأل عن مكان المراحيض، خجلاً من والدتك، هل فهمت؟

أظهر ماتيو موافقته بغمزة عين، خاف من اللحظة التي سيرحل فيها جميع الناس، ومن مواجهة أقربائه، والذين لا يستطيع مشاركتهم، والمهم ظل ألمه مفقوداً. عند غروب الشمس، سيذهبون جميعهم إلى المقبرة، وسيغلق قبو القبر نهائياً، كانوا ينظمون أكاليل الزهور

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وباقات الورد، وهذا كل ما سيراه ماتيو، زهوراً وأحجاراً، لا شيء غير ذلك، لا آثار للأب الذي فقده، ولا حتى أثر غيابه. ربما كان بإمكانه البكاء إذا هو فهم لغة الرموز، أو إذا هو بذل على الأقل جهداً في التخيّل لكنه لم يكن يفهم شيئاً، ولم تكن لديه قدرة على الخيال، وروحه ترتطم بالأشياء الملموسة التي تحيطه، والتي لا يوجد شيء بعدها. كان ماتيو يرسل نظراته إلى البحر، مدركاً أن انعدام الإحساس عنده لم يكن سوى أعراض حقيقية من حماقاته، مثل دابة تتلذذ بالسعادة الثابتة والمحدودة، وفي هذه الأثناء وضعت يد على كتفه، والتي أعتقد أنها يد ايزاسكون، وقد تكون فكرت في الالتحاق به في الحديقة، وتألمت لكونه وحيداً وافتقدته طوال تلك المدة. استدار ليجد نفسه أمام أوريلي.

ـ كيف حالك، ماتيو؟

نظرت إليه بلا غضب، لكنه خفض عينيه أمامها.

ـ إنني بخير. حتى إنني لست حزيناً.

اقتربت منه وضمته بين ذراعيها.

ـ لا أنت بالتأكيد حزين، أنت حزين جداً.

وهذا العذاب الذي لاحقه عبثاً طوال الظهيرة ها هو قد حضر، مغلفاً في كلمات أخته، بعيداً عن العون اللامجدي للرموز أو الخيال، ها هو يذوب على ماتيو الذي أجهش بالبكاء مثل طفل

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بين ذراعي أوريللي. مسحت شعره وقبلت جبينه وفرضت عليه رفع عينيه نحوها.

ـ أعرف جيداً أنك حزين. لكن ذلك لا ينفع في شيء، هل تفهم؟ حزنك لن يفيد في شيء، ولن ينفع أحداً. لقد فات الأوان.

* * *

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في الخامس عشر من يونيو، تسلّم رسالة من جوديت هاللر التي أخبرته بنجاحها في شهادة التبريز الأستاذية، ورغبت في مشاركته فرحتها، حتى ولو من بعيد، لم تنتظر منه جواباً، كانت تأمل أن يكون سعيداً. هل كان سعيداً حقاً؟ لكن ماتيو لم يكن يطرح على نفسه هذا السؤال، بل نظر إلى الرسالة كما لو أنها هبطت عليه من كوكب بعيد، وغريب، ومألوف حيث أيقظت إشعاعاتها في أعماقه أصداء مضطربة لحياة أخرى. دسّ الرسالة في جيبه حيث نساها، وهو يفتح قناني الشمبانيا بمناسبة حفل وداع سارة. وقد وقعت في غرام مدرّب خيول، والذي اقترح عليها أن تعيش معه، في مكان ما في منطقة تارافو. كان رجلاً في الأربعين من عمره، عُرف طوال فترة الشتاء بتحفظه المشبوه لشرب الكحول، وإصراره على المجيء إلى الحانة في كل الأوقات، قاطعاً كيلومترات عديدة تفصل بين الحانة وقريته النائية. كان يجلس في زاوية من البار أمام قنينة ماء غازية، ويبدو منغمساً في تأملات غامضة. لم يكن ينظر إلى النادلات، ولا يحاول لمس مؤخراتهن، ولا يسعى إلى إضحاكهن، بل كان يرفض بأدب

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ملاطفات آني ومداعباتها، وهي تستقبله في الباب، ومن المستحيل التخمين في أي وقت وبأيّ وسيلة، استطاع أن يربط علاقة حب مع سارة والتي تعانقه الآن وتتدلى على رقبته وتغرقه بالقبلات وتجبره على شرب الشمبانيا. كان بيير ـ إيمانويل ينشد أغنيات الحب، ويعطي لمقاطع منها نبرة ساخرة، ويضع غيتاره لكي يشرب ويعبث بخصلات شعر فيرجيل أورديوني القليلة وهو يلوّح بيده إلى زوجين سعيدين.

ـ أترى، فيرجيل، ربما ستجد أنت أيضاً حبيبة يوماً ما!

يحمرّ فيرجيل ويضحك قائلاً:

ـ أي نعم! أنا أيضاً، ربما، لم لا؟

ثم يجرّ بيير ـ إيمانويل أذنه صارخاً:

ـ آه! يا حقير! يا خنزير! أنت تحب الفتيات، أليس كذلك؟ أنت رجل مضحك!

ثم أخذ غيتاره المليء بالأنغام ليسرد قصة امرأة شابة جميلة لدرجة أن عربتها لا يمكن أن تكون سوى جنيّة ملاك. في الثانية صباحاً، جمعت سارة أغراضها، وشحنتها في سيارة رباعية الدفع كبيرة، تابعة لحبيبها الجديد، ثم جاءت لتوديعهم. حضنتها ريم بين ذراعيها وهي تبكي، وطلبت منها أن تعدها بإعطائها أخباراً عن حياتها السعيدة، ووعدتها سارة بذلك ثم ذرفت بدورها بعض

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الدموع، وهي تقبّل كل واحدة ممن ستغادرهن، قالت لماتيو وليبيرو بأن لقاءهما كان أفضل ما حدث في حياتها على الإطلاق، وإنها لن تنساهما، وأينما كانت، فسيكون ذلك بيتهما، الشيء الذي وافق عليه مربي الخيول الكورسيكي بهزة من الرأس، وشاهدها ماتيو، وهي ترحل بعاطفة شبه أبوية، لأنه لا يشك لحظة أن ظله وصي أبوي سيمتد إلى الأبد على حياة سارة. ماتيو فرح ومقتنع بشكل خاص بما قام به لكنه أحس بالانزعاج حين شعر أن ليبيرو لا يشاركه هذه السعادة الروحية، يتمشي بقلق ذهابا وإياباً، ينعزل في رصيف المقهى في حديث مشبوه ومتكرر مع فنسان ليندري، ويخاصم الفتيات اللواتي يبكين ببلاهة، بدلاً من أن ينهين عملهن، وينظفن الأرضية ثم يبكين على أسرتهن، أو في أي مكان آخر، إذا راق لهن ذلك. عندما ذهبت الفتيات، اقترحت آني أن تبقى لاستقبال الزبائن الليليين المحتملين. رمقها ليبيرو بنظرات قاسية.

ـ كلا! اذهبي أنت أيضاً. من الأفضل لك أن تخلدي للراحة، تبدين في هيئة يرثى لها.

فتحت فمها لتقول شيئاً لكنها استدركت وخرجت من دون أن تتفوه بكلمة، تاركةً ليبيرو وحيداً مع فنسان ليندري وماتيو الذي بدا مذهولاً وضائعاً تماماً.

ـ هل رحيل سارة هو الذي جعلك تفقد أعصابك بهذا الشكل؟

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ـ كلا. إنها آني، إنها تسرقنا، هذه السافلة، إنني متأكد.

منذ بداية الموسم، اعتادت آني أن تلازم الحانة بعد ساعة الإغلاق، والتي حددها ظلما مرسوم جائر للبلدية في حدود الساعة الثالثة صباحاً. عندما يذهب كل من ليبيرو وماتيو للنوم، حاملين صندوق المال والمسدس في الحزام، تبقى آني جالسة كالبطلة على المقعد وراء البار، جاهزة لتقديم الخدمات لآخر السكارى الذين يتسكعون في المنطقة، باحثين عن مكان مريح يستقبلهم حيث يمكنهم إنهاء رحلتهم إلى الغيبوبة الكحولية. في حالة مرور مراقب رجال الدرك، غير أن مروره يعد نادراً، استطاعت تبرير أن الحانة مغلقة، والصندوق مغلق، وتتمتع مع بعض الأصدقاء بأمسية حميمية خاصة. لم تُحصَ الحسابات إلا في اللحظة الأخيرة، عندما تتأكد من عدم وجود أي عسكري يدور في المنطقة. هذه المناورة الخادعة، والتي لا تستطيع سوى أن تحيي من خلالها آني على مقاومتها المدنية ضد تعسف وجور الدولة، لم تخلق سوى سعداء سكارى تائهين وهائمين من فرط العرفان، أصبحوا الآن يجدون موطئ قدم، ويتم شكر آني على جهدها بمنحها بقشيشاً سخياً وما يضيفه إلى مستحقاتها في ساعات العمل الإضافية، وبهذا أخذت نسبة أرباح الحانة في الارتفاع. ويحدث أن تنتظر آني الزبائن عبثاً، وهذا يقع كثيراً في الأيام الأخيرة، الشيء الذي لم ينتبه إليه ليبيرو إلا بعد أن يقول له فنسان ليندري عن طريق الصدفة المحضة إن أصدقاء

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

من أجاكسيو مرّوا لتناول كأس السبت الماضي لدى خروجهم من الملهى الليلي، في الوقت الذي أكدت آني أنها لم ترَ شخصاً في تلك الليلة. ليبيرو طلب من فنسان ليندري فيما لو كان متأكداً من يوم تاريخ مجيئهم إلى الحانة، وما شربه أصدقاؤهم، وبأيّ كميات، إلى درجة أن فنسان طلب منهم أن يأتوا ليؤكدوا دقة معلوماتهم بأنفسهم. غضب ليبيرو غضباً كبيراً، ولا شيء يبدو قادراً على تهدئته، وحاول فنسان أن يوضح له بقدرية حكيمة أن النادلات، ومنذ زمن كن يسرقن من صندوق المال على الدوام، فذلك قانون اعتيادي وطبيعي، وينصحه عبثاً بالمسامحة والعفو، وماتيو يكرر أن الأمر بهذه الخطورة الجسيمة، لكنه لم يكن يستمع إليهما، أراد أن يحرج آني ويداهمها بالجرم المشهود، الشيء الوحيد الذي من الممكن القيام به، لأنها بدون ذلك، ستنكر كل شيء جملة وتفصيلاً، تلك السافلة المنحطة، البدينة، الدنيئة، الحقيرة، ولم يهدأ إلا عندما رتّب كيف سيمسك بها في جرمها المشهود، ويسيطر عليه غضبه الانتقامي.

جمع رهطاً من شباب المدينة، وتأكد أن آني لا تعرف منهم أحداً، وأعطاهم نقوداً وتعليمات أن ينفقوها كلها إلى آخر فلس في الحانة في الليلة التالية. تظاهروا بأنهم مجرّد عابري سبيل في المنطقة، ولا نيّة لهم بالمجيء إلى هذا المكان ثانية، وخاصة أن يسجلوا كل المشروبات قبل أن يعطوا تقريراً كاملاً وشاملاً إلى ليبيرو، مهمة نفذوها بحذافيرها بإخلاص. وفي اليوم التالي، حين

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

باشرت آني عملها عند الظهيرة، كان ليبيرو ينتظرها بابتسامة عريضة في الحانة.

ـ هل جاء بعض الزبائن في هذه الليلة؟

تجمّدت ابتسامته للحظة عندما أجابته آني «نعم» وهي تمّد له النقود ملفوفة بورقة الحساب. قام ليبيرو بعدهم ثم استعاد ابتسامته.

ـ لا يوجد زبائن كثيرون.

شخصان من منطقة زونزا توقفا لتناول كأس لدقيقتين ثم غادرا بعدها إلى بيتيهما، انتظرتهما، ثم أغلقت الحانة في الساعة الخامسة، ليلة متعبة، ولا يمكن أن تفلح دائماً في استقطاب زبائن كثيرين، لا ضرر في ذلك، ثم أخذ ليبيرو يصرخ غير آبه بالزبائن الذين كانوا يقفزون من كثرة الصراخ.

ـ ألم تنتهِ من سرد تلك الحماقات؟

صرخ بأنه يعرف بشأن الزبائن الذين كانوا يأتون إليها لكن آني أخبرته.

ـ لا، هذا غير صحيح! كلا!

بإيماءة خجولة وطفولية على وجهها، تقدم نحوها وكانت قبضتاه مشدودتين، واصفاً لها كل واحد من هؤلاء الشبان، ومعدداً قائمة الشراب الذي تناولوه، وأخبرها بالمبلغ الذي دفعوه لها،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مجمّعاً لها بلا شفقة الدلائل والإثباتات إلى أن فقدت كل الحلول، وانهارت تذرف الدموع، طالبة المعذرة. لاذ ليبيرو بالصمت. فكر ماتيو بارتياح انتهاء القضية، آني ستبرئ ذمتها بعد أن تستحق شجاراً من الطراز الأول، وتهديدات بعقوبة مثلى في أول انحراف، ستعيد الأموال، وسيعود كل شيء كما كان، قالت:

ـ لقد اقترفت حماقات. سأعيد لك جميع الأموال. وأقسم أنني لن أكرر ذلك أبداً.

لكن صمت ليبيرو لم ينمّ عن الصفح والغفران، وليست لديه نيّة السماح لها بتسديد ديونها.

ـ لا أريد أن تعيدي لي الأموال. احتفظي بما أَخَذْتِهِ. أريد أن تصعدي إلى الشقة، حالاً، وتأخذي حقيبتك وتذهبي من هنا. لا أريد أن أراك ثانية. أخرجي الآن.

توسلت آني به، وأقسمت له ثانية بين شهقات بكائها، نهض الزبائن الواحد تلو الآخر وغادروا الصالة حتى لا يكونوا شهوداً لمدة أطول على ما كان يجري، ومازالت آني تتوسل ثانية، إنها أخطأت لكنها قدمت عملاً جيداً أيضاً، لا يمكن لهم التصرف هكذا، أين ستذهب؟ إنه لا يستوعب الأمر، في عمر الثالثة والأربعين، لا يستوعب صعوبة الأمر، ولا يمكن له أن يطردها بهذا الشكل، مثل الكلبة، وهي تكرر سنها، وها هي الآن راكعة على قدميها، تمدّ يدها

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

إلى ليبيرو الذي ظل مسمّراً في مكانه، يرمقها بنظرات كره واحتقار، ثلاثة وأربعون عاماً، إنه لا يعي الأمر، ستقوم بكل ما يطلب منها، كل شيء، وكلما بكت، تصلّب ليبيرو وبدا متحجراً تحت قناع كراهيته، كما لو أن تلك المرأة الجاثمة على الأرض تجسد في جسمها الذي يرتعش مطلق الشر، إذ وجب عليه الآن أن يطهّر العالم منه بأي ثمن.

ـ سأعود بعد ساعة، لا أريد أن أراك هنا.

عندما ذهب، وقفت متهاوية، وأمسكت بها ريم من ذراعها لتساعدها على الصعود إلى الشقة. لم يتجرأ ماتيو على النظر إليها، ثمة ثقل مؤلم يجثم على صدره، لم يفهم لا نوعه ولا أصله، انتظر أن يخيم الليل، وأن تأخذ الحياة مجراها، من دون مفاجآت جديدة، لأنه أصبح مجدداً طفلاً صغيراً لا يطمئن سوى إلى التكرار الدائم للشيء نفسه، بعيداً عن التفكير غير المحدد المتشتت، وتزعج دوامته الهائجة روحه بشكل فظيع قبل أن تنفجر مثل فقاعات على سطح المستنقع، انتظر نكهة الكحول، والتوتر الثابت الذي يبقيه متيقظاً، وأعصابه مشدودة، ويبقيه دائماً بالمرصاد بدون سبب معين، انتظر لحظة خلوده للنوم، ملمس جلد ايزاسكون الناعم ونظرات أنيس، رغم الإنهاك والتعب، رغم ثقل الأنفاس المشبعة برائحة الشمبانيا الثقيلة، ورائحة الكحول والتبغ، واللعاب الكثيف الملتصق بالأسنان القذرة، ذاق النوم متأخراً، رغم الأجفان الثقيلة، وغرابة هذا الانقضاض على جسد منهك مثل جسده، والذي ينضح بالسموم

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

نفسها في شراشف مبللة، ولا أحد يغلق له جفن ليخلد لنوم بلا أحلام حتى تقام الطقوس الليلية ذاتها، التي دوّنها قانون هذا العالم وليس قانون الرغبة، لأن لا جدوى للرغبة، مثل الإنهاك أو المتعة المبتذلة، ولا تعدو المسألة بالنسبة لكل منهم سوى الاحتفاظ بدوره في رقصة، أصبحت تبرّر استيقاظهم في كل صباح، وتبقيهم صامدين إلى آخر الليل. هكذا يرتكز كل عالم على مراكز واهنة، يحافظ على توازنه في كل سرية، بينما جلست ريم وراء البار في مكان آني، ابتهج ماتيو لكون استقرار هذا التوازن لم يختل في نهاية الأمر، لم يشعر بالاهتزازات الخفيفة في الأرض، والتي كان يجري فوقها شبكة من التشققات الكثيفة مثل شبكة عنكبوت، لم يلاحظ الابتعاد عن التردد المذعور عند الفتيات، وهن يقتربن من ليبيرو، رغم استرخائه مبتسماً من جديد، كل شيء يمشي على أحسن ما يرام، لم يبد بيير ـ إيمانويل استغراباً كثيراً لاختفاء آني، فقد تعلم أغنية باسكية من أجل ايزاسكون، ولم يكن ماتيو يرى النظرات السوداء يرسلها نحو ليبيرو من فوق ميكروفونه، اعترفت ايزاسكون بأنها لا تفهم كلمة واحدة من اللغة الباسكية، لأنها كبرت في ساراغوس، ابتسمت، فيما احتسى ماتيو شراباً غير عابئ بشيء، ولكن كيف يستوعب، وهو لم يستوعب إلى الآن ولم يصدق أن والده قد توفي. في الساعة الثانية، طوى بيير ـ إيمانويل عمود الميكروفون، ولف الأسلاك ورتّب غيتاره. وأعطاه ليبيرو أجرته.

ـ كان يجب أن تتحدث معي بشأن آني، أليس كذلك؟

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تشنجت أعصاب ليبيرو وكأن تياراً كهربائياً صعقه.

ـ اعتنِ بأمورك، أيها التافه، هل فهمت؟ اعتنِ بأمورك.

ظل بيير ـ إيمانويل لحظة مذهولاً ثم وضع النقود في جيبه وذهب ليأخذ غيتاره، قائلاً:

إنها المرة الأخيرة التي أسمح فيها أن تحدثني بهذه النبرة.

ـ أتحدث معك كما يحلو لي.

خرج بيير ـ إيمانويل مطأطئ الرأس، وساد الصمت الحانة. أحس ماتيو من جديد بالثقل الغامض يترنح من صدره إلى بطنه، وسأل ليبيرو عن سبب انزعاجه. ابتسم له ليبيرو ابتسامة عريضة وملأ كأسيهما.

ـ الأمر ذاته يتكرر مع هؤلاء التافهين. إذا أصبحت لطيفاً، فإنهم يستبيحونك، إنهم تافهون جداً، لا يفرّقون بين الطيبة والضعف، هذا شيء معقد لهم، لذا ينبغي التحدث معهم باللغة التي يفهمونها، وثِقْ بي، هذا ما سيفهمونه جيداً.

أذعن ماتيو للأمر ونهض حاملاً كأسه ليجلس خارج الحانة. نظر بكآبة إلى الليل، وهو يفكر ولأول مرة أن عينيه لا تريان ربما ما يراه صديق طفولته. أخرج رسالة جوديت من جيبه، وأعاد قراءتها، من دون أن يكترث بالوقت، وأخذ هاتفه.

* * *

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في غضون ساعات طويلة من الانتظار، والتي لم تهدأ من غضبها، تم استقبال أوريللي من قبل أحد موظفي القنصلية. انتهى التنقيب، ولم يعثروا على كاتدرائية أوغسطين ولكن لا يزال الكثير يجب القيام به، سيجدونها ذات يوم، ورخام صدر الكنيسة حيث أسقف عنابة كان يحتضر، محاطاً برجال دين يصلون، سيتلألأ من جديد تحت أشعة الشمس. كانت أوريللي قد قامت بدعوة ماسينيسا غورمار للمجيء إلى القرية لقضاء خمسة عشر يوماً برفقتها، وقد أخبرها للتو بأن تأشيرة دخوله قد رُفضت. أمام الجدران المغطاة بالأسلاك الشائكة للسفارة، هناك صّف ممتد على نحو ثلاثمائة متر، مكوّنة من رجال ونساء من جميع الأعمار، ينتظرون بصبر دورهم، من أجل إشعارهم بأن ملفاتهم التي يمسكونها بين أيديهم لا يمكن قبولها لأنها تفتقر إلى ورقة ناقصة. تقدمت أوريللي مباشرة إلى ردهة الحاجز الأمني، وأعلنت عن هويتها الفرنسية كي يسمحوا لها بالدخول لكن موظفة الاستقبال جعلتها تدفع ثمن هذا الاجتياز، وطلبت منها الذهاب والجلوس على أريكة أهملتها فيها بعد ذلك.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كان الموظف يرتدي قميصاً مقلماً وربطة عنق قبيحة وفي غضون دقائق فهمت أوريللي أنها لن تحصل على الشرح الذي جاءت من أجله، لم يوافق أحد على إعادة فحص ملف ماسينيسا، لأن ما يجري هنا هو عبارة عن ممارسة السلطة بتلذذ كريه ومقزز، سلطة تتجلى في نزوات حكمها، سلطة الحقراء والضعفاء، والذي كان هذا الشخص الذي يرتدي القميص النموذج الأمثل والحقيقي، بابتسامته البليدة التي تكفي أن يُلقي به لبلاهته من أعلى القلعة الحصينة. في المكتب المجاور، امرأة مسنة تضع الحجاب تحتضن فتاة صغيرة إلى صدرها وتتكور تحت وابل من اللوم والتحقير، ملفّها لم يكن جاهزاً ولا يمكن تجهيزه، كان قذراً، غير مقروء، لا يصلح إلا لسلة المهملات، حاولت أوريللي جاهدة وعبثاً إقناعه بدموع الحكمة والعقل المسالمتين، بقولها إن ماسينيسا دكتور في علم الآثار، ويشغل منصباً في الجامعة الجزائرية، هل يمكن الاعتقاد أن وضعه غير مريح لدرجة أنه سيتخلى عن وظيفته حتى يحصل على شرف العمل بصورة غير شرعية في ورشة فرنسية؟ هي نفسها كانت أستاذة، هل كانوا يتخيلون أنها كانت تشغل وقتها الضائع في إدارة شبكات للهجرة السّرية؟ لم يكن الموضوع سوى مجرد بضعة أيام لقضاء عطلة، وفور انتهائها، سيدخل ماسينيسا الجزائر بكل وداعة، هي تضمن ذلك، لكن الشخص ذا القميص بقي جامداً، وكانت ترغب في غرس المقص الموضوع على ملفه الجلدي على الطاولة في ذراعه. غادرت القنصلية في حالة غضب لا توصف، وهي راغبة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في كتابة رسالة للقنصلية، للسفير، للرئيس، إنها تخجل أن تكون فرنسية، وإن موقف الموظفين الذين قابلتهم لا يشرّفونهم كما لا يشرفون البلد الذي يمثلونه، لكنها أدركت أن كل ذلك لا يفيد ولا جدوى منه، وقررت أخيراً أن ترحل وحيدة إلى القرية، ولو لأسبوع على الأقل قبل أن تلتحق بماسينيسا في الجزائر في شهر أغسطس. كانت بحاجة لرؤية أمها، وخاصة جدّها. لم تستطع التخلي عنه. وأيقنت أنها تعاني من موت أبيها، وان مارسيل يعاني من ذلك أكثر منها، أكثر مما كانت تتصور، لأن نظام الأشياء يريد أن يقوم الأطفال بدفن آبائهم، ولكن الاضطراب غير المحتمل لهذا النظام الطبيعي أضاف الفضيحة إلى الألم، وأرادت أن تستعيد نزهاتها المسائية معه، وهي تمسك بذراعه، وهذا ما قامت به فعلياً بورع، كانت متأثرة وتشعر به يتكئ عليها، في منتهى الضعف والرقة، وفي منتهى الوهن أو الشيخوخة إلى ما لا نهاية. عندما كان يخلد للنوم، تذهب هي إلى الحانة لتتناول كأساً، لأنه لا يوجد شيء سوى الحانة، عازف الغيتار الشاب أخذ يتحسن، وتقنياته الصوتية تتحسن أيضاً، وحافظ على حبه غير البريء لأغنيات، كان يفضلها بنغمة إيطاليّة، والتي يغنيها وهو يغلق عينيه، وكأنه يحاول حبس تدفق مشاعره قبل استقبال التصفيق بتواضع، ممن لا يشك باستحقاقه ذلك التمجيد بحق، اتجه إلى البار، تدل مشيته على عدم اكتراث كبير، مدركاً تماماً نظرات النساء التي تلاحقه، ساخراً علانية من فيرجيل أرديوني، الذي كان يضحك في

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

براءة مسالمة، بحيث استبدت بأوريللي رغبة في صفعه بكل قواها، كما لو أن الجو العفن السائد في الحانة أصابها بالعدوى. أصبح الجو حقيقة عفناً، تطوف رائحة زوبعة تنبعث من البار، والرجال ينظرون بشهوة وشبق إلى الصدور العارية للسائحات الشابات، إلى أفخاذهن المحمرّة بأشعة الشمس، دون إعارة أي اهتمام لحضور زوجاتهن المرغمات على قبول توزيع جولات مجانية للشراب، والتي لم تكن مقدمة لهنّ من باب الذوق بل بهدف إسكارهن إلى حد الموت، ما أجبر ليبيرو على التدخل باستمرار، بكل ثقل سلطة الشباب، وأحياناً يتدخل جسدياً، فيما كان ماتيو يبدو مغلوباً على أمره تماماً. كانت أوريللي تتألم على أخيها، الذي يبدو في الحقيقة كالطفل، بل هو في أعماقه طفل حانق وجريح، لم يكن قادراً على حماية نفسه من تهديد الكوابيس إلا بالاختباء في عالم وهمي، مليء بالأحلام الصبيانية، عالم الحلوى والأبطال الخارقين. عشية سفرها، تعرفت أوريللي إلى جوديت هالر، والتي دعاها ماتيو لقضاء العطلة واستقبلها، وهو يضع أمامها المسدس في حزامه عند إغلاق الحانة، ومن الواضح أنه فسّر نظرة الذهول في عيون المرأة الشابة على أنها نظرة إعجاب صامت في تمجيد رجولته. بدا فخوراً لمنصبه كمدير حانة، وهو يقدم كأس شراب لكل من أوريللي وجوديت، التي لم تنته بعد على ما يبدو من المفاجآت ذلك المساء حيث منحها تلك الليلة فرصة مشاهدة عرض غني بالموسيقى الصاخبة وذرف الدموع.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كانت جوديت تتناول كأسها، وهي تتحدث إلى أوريللي عندما سمعت صرخة حيوان جريح جعلها تنتفض. على رصيف الحانة، خبأت فيرجيني سوسيني رأسها بين يديها، تصرخ وتشهق وتترنح من الأمام إلى الوراء، ولم تكن تسمح لأي شخص من الاقتراب منها. على ما يبدو، قام برنارد غراتاس في لحظة اعتزاز بكرامة هزّته على غير عادته، رفض الانسياق إليها، مطالباً إياها فوق ذلك وبنبله الكبير أن لا تتوقف عن معاملته كالخنزير من الآن فصاعداً، وفيرجيني التي ظلت في بداية الأمر بدون أيّ ردّ فعل، تأرجحت فجأة في أزمة هستيرية يستحق عرضها في مسرح سالبتريه، لا شيء ينقص المشهد، لا التقلصات العضلية، ولا التشنجات، ولا حتى الجمهور المتيقظ والنبيه، صرخت تقول إنها تريد أن تموت، وإنها جسد بدون روح منذ زمن، وصرخت منادية اسم غراتاس، وهي تقول: إنها بحاجة إليه، وهو خبر في غاية الأهمية، رغم كونه غير منتظر، الشيء الذي أضفى مسحة درامية على المشهد، آه، إنها بحاجة إليه، تريده، لماذا هو لا يريدها؟ كانت قذرة، قبيحة، تريد الموت، وعندما اقترب منها غراتاس مذهولاً ومتأثراً، وأمسك بيدها، قفزت إلى رقبته تريد تقبيله بملء فمها، دون أن تتوقف عن البكاء، وبادلها بالقبلة المشتعلة والمتوقدة ذاتها بحيث إن ليبيرو طلب منهما بصلافة أن يذهبا بعيداً عن حانته ويمارسا فسقهما. تبادل آخر الزبائن الأحاديث الجادة،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

جُنت فيرجيني، وغراتاس آخر جبناء الغلوازيين[1]، بات ذلك مؤكداً الآن، وكل الناس يضحكون على ذلك لكن جوديت، لم تضحك. وسعت أوريللي إلى طمأنتها.

ـ ليس هكذا تسير الأمور كل ليلة، لا أعتقد ذلك.

في اليوم التالي، قبّلت أوريللي أمها وجدّها، ووعدتهما بالعودة لرؤيتهما قريباً، وكانت حزينة لمغادرتهما لكنها رغبت في استنشاق هواء نقيّ ورؤية ماسينيسا. وأوصت ماتيو أن يعتني بنفسه، وينتبه قليلاً إلى جوديت التي تركته إلى مصير غامض، وهي تودعه متمنيةً له عطلة سعيدة.

* * *

(١) Gaulois غلواز هم أصل الفرنسيين أي الأقوام التي سكنت في فرنسا قديماً.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لم يعد يتذكر لماذا اتصل بها في منتصف الليل كي يدعوها للالتحاق به. هل ربما أراد أن يثبت لنفسه أنه بعيد بما يكفي عن العالم الذي تمثله هي ليتوقف عن التخوف منه ولا يضطر بعد الآن للهروب منه، لم يعد هناك عالمان بل عالم واحد فقط، والذي يبقى موحداً سيداً في عظمته، وهو العالم الوحيد الذي ينتمي إليه ماتيو. لم يعد يخشى أن تجره جوديت معها أو تؤجج فيه الآثار المؤلمة لازدواجية قديمة العهد، أراد أن يظهر لها كما هو، كما كان يحلم أن يكون على الدوام، لكنها لم تكن تراه على حقيقته. كانت تتحدث له كما لو أنه لم يتغير أبداً، تواصل الحديث حول نقاشات قديمة لم يعد يفهم معناها، وكأنها تناقش شبحاً. روت له بدقة تفاصيل امتحاناتها الشفوية، رنّة الجرس في قاعة المحاضرات، ديكارت في الجامعة، وتحول السوربون الأليفة فجأة إلى معبد للقرابين، بموظفيها، وضحاياها، وقساوتها، وشهدائها ومعجزات المستحيل اللامعقول حيث كانت تخشى اختبار اللغة الألمانية، وتصلي كي يكون سؤال الاختبار حول.موضوع شوبنهاور، وكاد يُغمى عليها

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

عندما قرأت اسم فريغه[1] على الورقة التي سحبتها بالقرعة، وحينها نزلت عليها الرحمة الإلهية، كل شيء بدا فجأة مألوفاً بالنسبة إليها، كأن إله المنطق شخصياً انحنى فوق كتفها، وأذعن ماتيو للأمر بصورة آلية، رغم أنه لم يرغب في سماع أي شيء عن فريغه، أو شوبنهاور أو عن جامعة السوربون، كان يفكر بايزاسكون التي لن يستطيع النوم معها لأنه يتوجب عليه أن يعود إلى بيت العائلة خلال إقامة جوديت، كي لا يتركها برفقة جده وأمه الحزينين، وهذا ما كان يتوق إليه في أعماقه، وكان ينتظر بفارغ الصبر اللحظة المباركة التي سيرافقها فيها إلى الطائرة. لم تكن تبدو هي بدورها سعيدة جداً في القرية، كانت دائماً تقترح مشاريع سخيفة لجولات ثقافية، تريد الذهاب إلى الشاطئ، وتقول إنها تجد فيرجيل أورديوني مخيفاً، وإن الكحول يسبّب لها صداعاً في الرأس. تحمّل ماتيو تلك التصرفات التي فهمها، وكأنها تلميحات واضحة على عدم ارتياحها بحيث انتهى به الأمر إلى تحميل جوديت مسؤولية تعاسته. لكن في ليلة ما شبيهة بلياليٍ أخرى، بقي بيير ـ إيمانويل جالساً في زاوية في الصالة، دون

(١) Frege فريدريك لودفيج غوتلوب فريغه (١٨٤٨ - ١٩٢٥) في باد كلينن بألمانيا، عالم رياضيات ومنطقي وفيلسوف ألماني. يُعدّ أشهر من اهتم بمنطق الرياضيات الحديثة والفلسفة التحليلية. وهو أحد أكبر المناطقة بعد أرسطو، أوكام وليبنتس. فهو الذي أنشأ المنطق الحديث وبالخصوص، الحساب القضوي الحديث وحساب المحمولات. كما أنه ابتكر لغة اصطناعية (بواسطة الرموز المنطقية التي ألهمت كل المنطقيات اللاحقة) وقام بالصياغة الصورية (أي التصوير أو الصورنة) للمنطق فجعله حساباً صورياً دقيقاً.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

سبب معين، بينما انهمكت الفتيات بتنظيف الصالة، وعندما انتهين من التنظيف، استدارت ايزاسكون نحوه، وذهبن جميعاً. شق سيل بطيء من الحمم البركانية طريقه في أحشاء ماتيو. ظل يركز نظراته على الباب، وكأنه يأمل أن يراهن يعدن من جديد، بينما وضعت جوديت يدها على ذراعه.

ـ هل تحب تلك الفتاة؟

كان سؤالاً غبياً، مطروحاً بشكل سيء، لا يستطيع الإجابة عنه لأنه شعر أن الحب والغيرة لا علاقة لهما بالألم الذي يحرقه الآن بشكل غير محتمل، ايزاسكون كانت بالنسبة إليه مثل أخت، إنه يتذكر ذلك، أخته اللطيفة، والتي ارتكب معها زنا المحارم، في الحانة، لا يلمح لها أبداً بأيّ علامة حب، لم يكن بحاجة أن يحدد علناً مكان نفوذه كما يحب معظم الرجال فعله، ولا أحد كان يفكر، وهو يلاحظ من تصرفهما وجود علاقة ما بينهما، ولم يكن الشيء الذي بينهما سوى حميمية النوم المشترك، وطقوس مشتركة يقومان بها لطمأنة استقرار العالم؟ باسم من كان سيشعر بالغيرة؟ ويتذكّر دائماً: ماذا يمكن أن يؤخذ منه، ولن يعود إليه في النهاية؟ لكن أصبح مستحيلاً بالنسبة إليه أن يشعر كالسابق، إنه فوق كل شيء، وإنه لا يُقهر، أسس العالم تزعزعت، وأصيب بالتصدعات والشقوق، وفي اليوم التالي، أرسلت ايزاسكون نظرات رطبة باتجاه بيير ـ إيمانويل خلال السهرة كلها، وحتى قطعت عملها من أجل أن تأتي وتقبله وتلتصق به، رغم

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تأنيب ليبيرو لها، وتجيبه ساخطة عليه، مهمهمة بكلمات نابية باللغة الإسبانية، واضطر ماتيو أن يعترف في أعماقه أنه سيموت بكل تأكيد من الحب والغيرة، رغم أنه لم يعد يعرف أن أخته في قمة الشبق والشهوة، متلألئة ومشعة، وهي تستعرض عواطفها ليلة بعد أخرى. وعرف جيداً أنها لن تعود إليه، لم يكن قادراً على منع نفسه من التفكير بالمهارات الجنسية لبيير ـ إيمانويل، ويرى صوراً واضحة، لا يمكن تحمّلها، سمع صرخات وتأوهات ايزاسكون التي لم تصدرها معه من قبل، وأرجأ كل كراهيته إلى جوديت، والتي بوصولها أعطت إشارة نهاية العالم. وقد شكّلت جسداً غريباً، كان العالم يحاول طرده من خلال أحداث مباغتة عنيفة وكارثية. لقد انتهى عالم الكمال والانسجام. توالت الكارثة تلو الأخرى. انتظر ماتيو وجوديت أن ينتهي ليبيرو من حسابات الصندوق من أجل الذهاب وتناول كأس في الملهى الليلي، عندما ظهرت فجأة ريم بلباس داخلي، وقميص فقط وسط الصالة، مرتبكة تماماً، إذ اختفت كل نقودها، ادخار سنة كاملة من البقشيش، تحتفظ به في صندوق صغير أخفته تحت ملابسها، لا أحد كان يعلم بذلك، باستثناء سارة، وها هي لم تجد صندوقها، لا تتذكر بالضبط متى رأته للمرة الأخيرة، وتحدثت عن مشاريع ذهبت الآن أدراج الرياح، وعن أحلامها كفتاة، والتي لم يكلف أحد أبداً نفسه التفكير والاهتمام بأحلامها أو حتى بشكل أحلامها، احتاجت إلى من يمد لها يد العون، أرادت تفتيش الشقة بكاملها، من دون توجيه اتهام لشخص معين، لكنه لابد من وجود

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مذنب، وهي ترفض الاستماع إلى ليبيرو الذي يردد أن لا جدوى من ذلك، لكنها أصرّت على تفتيش الشقة حالاً، فقلبوا الشقة أعلاها إلى أسفلها، مفتشين في حاجيات ايزاسكون وأنيس اللتين لم يرق لهما التشكيك بنزاهتهما، رفعوا صناديق الكحول من المرأب والبار، من دون أن يعثروا على شيء، وكانت ريم تصرخ بأنه يجب مواصلة البحث. حاول ليبيرو أن يعّقلها لكنها لم ترغب بسماعه وانتهى به الأمر بالغضب.

ـ تباً. توجد هناك بنوك لإيداع النقود، أليس كذلك؟ يجب أن يكون المرء أبله كي يضع نقوده في المنزل! انتهى الأمر، لن تري نقودك ثانية، أفهمت؟ يمكن أن يكون الفاعل أي حقير نام معك، قد أكون أنا، إذا أردت، لكن هذا لن يغيّر شيئاً من الأمر، على أيّ حال، لن تري نقودك أبداً. أبداً.

طأطأت ريم رأسها وصمتت. لم يكن وارداً الآن الذهاب إلى الملهى الليلي. وفي طريق العودة إلى البيت، توقفت جوديت فجأة وأخذت تبكي.

ـ ماذا حلّ بك؟ هل تبكين من أجل ريم؟

هزّت جوديت رأسها.

ـ كلا. إنه بسببك أنت.. اعذرني.. يؤلمني كثيراً أن أراك في هذه الحالة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

استقبل ماتيو شفقتها كالإهانة، أسوأ إهانة وجهت له في حقيقة الأمر، وضغط على أعصابه من أجل أن يبقى هادئاً.

ـ سأرافقك إلى الطائرة. غداً.

جففت جوديت دموعها.

ـ نعم.

كان متأكداً بأنه لن يراها بعد ذلك أبداً. لم يكن يعرف أنه سيفهم لاحقاً كم أن تلك العبارات الجارحة تفيض بالحب لأنه لا أحد أحبه ولن يحبه أبداً مثلما فعلت جوديت، وبعد مرور أسابيع قليلة، في تلك الليلة التي ساد فيها السلب والدم والتي أحالت العالم إلى رماد، كان يفكر في جوديت ونحوها فقط كان يستدير مرة أخرى، دون التفكير في الوقت، حالاً بعد أن اتصل بأوريللي. لم يكن العالم يعاني من وجود أجساد غريبة بل كان يعاني من تعفن داخلي، مرض الإمبراطوريات العجوز، ولم يساعد جوديت في إصلاح أي شيء. في غضون أيام قليلة قدمت ريم استقالتها، ولم يفكر أحد في حثها على البقاء في وظيفتها. اكتأبت وحزنت بعد أن أصبحت علاقتها مع أنيس وايزاسكون مقيتة وسيئة منذ ليلة التفتيش عن السرقة، وربما لم تعد تتحمّل فكرة العيش مع الشخص الذي سرق منها مستقبلها. كلف غراتاس باستبدالها في العمل وتولي مسؤولية صندوق المال، ولكنه لم يكن من السهل عليه التركيز في عمله لأن فيرجيني جاء

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

على الدوام ليزعجه بمداعباته، لدرجة استوجب فيها الآن توكيل مهمة الحساب لزوجين اثنين، إلا أن جهودهما المشتركة أربكت سير العمل. أنهك ليبيرو عبثاً، واضطر إلى التدخل، باستخدام الوسائل كلها، والنبرات مترنّحاً من نبرة التوسل إلى نبرة التهديد. كان بيير ـ إيمانويل يتلذّذ في إثارة حنق ليبيرو، ويعطي أوامر إلى ايزاسكون، والتي كانت تطيعه باستعباد دنيء، كما لو أنه هو ربّ العمل، يستدعيها إلى الميكروفون من أجل أن تُدخل كامل لسانها في فمه، دون أن ينسى أن يربّت بقوة على مؤخرتها، ما دفع ليبيرو إلى حافة الانفجار.

ـ سأفجّر رأسه هذا الحقير في النهاية.

أتقن بيير ـ إيمانويل اللعبة الحقيرة، والتي صممها في عهد آني، والتي تتلخص في إيقاظ كبت المحرومين بتقديم عرض الإثارة الجنسية الخاصة، وفيرجيل أورديوني ضحيته المفضلة. أرهقه باعترافاته الجنسية، وطلب منه بشيء من السذاجة المزيفة عن الأشياء التي يمكن فعلها مع امرأة، إذا ما وجد نفسه وحيداً معها، مقدماً لفيرجيل التفكير في تشكيلة من الممارسات الجنسية الشبقية، والتي يسردها الواحدة تلو الأخرى سائلاً إياه أيهما تعجبه، ضحك فيرجيل واختنق بلعابه، لدرجة أصبح لونه بنفسجياً، واضطر ليبيرو إلى التدخل ثانية.

ـ هلّا تركته في حال سبيله قليلاً، تكلم؟

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

احتجّ بيير ـ إيمانويل، وبيّن حسن نيته، وهو يربت على كتف فيرجيل الذي هرع لنجدته والدفاع عنه.

ـ لا تهتم بالأمر ! إنه لطيف.

لم يكن بيير ـ إيمانويل لطيفاً، وقد عرف ليبيرو ذلك جيداً، لكنه لم يشأ أن يكون قاسياً، ويفتح عيون فيرجيل على الطبيعة الحقيقية لمعذبه ثم عاد إلى البار، وهو يتمتم، مردداً بصوت خفيض.

- أيها السافل.

حمل ضغينته المريرة إلى أن حان موعد إغلاق الحانة. نزل إلى المدينة برفقة ماتيو، الذي كان يؤخر قدر الإمكان ساعة العودة إلى غرفة طفولته حيث حكمت عليه تغيرات تحولات ايزاسكون بالإبعاد والمنفى، وها هما يقومان بجولات على الملاهي الليلية، وينامان أحياناً مع السياح على الشاطئ أو في المرائب، ويعودان عند الفجر إلى القرية، سكارى مثل الخنازير، وجبهاتهما ملتصقة بواجهة السيارة والتي تتلوى على حافة الهاوية. في نهاية شهر أغسطس، اقترح فنسان ليندري عليهم تناول العشاء في مطعم، وعهدا بمسؤولية الحانة إلى غراتاس. كانت المدينة قد بدأت تخلو من سياحها، ونسمة هواء عليل تهبّ على الميناء، بدت الحياة ناعمة، وكانا مبتهجين ومرتاحين لقضاء ليلة كاملة بعيداً عن الحانة. لم يكونا منشغلين أو قلقين بما يمكن أن يقع في الحانة أو إذا قرر غراتاس وبيير ـ إيمانويل أن ينظما عربدة جنسية على طاولة البلياردو، بإمكانهما الانطلاق، إذا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

طلبا السماح منهم بذلك. أكلا وجبة الكركند، وشربا النبيذ الأبيض، واقترح فنسان عليهما تناول كأس في مؤسسة الصديق الذي قدم لهم آني. أن تغادر القرية من أجل التوجه إلى حانة عاهرات، لا تبدو فكرة خارقة، لكنهما وافقا استجابة لرغبة فنسان. استقبلهم الصديق مرة أخرى استقبالاً جيداً وقدم لهما قنينة شمبانيا على الفور. في ركن من الصالة، تحت الأضواء الخافتة، كانت الفتيات يتحدثن وينتظرن الزبائن. في تلك الأثناء، دخل رجل ضخم ثم جلس في الجهة الأخرى من البار، التحقت به إحدى الفتيات. مقتطفات من كلامهم تصل إلى أسماع ماتيو، فيما يحاول الرجل الضخم أن ينتشي بسرد حماقات بذيئة، وسرد نكات بائسة بلهاء، والتي تجيب عليها الفتيات بضحكات مفتعلة لدرجة أنها بدت شبه مجرّدة من الأدب، وفجأة تعرف ماتيو على صوت ريم التي ارتدت ثوباً أسود وحذاءً ذا كعبٍ عالٍ، تبدو ملامحها مشوهة تحت ألوان مساحيق التجميل. نبّه ماتيو ليبيرو لموضوعها، وكانا يستعدان للوقوف من على كرسييهما للذهاب إليها، وتحيّتها، لكن نظرة صارمة منها، استوقفتهما، استمرت لفترة، ثم أدارت نظرها ببطء، واستأنفت ضحكها وكأن شيئاً لم يكن. لم يتحركا. وأخذت الشمبانيا تفتر في الأقداح. طلب الرجل الضخم قنينة شمبانيا، وذهب للجلوس في مكان مغلق ومعزول. هيأت ريم الصينية، عليها قدحان، وإناء مكعبات الثلج، ثم ذهبت لتلتحق به. ونظرت إلى ماتيو وليبيرو للمرة الأخيرة قبل أن تسدل على الغرفة الصغيرة الستار الأحمر المخملي الثقيل.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- لنذهب.

في السيارة، سعى فنسان أن يظهر اطمئنانه، مبرراً أن الأمر طبيعي، وإنها تمتلك قوانين الحياة، ما من شيء يمكن فعله، أو قوله حتى، من النادر أن تنتهي هذه الفتيات في قصر انجلترا، ليس مستحيلاً، لكنه شيء نادر الحدوث جداً، يمكن أن نكون غير راضين لواقع مثل هذا لكن لا يمكن لنا تغيير الأمور، ليس ذلك ذنب أحد. لكن هي الحياة. شّد ليبيرو فكيه بقوة.

- سينتهين جميعهن هكذا إلى المصير نفسه، جميعهن.

استدار نحو ماتيو.

- نحن من خلقنا كل هذا.

خمّن ماتيو أن يكون ليبيرو على حق. الصانع ليس الرّب. لذلك لا أحد يعفيه من خطايا العالم.

* * *

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مضى الوقت.. لم يكن بإمكانه الالتحاق بها ليلاً وهو يسير بصمت في أروقة الفندق الحكومي المهجور، لم تعد تنتظر مجيئه بشوق ودقات قلبها تتسارع. أصبحت الآن اللحظات التي يتشاركانها مثقلة بالنظرات المصوّبة إليهما. كانا يمضيان من وقت إلى آخر النهار في تيبازا، من أجل الابتعاد عن الجزائر. ويتوقفان للأكل في بو- هارون، والشمس تطبخ أحشاء الأسماك البنفسجية المصطفة فوق أحجار رصيف الميناء، وأقل نسمة هواء تحمل إلى شرفات المطاعم عاصفة من الروائح النتنة، لكنهما كانا يواصلان الأكل رغم ذلك، ويملآن كؤوسهما بالنبيذ الأحمر المعبأ في قناني الكوكا كولا. وفي الظهيرة، يسيران سوياً في الموقع، يدوسان أحياناً واقيات ذكرية مستعملة، تركها زوجان لا يملكان مثلهما غرفة لاحتواء شهوتهما الجنسية، لكنهما لم يكونا يسعيان للبحث عن تقليد النزق نفسه، وممارسة الجنس لأن ما يمكن وصفه كخرق جميل لعلاقة حب، لا يعدو هنا إلا أن يكون تلبية لحاجة ملحة وقذرة. أشرف شهر أغسطس على الانتهاء، شهر القيظ الساخن، شهر أحشاء الأسماك والرطوبة،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

شهر دون حب. أدركت أوريللي بأنه لا يوجد هناك سوى مكان واحد يمكنها أن تعيش علاقتها مع ماسينيسا بحرية، وهذا المكان ليس فرنسا، ولا الجزائر، بل هو مرتبط بالزمان، وليس بالمكان، مكان لا يقع في حدود هذا العالم. قطعة من القرن الخامس، ما زال موجوداً بين الأحجار المنهارة في عنابة، ظل القديس أوغسطين يحتفل بالزواج السّري لهؤلاء الذين كان يحبهم، والذين لم يستطيعوا الارتباط بأي مكان آخر. بدا الحزن على وجه أوريللي، ولم تكن قط مستعدة للانطلاق في الحب، كرهت الانغماس في الأحاسيس، لكنها رغبت في معرفة إلى أين يمكن أن تقودها هذه القصة. استعدت أن تتحمل جميع أعباء فشلها، يكفي أنها صادرة منها، فمن المضني أن تخضخ أمام قسوة الأحداث الحقيقية، وليست مسؤولية شخص معين لأنه لم يكن أمامها سوى خيار واحد وهو الاستسلام. وها هو الجدار الزجاجي يرتفع حولها من جديد، ولم تستطع بعد اجتيازه أو تحطيمه، رغم أنها تحوّلت إلى رغبتها الكبرى. دعاها ماسينيسا لكي يتناولا أسياخ اللحم المشوي في منطقة دراريا، جلسا في قاعة عادية في مطعم شعبي، يقدم خدمات سريعة وفعالة، ولم يستغرق تناول الوجبة أكثر من ربع ساعة، والتي حاولا إطالتها باحتساء الشاي بالنعناع ببطء، ودفع ماسينيسا الحساب، وهو يقود سيارته في الجزائر، وعند الحواجز، كان رجال الشرطة يقومون بفحص أوراق هويتيهما، وهم ينظرون إليهما بنظرة ازدراء ومكر، ثم قادها إلى الفندق حيث لا يستطيع الالتحاق بها. رغبت دعوته بدورها إلى المطعم الصيني

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في فندق «الجزائر»، في سهرة فظيعة. تخلت أوريللي عن إعادة قنينة النبيذ الثالثة نوع «ميديا» مغلقة. ماسينيسا، والذي كان في بادئ الأمر مذهولاً، بدأ يلقي نظرات غاضبة على النادل الذي وضع على الطاولة ملفوف الدجاج، والذي رمقهم بابتسامة غريبة ومقيتة. تيقن ماسينيسا بأنه يتهكم عليه، خاطبه بـ«السيد» مشدّداً على كلمة «السيد»، من أجل أن يجعله يشعر أنه لا يعدو أن يكون سوى بدوي يدّعي التحضّر، رغم مرافقته للفتاة الفرنسية، واستبد به الغضب أكثر فأكثر.

- أنت لا تعرفين هؤلاء الحقراء، واحتقارهم، إنه يفتخر بمهنته كخادم.

لم يلمس محتوى صحنه، وفي نهاية الأمر طلبت أوريللي الفاتورة، ودفعتها بالبطاقة الائتمانية. مّد النادل الفاتورة لماسينيسا كي يوقّعها، وهو يبتسم، فمسكه ماسينيسا بسرية من سترته، وتفوّه ببعض الكلمات العربية. توقف النادل عن الابتسام. ذهبا سويّاً إلى سيارتهما. لم يتوقف ماسينيسا عن اجترار مرارته.

- لا أستطيع أن أدفع لك حساب مطعم كهذا، فالدخول إليه يكلف خمسمائة دينار. على أيّ حال. إنها ليست الأماكن التي ارتادها.

فهمته أوريللي، وضمته إليها في السيارة. نجحت في إقناعه أن تدفع له إيجار غرفة في الفندق ذاته الذي تقيم فيه، حتى يتمكّنا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

من قضاء الليلة سوية، سيتظاهران بأنهما لا يعرفان بعضهما البعض، سيلتحق بها بهدوء، مثلما فعلا في عنابة، لكنها رأت جيداً بأنه يستحي جداً من وضعيته كرجل تُنفق عليه امرأة، وشعرت أن هذا الخجل أتلف رغبته في اللحظة ذاتها التي ضمّها بين ذراعيه. في غضون يومين، ذهب إلى والديه، كما يقتضي الأمر. لقد انتهى التنقيب، وعادوا جميعهم ببطء إلى عوالمهما الخاصة، ومدّوا أيديهم إلى بعض من فوق هوة عميقة لا شيء قادرٌ على ملئها. من الوهم أن نعتقد بأننا قادرون على اختيار أرض النشأة. لم يكن لأوريللي أيُّ علاقات مع هذا البلد، لولا الدماء التي سكبها جدها أندريه ديغورس على أرضها، وكذلك عدم العثور على رفات مجهولة لقديس قديم مات منذ قرون مضت. قدمت موعد رحيلها ورتبت حقائبها دون أن تقول شيئاً لماسينيسا. ماذا كانت ستقول له؟ كيف يمكن مغادرة شخص رائع، نتمنى لو أننا لن نغادره؟ ماذا كانا بإمكانهما فعله سوى تبادل التفاهات؟ كانت تخشى، لو رأته ثانية، أن رغبتها في البقاء أطول معه، ستجعلها تؤجل موعد رحيلها دون جدوى. لم تترك له أيّ رسالة. لم ترغب بترك شيء له، سوى غيابها لأنها تعرف أن بغيابها ستلاحق ماسينيسا طول حياته، كما ما زالت قبلة أميرة غابرة تلاحق ملك نوميديا الذي يحمل اسمها. اتصلت هاتفياً بأمها تخبرها أنها ستصل إلى باريس في المساء نفسه. في المطار، لم تسمح لنفسها القيام بأي احتفالية في إتمام معاملات الرحيل. كانت ترسل نظراتها

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

من كوة السفينة إلى جزيرة بيلاريس[1]، وعندما لمحت ضفة فرنسا، مسحت عينيها المحمرتين. وقد حضّرت له كلودي وجبة طعام.

هل أنت بخير، أوريللي؟ تبدين مرهقة.

أجابته أن كل شيء على ما يرام، قبّلت أمها، وذهبت لتنام في غرفة طفولتها. عند الساعة الرابعة فجراً، انتزعتها رّنة هاتفها المحمول من حلم كانت ترى فيه رياحاً غريبة تهب فوق جسدها، وتدفنه ببطء تحت الرمال، عرفت أنه كان يجب أن تسرع وتختلي بنفسها لكنها لم تكن ترغب انتهاء مداعبة الرياح الدافئة لها، والناعمة لدرجة لا تزال تفكر فيها، وهي تمسك هاتفها للرّد على المكالمات. سمعت لُهاثاً ونحيباً وفُواقاً ثم صوت ماتيو.

- أوريللي! أوريللي!

كان يكرّر اسمها ولا يتوقف عن البكاء.

* * *

(١) Baleares بيلاريس: الاسم الأسباني للجزر الأيبيرية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لم يعد هناك حشد من البربر. ولا فرسان فنداليون أو من ويسيغوث[1]. لكن ببساطة لم يكن ليبيرو يرغب بتولي أمور الحانة. كان ينتظر نهاية الموسم، أو منتصف الخريف، من أجل التخطيط للعثور على عمل جديد للفتيات، ويساعد أخاه سوفير وفيرجيل أورديوني في الحظيرة، أو يلتحق ثانية للدراسة، لم يكن يعرف بعد، لكنه يعرف أنه لا يرغب العمل بعد في الحانة. لم يكن يحب ما آل إليه. شعر ماتيو بأنه تعرّض للخيانة. وماذا سيفعل هو؟ هزّ ليبيرو كتفيه.

- هل ترى نفسك مستمراً بالعيش هنا والأيام تمر؟ الفتيات اللاتي يوجدْنَ، هنّ دائماً الفتيات المسكينات أنفسهن. المحبطات أنفسهن على شاكلة كولونا. السكيرات. المدمنات. إنه عمل حقير، يصنع التفاهة. أنت لا تستطيع أن تعيش في التفاهات البشرية، كنت

(١) wisigoth: شعب الغوث، هو من الشعوب الشرقية الجرمانية، وبشقّيْه فيسيغوث وأوستروغوث أدّى دوراً مهماً في سقوط الإمبراطورية الرومانية وظهور أوروبا القرون الوسطى. بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية قام القوط الغربيون بدورٍ مهمّ في أوروبا الغربية لمدة تصل إلى قرنين ونصف.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أؤمن أن هذا ممكن، لكنك لا تستطيع، لأنك تصبح بدورك أكثر بلادة من الطبيعي. هذه هي الحقيقة، ماتيو، هل ترى نفسك هنا؟ بعد خمسة أعوام؟ عشرة أعوام؟

لكن ماتيو رأى ذلك ممكناً ويجد نفسه بخير. حتى أنه كان جدياً غير قادر على تخيل مستقبل مختلف. الموسم صعب، في حقيقة الأمر، ولهذا فالأسوأ خلفهما. لا يمكنهما التخلي عن كل شيء بهذه البساطة، وما فعلاه للقرية يعتبر جيداً في الواقع، كل شيء كان ميتاً من قبل، وقد بعثا الحياة هنا، أصبح الناس يأتون إلى القرية، سعداء، لا يمكن أن ندمر كل شيء في لمحة بصر، مجرّد أن الموسم صعب.

- الناس الذين تتحدث عنهم، سذج يأتون هنا لإنفاق كل نقودهم، لمضاجعة فتيات لن يضاجعوهن أبداً، بلداء لدرجة أنهم لا يستطيعون حتى الذهاب إلى العاهرات مباشرة. وأتساءل مع نفسي إذا ما كنت أفضل المكان ميتاً. وفوق كل هذا أشعر أنني تعبت. وأريد أن أنظر إلى نفسي في المرآة.

لكن ما هي هذه القصة التي تقتضي عدم القدرة في النظر إلى المرآة؟ هل إنهما مسؤولان عن بؤس العالم؟ لم يكونا لا من قطّاع الطرق ولا القوادين المتاجرين بالجنس، وحتى لو أغلقا الحانة، فتيات كثر سيواصلن ممارسة الدعارة. ماذا كان بإمكانهما عمله إذا اختارت ريم مهنة الدعارة وحققت رغبتها في آخر المطاف؟ هل لديهن جميعاً ميل لممارسة العهر مثل ايزاسكون؟

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- لا تقل تفاهات مثل هذه يا ماتيو. أنت.

كانت تلك آخر ليلة سبت من شهر أغسطس. جاء أصدقاء بيير - إيمانويل من أهالي منطقة كورتين للمشاركة في أمسية موسيقية. كانوا ينظمون الأجهزة الموسيقية على رصيف الحانة، بينما الزبائن يستعدون للجلوس وفيرجيل أورديوني يخرج شرائح اللحم المقدد من شاحنته الصغيرة. عند منتصف الليل، وضع الموسيقيون آلاتهم، وغادروا المسرح تحت تصفيق الجمهور. جلسوا بعد ذلك عند البار بجانب فيرجيل الذي يحتسي شراباً في الزاوية بانتظار مجيء ليبيرو لمرافقته عندما يسمح له وقته بذلك. ربّت بيير ـ إيمانويل على كتف فيرجيل.

- يسعدني أن أراك! بيرنارد، قدم شراباً لي ولصديقي فيرجيل!

كان ليبيرو يتحدث على رصيف الحانة مع عائلة ايطالية. ويلقي بين الحين والآخر نظرة إلى داخل الحانة. عندما مرّت ايزاسكون بالقرب من بيير - إيمانويل حاملة صينية، أمسك خصرها وقبلها على رقبتها. وأطلقت صرخة صغيرة حادة، دخل على إثرها ليبيرو.

- ايزاسكون، قومي بعملك، تباً لك! هناك ناس ينتظرون. بيرنارد، اذهب واهتم بالسندويتشات على رصيف الحانة، سأقوم بعمل ذلك بدلاً عنك.

جلس ليبيرو إلى المقعد وراء صندوق الحسابات وانحنى نحو بيير - إيمانويل.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- قلت لك مائة مرة: دعها تعمل، وانتظر إلى أن تغلق الحانة كي تضاجعها، ليس هذا من الصعب فهمه، على ما يبدو لي؟

رفع بيير - إيمانويل يده في إشارة إلى الاستسلام.

- آه! كم هو صعب أن تكون عاشقاً! هل سبق لك أن كنت عاشقاً، فيرجيل؟ هيا احكي لنا.

وأصرّ الأصدقاء من أهالي منطقة كورتين بدورهم على سماع قصة عشق فيرجيل أورديوني الذي ضحك قائلاً بأنه لا يمتلك قصة يحكيها، لكنهم أخذوا يصرّون عليه، هذا ليس حقيقياً، كانوا واثقين من أن فيرجيل رجلٌ يفتن النساء، أليس كذلك، يا فيرجيل؟ آه، كان بإمكانه أن يعترف لهم بلا خجل، هم أصدقاؤه، كيف هن النساء اللاتي حظي بهن؟ باللعب على الكلمات؟ عن طريق الرقص ربما؟ نعم! هو الشعر! كان يكتب لهن الشعر، أليس كذلك؟ هيا، كانوا يريدون أن يعرفوا، يريدون قصة واحدة فقط، قصة واحدة سترضي فضولهم، ليس ذلك بطلب كبير، يمكن أن يبوح بأي شيء للأصدقاء، أو ربما يحتاج لجو آخر لأنه رجل خجول، عليه إذاً مرافقتهم إلى المرقص، أمام قنينة نبيذ جيدة، حينها سيسرد بالتأكيد كل شيء. أليس كذلك؟ كيف أغواها؟ ماذا فعل لها في الفراش؟ هل كانت تصرخ؟ المشكلة أنهم لن يسمحوا له بالدخول إلى المرقص بهذا الشكل، ليس بحذائه الجبلي العالي، هذا مستحيل في شتى الأحوال، ولا بالبزة العسكرية، هذا غير جائز بتاتاً، هناك قوانين صارمة، لا يمكن الاستخفاف بها،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وفوق كل ذلك لم يكن من الحكمة إدخال رجل ساحر للنساء مثل فيرجيل إلى الملهى الليلي، لأنه سيغوي وفي أقل من ثانية جميع النساء المتواجدات بحيث لن تبقى واحدة للآخرين! يجب ترك نساء للآخرين! وليس الاحتفاظ بهن جميعاً لشخصه فقط، لابد له من القيام بعمل إيثاري كذلك، خصوصاً لصالح أناس قطعوا مسافات طويلة من منطقة كورت، ليس من اللائق أن تحرمهم من فرصتهم، في هذه الحالة فهم لن يعودوا ثانية، لم تكن فكرة صائبة أن يرافقوا فرجيل إلى الملهى الليلي، وفيرجيل كان ولا يزال يضحك، ويقول إنه مستعد لسرد قصة إذا كان لديه ما يحكيه. تنهد ليبيرو:

- هذا يسليكم؟ ألا تتمكنوا من تركه وشأنه؟

- أوه! تباً! إننا نمزح! نحن نحب فيرجيل!

أجل، إنهم يحبونه، لكنه لم يبادلهم محبتهم بصراحة شعوره، بل أخفى عنهم أشياء، بإمكانه أن يتحدث لهم عن خطيبته، ويحتمل أن يكون لديه خطيبة في الجبل، لتبعث الدفء إليه في فصل الشتاء الطويل، راعية غنم بدينة مليئة بالشحم، مثلاً، وتفوح منها رائحة الماعز، لا بدّ أن لديه قصة يخبئها في مكان ما. أليس كذلك يا فيرجيل؟ أو إنه لا يحب البدينات دون الحديث عن مشكلات الشعر لديها، هذا، وبطريقة مؤدبة، راعية غنم بدينة، تفوح برائحة الماعز ولا تحلق عانتها، في حالة كهذه، لا يمكن فعل أي شيء عليك أن تتحمل الوضع! أنت تفضل أن تتشبث برقبتها بدلاً من أن تنام

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

معها، شيء مفهوم، هذا هو الأمر عندما يكون المرء رقيقاً، يفضل الصغيرات، الطازجات، وحليقات الأفخاذ، والساقين، والعانة وكل شيء، إن ذلك أفضل بكثير، وبدأ بيير - إيمانويل في مدح ايزاسكون، عانة حليقة فظيعة، ملساء كراحة اليد، جلد ناعم مثل الرضيع، ودافئة، شيء لا يُصدّق، خصوصاً عند ثنية الفخذ، حيث الجلد ناعمٌ ورقيقٌ، هل فهم فيرجيل موضوع الحديث، جلد ناعم للغاية، ونشعر بحرارته عندما نضع عليه الشفتين. ضحك فيرجيل بتوتر، وأخذ يخفّض عينيه ويتقلّص في زاويته، ضرب ليبيرو البار بقبضة يده، لكن بيير - إيمانويل استمر في الحديث، انحنى على فيرجيل، وأخذ يهمس في أذنه، شيء لا يُعقل كم أن ايزاسكون ناعمة بهذا الشكل، هذا ما يجعلك ترغب في الصراخ من شدة اللذة، هل يمكن لفيرجيل تخيّل ذلك؟ هل يستطيع تخيّل ذلك؟ أحد أهالي منطقة الكورتيين، أطلق صرخة انتشاء بصوت عال، وآخر انفجر ضاحكا قائلاً:

- كيف تريده أن يتخيّل؟

أخذوا جميعهم يضحكون بينما خار فيرجيل على مقعده مع بقايا ضحكته التي انحصرت في بلعومه مثل الأنين. كانت الساعة حينذاك تشير إلى الثانية صباحاً. وأصبحت الحانة خالية. والفتيات ينظفن الطاولات. صرخ فجأة ليبيرو.

- هذا يكفي!

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كانت عيناه جاحظتين.. لم يكن يعرف بيير - إيمانويل مدى جديّة الأمر. مسك بكتف فيرجيل الذي ظل جامداً.

- هل أنت أمه أم ماذا؟ إنه ليس بحاجة إليك، فيرجيل! رجل عنده ما يكفي...

- أنت حقير كبير.

اقترب ماتيو ورأى يد ليبيرو اليمنى تفتح الدرج الموجود تحت الصندوق.

- أنت حقير وستخرج حالاً من هنا أنت وشلتك الحقيرة...

- أوه! هلا تكلمت بطريقة أحسن!

...قلت أنت وأصدقاؤك الحقراء يعني أنت، وأنت، وأنت، إذا لم تع قصدي، هؤلاء الحقراء الثلاثة هناك، سيخرجون من هنا، انظر جيداً إلى الحانة، انظر جيداً، لأنك ستخرج منها، وطالما أنا موجود، لن تضع قدميك داخلها ثانية، وإذا ما قررت أن تتعدى خط هذا الباب، هل تسمع، عندها، وفي اللحظة التي ستضع فيها قدميك على الأرض، سأقتلع رأسك، وإذا ما فكرت أنني أمزح، جرّب مصداقية ما أقول الآن، أخرج من هنا وحاول الدخول ثانية، أيها الحقير! جرّب ذلك!

ظل بيير - إيمانويل وأصدقاؤه واقفين للحظة في وجه ليبيرو الذي أصبحت يده داخل الدرج الآن.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- هيا، لنذهب.

أمسك بيير - إيمانويل ايزاسكون بين ذراعيه وقبّلها طويلاً، تماماً أمام فيرجيل.

- سألتحق بك في الشقة بعد قليل.

بينما كان يسير نحو الباب، لاحظ ماتيو أن يديه كانتا ترتجفان. وعندما وصل إلى مستوى الباب، استدار نحو ليبيرو قائلاً.

- إحرص أن تترك يدك في الدرج. إحرص على ذلك جيداً.

- إذا ما عدت بدون أصدقائك، فلن أحتاج لذلك بالتأكيد. لا تقلق عليّ.

وضع ليبيرو يديه على البار وتنفس الصعداء بعمق.

- هيا، لننظف كل شيء ونغلق الحانة.

دخلت ايزاسكون إلى الحانة، حاملة صينية مليئة بالكؤوس الوسخة، ووضعتها على البار. رمقها فيرجيل وشفتاه متدليتان وعيناه خاويتان. تلاقت نظراتهما، وبدأت تشتمه بالأسبانية. قال له ليبيرو إن عليه الإيواء للنوم، ثم قام من وراء البار وأخذ بذراع فيرجيل.

- هيا، تعال معي.

أجلسه في الهواء الطلق البارد خارجاً على رصيف الحانة، وحمل له كأساً من المشروب. ظل فيرجيل ساكناً، وجلس ليبيرو

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

القرفصاء بجواره وتحدث إليه طويلاً، تكلم اليه باللغة التي لم يفهمها قط ماتيو، لأنها ليست لغته، تكلم معه بصوت حنون مليء بالصداقة، وهو يمسك بيده بقوة، صداقة لا بداية لها ولا نهاية. كان فيرجيل يهزّ رأسه بين حين وآخر. تركه ليبيرو وحيداً على رصيف الحانة. وقال لغراتاس إن بإمكانه الذهاب للقاء فيرجيني ثم صبّ كأسين من المشروب. ومدّ بكأس لماتيو.

ـ لا أعلم، كانت فكرة صائبة أن أهينه بهذا الشكل.

ـ لم يكن لديّ خيار. ولا أهتم لهذا الحقير، إذا بحث عني، فسيجدني، وسأبرّحه ضرباً، سأقوم بذلك، حتى لو لم يرد ذلك.

كانت ليلة نهاية العالم هادئة. لم يكن هناك لا فارس فيندالي. ولا محارب فيسيغوث. ولا عذراء مذبوحة في المساكن الملتهبة بالنيران. كان ليبيرو يجمع حسابات الصندوق، والمسدس موضوع على البار. ربما فكر بحنين لسنوات دراسته، أو في النصوص التي كان يرغب بإحراقها على مذبح غباء العالم، والتي ما زالت أصداؤها تصل إلى مسامعه حتى الآن.

لأن الرّب لم يخلق لك إلا عالماً معرضاً للهلاك، وأنت كذلك موعود بالموت.

وقفت سيارة أمام الحانة. خرج منها بيير ـ إيمانويل وحيداً. وقف على الرصيف ونظر إلى ليبيرو من خلال الباب المفتوح. لكنه

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لم يحاول الدخول. مرّ بجوار فيرجيل أوردينيو، ولعب بشعره قائلاً بنغمة فكاهية.

ـ إنه موعد المضاجعة.

ثم سار نحو شقة النادلات. خفّض ليبيرو عينيه على الصندوق. في الخارج، سمعت ضربات صّماء، وصرخة أكثر حدة من ضجيج ناقوس خشبي في مأتم. خرج ليبيرو من الحانة راكضاً، والمسدس في اليد، يتبعه ماتيو. أضواء الشارع مطفأة لكنهم أبصروا تحت ضوء القمر، وسط الطريق، الظل الكثيف لفيرجيل ينحني على بيير ـ إيمانويل، يصرخ باستمرار. جلس فيرجيل على صدره، ماسكا بذراعيه بقوة بينما كانت ساقاه تضربان بعنف الإسفلت، فقد أضاع إحدى فردتي حذائه، انتفض من دون جدوى كي يحرر نفسه، وفيرجيل يصفّر من الأنف بشدة، مثل ثور هائج، وهو ينزل سرواله على فخذين قبل أن يمزق قماش لباسه الداخلي الرقيق، وكان ماتيو عاجزاً عن الحركة، يراقب المشهد بدون حراك مثل تمثال، وألقى ليبيرو بنفسه على كتفيّ فيرجيل محاولاً إزاحته صارخاً.

ـ فيرجيل! توقف! توقف!

لكن فيرجيل لم يتزحزح ولم يتوقف، بدا ينتفض مثل حصان، رمى بذراعيه إلى الوراء واستلقى ليبيرو على الطريق، وجه مرفوع إلى النجوم، سدد فيرجيل ضربات بقبضاته الضخمة المشدودة على

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ساقي بيير - إيمانويل، وحبس بيده الركبتين على الأرض بينما باليد الأخرى، فتح سكينته المطويّة وأخرجها من جيبه، وقف ليبيرو أمامه صارخاً.

ـ توقف! توقف!

لكن حركة السكين منعته من التقدم، ومرّ خلف فيرجيل في اللحظة التي بدأ فيها بيير ـ إيمانويل يصرخ بكل قواه، وهو يشعر بملمس الشفرة الباردة في أسفل بطنه، وبدأ الآن ليبيرو يطرق كتفي فيرجيل ورقبته بعقب المسدس، والذي ظل صامداً يواصل بحركات كبيرة، كما لو أنه يطرد ذبابة، قبل أن يشرع في التنقيب بأصابعه بين فخذي بيير ـ إيمانويل، الذي قرّب منه السكين قبل أن يتراجع لأن ليبيرو كان يضايقه، فرماه أرضاً بضربة سددها له بخلفية يده، سقط ليبيرو على ركبتيه وسمع بيير ـ إيمانويل يطلق صرخة مدوّية لا تشبه صرخة البشر، والتي جمّدت الدم في عروقه، ألقى نظرة متضّرعة نحو ماتيو الذي تجمّد في مكانه نهائياً، وبدأ يصرخ مرة ثانية.

ـ فيرجيل! أتوسل إليك! أتوسّل إليك!

لكنه صرخ عبثاً، مزّقت الصرخات الليل، ووقف ليبيرو فجأة منتصباً على رجليه شحن مسدسه وصوبه أمامه، وسدد رصاصة في رأس فيرجيل أورديوني الذي خّر جانباً. تسلل بيير ـ إيمانويل زاحفاً وكأنه يهرب من إطلاق النار وظل جالساً، سرواله مسحوب، ترتجف أعضاؤه، عاجزة عن التوقف. كانت ساقاه مخدوشتين وعلامة جرح

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

دام في منطقة عانته. اقترب ليبيرو من فيرجيل وسقط على ركبتيه. انتشرت قطع من مُخ ودم على الأسلفت، وكانت الجثة لا تزال ترتجف وتهتز، وسرعان ما توقفت. غطى ليبيرو عينيه وكتم شهيقاً. نهض للحظة كي ينظر إلى جرح بيير ـ إيمانويل، ثم استدار ليجلس بالقرب من فيرجيل، أخذ يده ورفعها إلى شفتيه. كان بيير ـ إيمانويل ما زال يئن، ومن حين لآخر، يقول له ليبيرو بهدوء.

ـ إخرس، لم تصب بشيء، إخرس! ويغطي عينيه وهو يشهق قبل أن يكرر.

ـ اخرس.

ورفع بغموض مسدسه نحو بيير ـ إيمانويل الذي كان منهمكاً بالترتيل.

ـ تباً، تباً، تباً، تباً.

دون أن يتوقف عن تكرار ذلك، نظر ماتيو إليهم جامداً في مكانه تحت القمر. ها هو العالم من جديد، تهزمه الظلمات ولم يبق منه شيء، ولا حتى أثر. من جديد، يصعد صوت الدم من الأرض نحو الرّب، وسط ابتهاج العظام المهشّمة، لأن الإنسان ليس بحارس لأخيه، وسرعان ما خيم الصمت وأصبح كافياً كي يُسمع نعيب البوم في الليلة الصيفية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

الفصل السابع

موعظة عن سقوط روما

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

جلست أوريللي بالقرب من السرير حيث يرقد جدها. يمكنه الآن أن يترك نفسه تنساق من دون خوف إلى أحلام احتضاره المظلمة، لأنها تترقب مجيء الموت، ولم يُظلم الإنهاك عينيها الحارستين. منح الأطباء لمارسيل أنطونيتي فرصة مميزة ليموت في بيته. وكان بإمكانهم مصارعة المرض ولكنهم لم يكونوا قادرين على قهر شيطان الشيخوخة الطاعنة، انهيار محتوم لجسد تالف. المعدة تمتلئ بالدم. القلب يتعب تحت وابل دقاته. عند كل شهيق، يُلهب الهواء النقي الجسد الجاف الناحل الذي يحترق رويداً رويداً وببطء مثل دخون عطر «ريزين دي ميريه»[1].

تأتي ممرضة مرتين في اليوم كي تغيّر حقنة التغذية، وتقيس مدى تردي صحته. تحمل فيرجيل سوسيني من الحانة وجبات الأكل التي يحضّرها بيرنارد غراتاس لأوريللي. توقف مارسيل كلياً عن الأكل منذ عشية الأمس. كلودي وماتيو استقلا الطائرة ليصلا في

(١) Resine de Myrrhe: عطر المتصوفة، يعمل على الحماية من الأرواح الشريرة، ويستخدم في العلاج والتأمل ولحظات الراحة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

اليوم نفسه. فضّلت أوريللي أن لا يأتيا لكن ماتيو أصرّ على المجيء. بقيت جوديت وحيدة في باريس مع الأطفال كما يتطلب الأمر. خلال ثماني سنوات، لم يأتِ إلى كورسيكا إلا مرة واحدة، من أجل الإدلاء بشهادته في قضية ليبيرو في محكمة أجاكسيو، لكن قدميه لم تطآ القرية. لم يتغيّر شيء فيه. لا يزال يعتقد أنه يكفي أن يبدل مسار نظره من أجل أن يلقي إلى العدم بفترات كاملة من حياته الخاصة. يعتقد دائماً أن كل ما لا يراه هو غير موجود. وربما إذا استمعت أوريللي إلى دواخلها، لنصحتْه أن يبقى هناك في مكانه حيث كان موجوداً. لكن فات الأوان. كان بإمكانه أن يعفي نفسه من المجيء إلى هنا للعب كوميديا التوبة والافتداء لكنها لم تقل شيئاً وجلست تنتظر. نوافذ الغرفة نصف مغلقة. لم تكن أشعة الضوء المفرطة تجرح عيني جدها. كما لم تكن تريد أيضاً أن يموت في دياجير الظلام. كان يفتح عينيه ويدير رأسه نحوها من حين لآخر. وتمسك هي بيده.

- عزيزتي. عزيزتي.

لم يكن خائفاً. يعرف أنها هنا، تحرس من أجله مجيء الموت الهادئ، ويستسلم للنوم على وسادته. لم تترك أوريللي يده. ربما قد يصل الموت قبل مجيء ماتيو وكلودي، تكريماً لعلاقتهما الحميمة، وعندما ستكون هنا، ستحمل مارسيل، وفي الوقت نفسه، ستحمل معه العالم الذي لم يعد يعيش إلا في أعماقه. ومن هذا العالم، لن يبقى سوى صورة، التقطت في صيف ١٨١٨، لكن مارسيل لن يبقى

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

هنا كي يراها. لن يكون هناك طفل يرتدي بذلة البحرية، ولا طفلة في الرابعة من عمرها، ولا أي غياب مبهم، بل فقط رسوم غامضة لبقع ساكنة لن يفهم أحد معناها. نحن لا نعرف في حقيقة الأمر، ما هي هذه العوالم. لكننا يمكن أن نرقب علامات نهايتها. انطلاق عدسة كاميرا في ضوء الصيف، يد ناعمة لفتاة منهكة، تعانق جدها، أو شراع مربع لسفينة تدخل إلى ميناء عنابة، تحمل معها من إيطاليا، خبراً لا يُصدق عن سقوط روما.

خلال ثلاثة أيام، نهبت قوات فيسيغوث دالاريك[1] المدينة، وجرجروا معاطفهم الطويلة الزرقاء في دماء العذارى. عندما علم القديس أوغسطين بذلك، لم يتأثر إلا قليلاً. كان قد كرس جهوده منذ سنين يصارع غضب الدوناتيين المنشقين[2] عن الكنيسة، وعندما هزموا الآن ها هو يكرس كل جهوده لإعادتهم إلى الكنيسة الكاثوليكية. إنه يعظهم عن فضيلة التسامح ويوصي بها لمؤمنين ما زالت تشتعل قلوبهم بروح الانتقام. لم يكن يهتم بالأحجار التي تنهار. لأنه بالرغم من أنه أبعد عن نفسه، وبرعب شديد، هرطقات سنوات شبابه المذنبة، ربما قد احتفظ في أعماق نفسه بتعاليم

(١) Wisigoths d'Alaric: اشتهر دالاريك باعتباره ملكاً للقوطيين ٣٩٥ - ٤١٠. واشتهر هذا القائد بنهب روما سنة ٤١٠، التي اعتبرت حادثة مهمة في انهيار الإمبراطورية الرومانية.

(٢) donatiste انشقاق عن الكنيسة المسيحية في أفريقيا الشمالية في القرن الرابع والتي ترأسها الأسقف دوناتوس مانيوس.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ماني[1]، والتي تتجلى في الإيمان العميق أن هذا العالم سيء ولا يستحق أن نذرف الدموع على نهايته. أجل العالم مليء بظلمات الشّر، إنه يؤمن بذلك منذ الأزل، لكنه يعرف اليوم أن كل روح حيّة، لا يمكنها أن تمس بوحدة الإله الخالد، لأن الظلام ليس إلا مجرّد انعدام النور، بنفس الطريق، فالشر هو مؤشر فقط على انسحاب الرّب خارج العالم، هو مؤشر إلى المسافة اللانهائية التي تفصلهم، والتي وحدتها الرحمة الإلهية ويستطيع أن يملأها من خلال مياه التعميد النقيّة، ليهوى العالم في الظلمات، إذا ما انفتحت قلوب الناس لنور الرّب، وكل يوم، يأتي اللاجئون حاملين إلى أفريقيا سُمّ خيبتهم. الوثنيون يتهمون الرّب أنه لم يقم بحماية مدينة أصبحت مسيحية. ومن دير بيت لحم، تدوّي تضرعات جيروم ونحيبه الوقح على المسيحية، إنه يتحسّر من كل قلبه على مصير روما التي سُلمت إلى لهيب النيران، وإلى هجوم البرابرة، وفي خضم حزنه الذي

(١) Mani ماني: ولد ماني سنة ٢١٦ في العراق، وكان في ذلك الوقت جزءاً من الإمبراطورية الفارسية، وكان ماني فارسياً ومنحدراً من أسرة ملكية، وأكثر الفارسيين في زمانه كانوا يؤمنون بزرادشت. أما هو فقد نشأ في أسرة مسيحية وكانت له رؤى دينية، وهو في الثانية عشرة وكان يبشر بالديانة الجديدة ولم يوفق في أول الأمر في بلاده، ولذلك رحل إلى الهند ومصر، وهناك جعل أحد الحكام يؤمن به. ثم عاد إلى فارس في سنة ٢٤٢ حيث استمع إليه الملك شابور الأول وسمح له بأن يدعو إلى ديانته. وظل ماني يدعو إلى ديانته حتى عصر هرمز الأول أي نحو ثلاثين عاماً إلى أن ثار عليه كهنة الزرادشتية التي كانت الدين الرسمي للإمبراطورية الفارسية. وأعدم سنة ٢٧٦ ميلادي على يد الملك الفارسي بهرام في جنديسابور الإمبراطورية الساسانية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يدنّس طهارة المكان، نسي أن المسيحيين لا ينتمون إلى العالم، بل إلى خلود الأشياء السرمدية. في كنائس عنابة، هناك مؤمنون يحملون سوية ارتباكهم وشكوكهم ويتجهون إلى أسقفهم كي يعرفوا منه شخصياً بسبب أي خطيئة مظلمة استحقوا هذه العقوبة المهولة. لا يجب على الراعي أن يعيب على غنمه تخوفاتهم العقيمة، بل عليه أن يهدئ من روعهم. ومن أجل أن يهدئ من روعهم، تقدم القديس أوغسطين، في ديسمبر ٤١٠، نحوهم بخطوات في عصب الكاتدرائية، وأخذ موقعاً على المنبر الكنسي. جاء حشد كبير لكي يستمع إليه وينتظر، يتزاحمون ويضغطون على المذابح وسط ضياء الشتاء الناعمة، وفي هذه اللحظة ارتفع الصوت الذي سينتزعه من عذاباته.

استمعوا، أنتم يا من أعزّكم،

نحن المسيحيين نؤمن بخلود الأشياء السرمدية التي ننتمي إليها. لم يعدنا الرّب إلا بالموت والبعث. لا تغوص أساسات مدننا في الأرض بل في قلب المبشّر الذي اختاره الرّب لتشييد كنيسته لأن الرّب لا يشيّد لنا قلاعاً من الحجر، من لحم ورخام، يشيّد خارج العالم قلعة الروح المقدسة، قلعة من الحب الذي لن ينهار أبداً، ستظل قائمة إجلالاً له، عندما سيتحول القرن إلى رماد. لقد تم إسقاط روما وها هي قلوبكم تسخط وتستنكر. لكنني أسألكم أنتم، أيها الأعزاء، أن تيأسوا من الرّب الذي وعدكم بالخلاص والرحمة،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أليس ذلك هو العار والخزّي الحقيقيان؟ أتبكي لأن روما التهمتها النيران؟ ألم يعدكم الرّب بخلود العالم؟ سقطت أسوار قرطاج، وانطفأت نار بعل، ومحاربو ماسينيسا الذين دمّروا أسوار قسطنطينة اختفوا بدورهم، وتهاوت كالرمال. أنت تعلم ذلك، لكن تعتقد أن روما لن تسقط. ألم تُشيَّد روما بسواعد رجال مثلك؟ منذ متى تؤمن أن الرجال قادرون على تشييد الأشياء الخالدة؟ إن الإنسان يشيد الإنسان فوق الرمال. إذا أردت أن تضم كل ما شيّده الإنسان، لن تعانق سوى الريح. يداك خاليتان، وقلبك حزين. إذا أنت تحب العالم، وستهلك معه.

أنتم يا أعزاء.

أنتم أخوتي وأخواني وأنا حزين لرؤيتكم حزينين هكذا. لكنني أكثر حزناً عندما أجدكم صمّاً لا تسمعون كلام الرّب. ما يولد من الجسد يموت في الجسد. العوالم تمّر من الظلمات إلى الظلمات، عالماً بعد آخر، ومهما كانت روما مجيدة وعظيمة، فإنها تنتمي إلى العالم ويجب أن تهلك معه. لكن روحكم، المليئة بنور الرّب، لن تهلك، ولن تبتلعها الظلمات. لا تذرفوا الدموع على ظلمات العالم، وعلى القصور والمسارح المدمّرة. ليس في ذلك شرف لإيمانكم. لا تذرفوا الدموع على الأخوة والأخوات الذين انتزعهم سيف دالاريك منا. كيف لكم أن تطالبوا الرّب أن يتبرأ من موتهم، هو الذي ضحى بابنه الوحيد من أجلنا، من أجل غفران خطايانا وذنوبنا؟ إن الرّب

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يُنجي من يشاء. وهؤلاء الذين اختارهم للشهادة هم الآن مبتهجون لأنهم يعيشون خالدين في سعادة نور الرّب الخالدة، الشيء الوحيد الذي وعدنا به، نحن المسيحيين.

أنتم أيها الأعزاء،

لا تقلقوا أيضاً من هجوم عبدة الأوثان. مدن عديدة سقطت، ولم تكن مسيحية، ولم تكن أصنامها قادرة على حمايتها. لكن أنت، هل أنت تعبّد صنماً من حجر؟ تذكّر من هو ربك. تذكّر ما أخبّرك به، وهو أن العالم سيُدمر بالسيف ولهيب النيران، وعدك بالدمار والموت. لماذا أنت خائف عندما تتحقق النبوءات؟ قطع أيضاً وعداً بعودة ابنه العظيم إلى ساحة الدمار هذه، من أجل تأسيس مملكة النور الخالدة التي ستشارك في تأسيسها.

لماذا تبكي بدلاً من أن تبتهج، أنت الذي لا تعيش إلا في انتظار نهاية العالم، وأنت المسيحي فعلاً؟ ربما لا مجال الآن لا للبكاء ولا للبهجة. لقد سقطت روما. ثم سُلبت لكن الأرض والسموات لم تتزعزعا. انظروا من حولكم، أعزائي. لقد سقطت روما وكأن شيئاً لم يحدث في الحقيقة؟ لم يتزعزع مجرى الكواكب، الليل يعقب النهار، والنهار يعقب الليل، في كل لحظة، ينبثق الحاضر من العدم، ويعود إلى العدم، أنتم هنا، أمامي، والعالم يسير نحو نهايته لكنه لم يصل إليها بعد، ونحن لا نعرف متى سيصل إليها، لأن الرّب لا يكشف لنا كل شيء. وما يكشفه لنا كافٍ ليغمر قلوبنا ويساعدنا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

على أن نكون أقوياء عند الاختبار، لأن إيماننا الذي نستمده من حبه يجعلنا مصونين من الآلام التي يبتلى بها هؤلاء الذين لا يعرفون حبه. وهكذا نحتفظ بقلب نقي بفضل اتباع المسيح.

توقف أوغسطين للحظة عن موعظته. رأى وجوهاً منتبهة وصاغية وسط الحشد، بينها وجوه عديدة استعادت هدوءها وصحوتها. لكنه لا يزال يسمع نحيباً مختنقاً بمقربة منه، وبالقرب من المذبح، امرأة شابة تنهمر الدموع من عينيها. أب غاضب ألقى عليها نظرة حادة، رآها تبتسم له بغرابة من وراء دموعها، وقبل أن يستأنف الكلام، وجّه لها إشارة التبريك وبهذه الابتسامة أعاد التفكير، بعد عشرين عاماً، عندما كان ممدّداً على أرض صدر الكنيسة، بينما كان رجال الدين الإكليركيون جاثمين على ركبهم يصلون من أجل الرحمة على روحه، من دون الشّك في وجودها.

كان أوغسطين يحتضر في مدينته التي كانت قد استعمرتها منذ ثلاثة أشهر جيوش جينسيريك[1]. ربما لم يحدث أي شيء لروما في أغسطس عام ٤١٠ سوى زعزعة في مركز جاذبيتها، شرارة انقلاب خفيف، أدى اندفاعها في نهاية الأمر إلى تسارع الفنداليين إلى إسبانيا، ومن خلالها تسربوا إلى ما وراء البحار، وصولاً إلى أسوار عنابة. خارت قوى القديس أوغسطين. وأضعفه الحرمان لدرجة لم

(١) Genseric جينسيريك، ملك الفندال (٤٢٨ ـ ٤٧٧) أحد الملوك الذين ساهموا في زعزعة الإمبراطورية الرومانية الغربية في القرن الخامس.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يتمكن من النهوض. لم يعد يسمع صياح الجيش الفاندالي وصخبه ولا صوت التابعين المؤمنين المذعورين الذين لجأوا واختبأوا في الكنيسة. داخل روحه المنهكة، بدا وكأن الكاتدرائية أصبحت ملاذاً من نور وصمت، تحميه يد الرّب. قريباً سيهجم جيوش الفنداليين على عنابة. سيدخلون خيولهم، وعنفهم وهرطقاتهم الآريوسية[1]. ربما سيدمرون كل شيء أحبه في ضعف منه كواعظ، لكنه كثيراً ما وعظ من أجل نهاية العالم دون أن يحق له القلق. سيموت رجال، ستُغتصب نساء، وسيلطخ معطف البرابرة بالدم مرة أخرى. الأرضية التي يرقد عليها القديس أوغسطين مرسومة كلها بالألفا والأوميغا[2]، وعلامة المسيح، التي يلمسها بأطراف أصابعه. لا يزال وعد الرّب يتحقق والروح التي تحتضر ضعيفة وقابلة للإغواء. أي وعد يمكن أن يضربه الرّب للبشر، «هو» الذي لم يعرفهم إلا قليلاً بحيث ظل أصمّ ليأس «ابنه» الخاص، ولم يفهم ولو «أنه» جعل من «نفسه» واحداً منهم؟ وكيف سيثق الناس بوعوده حين يئس المسيح نفسه

(١) Arienne الآريوسية هي مذهب مسيحي وإحدى الطوائف التي لم يعد لها وجود في الوقت الراهن، تُنسب إلى آريوس (حوالي ٢٥٠ - ٣٣٦) أحد كهنة الإسكندرية وتتمحور تعاليمها المختلفة عن سائر الطوائف في علاقة أقانيم الثالوث الأقدس ببعضها البعض، وطبيعتها. في عام ٣٢٥ اعتبر آريوس هرطوقاً في مجمع نيقية الذي عقده الإمبراطور قسطنطين.

(٢) Alpha et de l'Oméga ألفا وأوميغا هما الحرف الأول والحرف الأخير من الحروف اليونانية، وهي كذلك إحدى تسميات المسيح أو الرّب في كتاب الاعترافات. ويستخدم هذان الحرفان باعتبارهما من الرموز المسيحية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

من ألوهيته الخاصة؟ أخذ القديس أوغسطين يرتجف على الرخام البارد، وقبيل أن تنفتح عيناه على النور الخالد، المشع على المدينة التي لن يستطيع أي جيش أن يسيطر عليها، تساءل بقلق فيما لو أن جميع المؤمنين البكائين، والذين لم يجدوا مواساة في موعظته عن سقوط روما، تساءل إذا هم فهموا كلامه أحسن مما فهمه هو نفسه. تمر العوالم، في حقيقة الأمر، الواحد تلو الآخر، من ظلمات إلى ظلمات أخرى، وربما لا يعني تعاقبها شيئاً. وهذه الفرضية التي لا تطاق، تحرق روح القديس أوغسطين الذي أطلق تنهيدة، طريحاً بين أخوانه، جاهداً نفسه للاستدارة نحو الرّب لكنه لم يرَ إلا تلك الابتسامة الغريبة المبللّة بالدموع، والتي أهدته إياها طهارة فتاة مجهولة، كي تقدم له شهادة على النهاية، وفي الوقت ذاته، على البداية، لأنها الشهادة الوحيدة ذاتها.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

إشارات المؤلف

إن عناوين الفصول، فيما عدا الفصل الأخير، هي من وصايا القديس أوغسطين. اخترت استخدام الترجمة الممتازة لجان ـ كلود فريدوي، والتي نشرت في ٢٠٠٤ من قبل معهد الدراسات الأوغسطينية. ولقد أوردت أيضاً «مزامير الإنجيل» واقتبست من قصيدة بول سيلان «هروب الموت»، «خصلات رماد» لسولاميث والتي هي بدورها مقتبسة من «سفر التكوين».

لم يكن بمقدوري، بدون مساعدة من دانييل إستريا، أن أتخيل ما يمكن أن تكون عليه كاتدرائية أفريقية في القرن الخامس، ولا بأيّ طريقة كانت تجري مراسيم الوعظ.

ساعدني جان ـ ألن هوسير على أن أتعرف على كل من أسرار الإدارة الاستعمارية والأمراض القارية، والتي سمحت لنفسي أن أحرّف بعض أعراضها بحسب القيم التي لا أتجرأ أن أصفها بالجمالية.

ليتأكد كل منهما بامتناني وصداقتي.

هناك أشياء كثيرة أجد نفسي مديناً بها إلى عمي الكبير أنطوان فيسبريني لذلك بدا لي أكثر سهولة وبساطة وعدلاً، عوض أن أحصيها وأدونها، أهدي له هذه الرواية والتي لم يكن لها أن تولد لولا وجوده.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

مؤلفات باولو كويلو

- إحدى عشرة دقيقة
- الشيطان والآنسة بريم
- الخيميائي
- على نهر بييدرا هُناك جلست فبكيت
- حاجّ كومبوستيلا
- الجبل الخامس
- ڤيرونيكا تقرر أن تموت
- الزَّهير
- ساحرة بورتوبيللو
- الرابح يبقى وحيداً
- أوراق محارب الضوء
- مكتوب
- بريدا
- ألِف
- مخطوطةٌ وُجدت في عَكرا

ليلى عسيران

- الاستراحة
- الحوار الأخرس
- المدينة الفارغة
- جسر الحجر
- خط الأفعى
- عصافير الفجر
- قلعة الأسطة
- لن نموت غداً

د. نعمة الله ابراهيم

- فروخ ناز (ألف يوم ويوم)
- السير الشعبية العربية

د. أحمد حاطوم

- المساجلات
- في مدار اللغة واللسان
- قواعد فاتت النحاة
- كتاب الإعراب
- نقوش

شكري نصرالله

- كنوز العرب
- قالوا وفعلوا: وقائع من تاريخ العرب وتراثهم
- الثالث
- السنوات الطيبة

منشورات المجلس القطري للثقافة والتراث

- **تاريخ اللغات ومستقبلها** - هارولد هارمن
- **فلسطين في الشعر الاسباني المعاصر** - د. محمد الجعيدي
- **هل كنا مثل أي عاشقين؟** - نافتج سارنا

جين ساسون

- مغامرة حب في بلاد ممزقة
- سموّ الأميرة
- بنات سموّ الأميرة
- لأنك ولدي
- حلقة الأميرة سلطانة

منى دايخ

- طلاق الحاكم
- إيزيس في القدس
- بوح أنثوي
- غزل العلوج

راوي الحاج

- لعبة دي نيرو
- الصرصار

روحي طعمة

- لا أحد يفهم ما يدور الآن
- امرأة للشتاء المقبل

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

طلال حيدر

- آن الأوان
- سرّ الزمان

عصام محفوظ

- عشرون روائياً عالمياً يتحدثون
- مختارات من الشعراء الرواد في لبنان

◆ ◆ ◆

- الناس والآخرون - قدري قلعجي
- الأيام والناس - برهان الدجاني
- علم الإبداع - د. مروان فارس
- انظر إليك - مرام المصري
- بائع الفستق - سمير عطا الله
- اللباس والزينة في العالم العربي - أ . بينول
- أُخذَةُ كِشْ - ألبير نقاش
- صورة العادات والتقاليد والقيم الجاهلية - د. محمد أبو علي
- إميل بجاني، كاتب في الغربال - بقلم شخصيات عدة
- طه حسين، من الشاطئ الآخر - عبد الرشيد محمودي
- موسوعة الأمثال والحكم والأقوال العالمية - منير عبود
- قصة يوطوبيا . قصة مشربية - حسن فتحي
- جدلية الحب والموت عند جبران خليل جبران - د. بطرس حبيب
- الحب والتصوف عند العرب - د. عادل كامل الآلوسي
- سنوات ضائعة من حياة المتنبي - هادي محيي الخفاجي
- الطربوش - روبير سوليه
- مهما قلت لا تقل - د. نبيل سليمان
- امرأة تبحث عن وطن - ماريا المعلوف
- خطوات أنثى - رُدينة الفيلالي
- أثواب الحزن - هدى السراري
- وراء الأفق - ابراهيم أبو زيد
- بساطٌ من الزهر الأحمر - نيلوفر بازيرا
- إمرأة. . . وظلاّن - خلود عبد الله الخميس
- اعترافات غايشا - آرثر غولدن
- خريف من ذهب - جوزيف طوبيّا
- يساورني ظنٌّ أنهم ماتوا عطاشى - غسّان علم الدين
- حقيبة حفر - عاطف البلوي
- ألف عام من الصلاة - يون لي
- حبٌّ محرَّم - يوكيو ميشيما
- بيل كانتو - آن باتشيت
- عشّاق أمي - هاجر عبد السلام
- الخامدون - ربى عنبتاوي
- هو وهي في السعودية - هنّان بن محمد الطاسجي
- نسرين ستموت الليلة - رواية بوليسية - خديجة نمري
- حبيبتي الحقيقة - أحمد طقش
- الوردة الضائعة - سردار أوزكان
- أرملة مهندس - صالح ابن عايض
- بومبي - روبيرت هاريس
- ويسألونك عن الذاكرة - د. عبد السلام فزازي
- الزمن المستعار. . . د. عبد السلام فزازي
- فتاة من بلغراد - لويس دو بيرنيير
- أصل الغواية - منتهى العزة
- دماء الأزهار - أنيتا أميرسفاني
- باب للخروج - طارق محمود فراج
- الحريم اللغوي - يسرى مُقدّم
- الخجل والكرامة - داغ سولستاد
- هل يفرّقنا الدين؟ - حسن السيد أسعد فضل الله
- أبعد من الريف - شعراء خالدون في عيون الألف الثالث - لامع الحر
- أحمد فؤاد نجم - د. كمال عبد الملك
- متالية فرنسية - إيرين نيميروفسكي

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- **أثر الفكر الديني في روايات پاولو كويلو** - بكادي محمد
- **«الأصوليّ» المتردّد** - محسن حامد
- **مولود وثلاثة آباء** - نائل ماجد مجذوب
- **وصية شاعرة** - ناهد عيد
- **صيف الجرّاح** - محمد طعّان
- **نهاية جيل** - محمد سعيد طالب
- **ما يفعله الغريب في الليل** - محمد دياب
- **رحمة** - توني موريسون
- **الغشوة** - د. راضي شحادة
- **ابن الحزب** - فيصل فرحات
- **رحلة بهمان** - محمد طعان
- **مجانين بوكا** - شاكر نوري
- **التوأم** - غيربرند باكر
- **حين تستحيل الحياة نوراً** - سردار أوزكان
- **اللعنة على نهر الوقت** - بير بيترسون
- **مرض الموت** - مارغريت دوراس
- **ميتينغ** - جوليان حكيم
- **ذبائح ملوّنة** - سليم اللوزي

- **مذكّرات امرأة شيعيّة** - رجاء نعمة
- **١٨ يوماً في ميدان التحرير** - قصة رامي حبيب - رسم أحمد سليم
- **قراءات جديدة في الأدب العربي** - أ.د. كمال نجيب عبد الملك
- **أنا... والعيون الزجاجية** - ملك محمد جودة
- **سأعطيك الحلوى شرط أن تموت** - وائل رداد
- **سوريو جسر الكولا** - ياسين رفاعيّة
- **الرومنطيقيّة في الشعر العربي المعاصر** - د. ڤيكتور غريّب
- **مثل السَّكْت** - سوسن مرتضى
- **رواية ١٩٥٣** - ملك محمد جودة
- **إنه الدم** - نوال السعداوي
- **نوال السعداوي وعايدة الجوهري في حوار حول الأنوثة والذكورة والدين والإبداع** - د. نوال السعداوي ود. عايدة الجوهري
- **المنوّر** - جوزيه ساراماجو
- **محاولات اغتيال علي** - محمد بركات
- **موعظة عن سقوط روما** - جيروم فيراري
- **الظلُّ فجرٌ داكن** - مهدي منصور

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

International Press

الجية، طلعة زاروط،
مبنى International Press، لبنان
هاتف: ٣٠٠/ ٩٩٦٢٠٠ ٧ ٩٦١+
البريد الإلكتروني: Interpress@int-press.com
الموقع الإلكتروني: www.int-press.com

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

جيروم فيراري

ولد في باريس، قام بالتدريس في الجزائر وكورسيكا. ومنذ ٢٠١٢ يعمل أستاذاً للفلسفة في مدرسة ثانوية فرنسية في أبوظبي.
له ٦ روايات عدا هذه، حاز عنها: جائزة تلفزيون فرنسا، وجائزة لاندرنو، وجائزة «أس جي دي أل» وجائزة Prix Goncourt الفرنسية المرموقة، عن رواية "موعظة عن سقوط روما".

ما هو هذا العالم؟ من أين ابتدأ؟ وكيف ينتهي ومتى؟
أسئلة تراودنا جميعًا، تمكّن رجُلان من الإجابة عنها، وهما يجلسان كل يوم في حانةٍ بقريتهما الكورسيكية، حيث تنسج الرواية أحداثها. وهما اللذان غادراها إلى باريس ذات شبابٍ لدراسة الفلسفة، وقفلا عائدين خائبين، ليبنيا عالمًا مختلفًا عمّا رأياه هناك، وسمعا عنه، وبعيداً من النظريات التي درساها!

للريف الكورسيكي، على ما يبدو، منطقهُ الخاص، وشخصياتهُ وأحداثه المتواترة، المدهشة في كثير من الأحيان.. لكن ما بُني فيه، انهار تماماً، كما انهارت روما في التاريخ؛ ليقدّم الكاتب مقولته الأهم:
العالمُ يولد وينتهي كالبشر، ولا شيء جديد منذ الأزل.

مناخ روائي نقل تفاصيل الأحداث، لتبلغ الحواسّ الخمس كافّةً، إذ مكّننا من رؤية ما يجري بالصوت والصورة، والرائحة، واللمس.. رصد نبض الحياة ونقل الانفعالات والأحاسيس والملامح المرتسمة على سحن الأبطال، وهم يختبرون الفضيلة والخطيئة، والنجاح والإخفاق في حياتهم اليومية البسيطة.

رشحت هذه الرواية لجائزة Prix Femina ضمن اللائحة القصيرة المكونة من ٤ روايات، ثم لجائزة Grand Prix du Roman de l'Académie Française ضمن اللائحة القصيرة المكونة من ٣ روايات.

ISBN 978-9953-88-815-6

الجناح، شارع زاهية سلمان،
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب: ٨٣٧٥-١١ بيروت، لبنان
تلفون: ٠٠٩٦١١٨٣٠٦٠٨ فاكس: ٠٠٩٦١١٨٣٠٦٠٩
tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

www.kutub-pdf.net